نساء فى حياة

الرســــــــــول صلى الله عليه وسلم

السيد إبراهيم أحمد

إهــداء

إلى أمي .. التى قبست من نور أمهات المؤمنين ..

وإلى زوجــتي .. التى تحاول السير على دربهــنّ..

وإلى بنات ونساء المسلمين .. والعالمين ..

أهدي هذا العمل ...

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أينما يممنا وجوهنا قبل المشرق أو المغرب نستطلع تاريخ البشرية إلا وجدنا للمرأة فيها باع، فلم يكد يتم الله - عز وجل - خلق آدم حتى أحس آدم بالوحدة تنتاب جنبات نفسه؛ فقد جاء خلقه وتكوينه فريدًا لا هو من عالم الملائكة ولا ينتمي بالطبع إلى عالم الجن، وكان قدر الله المقدور أن يخلق حواء منه ليأنس بها ويسكن إليها، وتسكن إليه.

ثم كان الأمر من الله بالهبوط للزوجين ليبدأ معًا رحلة الحياة التي خلق الله الجنس البشري من لدن آدم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لعبادته فيها سبحانه، والتزام أوامره بتعميرها، وجاء أمر الله ابتداءً ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وانتهاءً بأمره جل وعلا ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ لينفي الإسلام ذلك العار الذي جلل المرأة في الديانات السابقة واتهامها بأنها أصل كل خطيئة، وأنه لولاها لبقيّ الجنس البشري مخلدًا في الجنة، وهذا فهمٌ لا يستقيم لا مع ظاهر الآيات فحسب وإنما لا يستقيم كذلك مع إرادة المولى - سبحانه - من الهدف والمهمة التي خلق من أجلها آدم عليه السلام.

ومثلما صاحبت المرأة تاريخ البشر بعد خلق آدم عليه السلام صاحبت المرأة تاريخ الأنبياء عليهم وعلى نبينا جميعًا الصلاة والسلام ، فحيثما قلبنا صفحات الأسفار بحثًا عن تاريخ كل نبي ودعوته لن نعدم أن نجد اسمًا أو أسماء لنساء هنا وهناك تتردد في جنبات سيرته سواءً بالسلب أو بالإيجاب.

وبالتبعية كان في سيرة المبعوث رحمةً للعالمين سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ للمرأة مكانًا ومكانة بدت لنساء ترددت أسمائهنّ هنا وهناك أكثرهنّ الصالحات، وأما من ورد ذكرهنّ بالسلب فهنّ قلة تأتي على رأسهنّ أم جميل ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ كما ورد نعتها في القرآن الكريم.

غير أن قاربنا في رحلتنا العاطرة في سيرة بعض النساء في حياة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لن يُسمح له بالوقوف إلا عند مرافيء

النساء اللاتي أحطنّ الرسول بالود والرعاية وحسن العيش؛ لنتزود منهنّ رجالاً ونساءً على السواء بمكارم الأخلاق وعظيم الصفات.

والحق يقال أن المرأة في ديننا الحنيف قد نالت أسمى آيات التكريم، وتبوأت قمة الهرم على مستوى حقوق الإنسان منذ أرسل الله نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأنزل كتابه الكريم، كحقها في الزواج والطلاق والميراث التي كانت محرومة منه في العصور التي خلت من قبل، كما أصبح لها دور بارز في الحياة الاجتماعية، والعسكرية كمشاركتها الرجال فى عدد من الغزوات، والفكرية والعلمية كتصدرها لمجالس العلم والفكر في مختلف ميادينهما وأغراضهما.

لهذا حظيت الحضارة الإسلامية على مر العصور بذكر نساء أسهمنّ في بناء تلك الحضارة جنبًا إلى جنب مع الرجال، وما كان هذا ليتأتى لولا أن القواعد المؤَسسِة لحسن التعامل مع المرأة أثبتها وأسسها القرآن الكريم بالتوازي مع أقوال وأفعال صاحب الخلق العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولعل نظرة سريعة على مكانة المرأة في الحضارات والديانات السابقة لتنبيء عن ذلك أشد وأغنى بيان.

غير أن منهجنا لن يقترب من سرد الوقائع والتاريخ وحسب وإنما قد يمتد الأمر لذكر شبهات ألقيت حول سيرة كل سيدةٍ جليلة منهن، مع ذكر الرد حول ما أثير من تلك الشبهات أو سوء الفهم أو الالتباس، وذلك حتى تكتمل الفائدة المرجوة من ذلك التناول .

وأرجو من الله أن يجعل هذا العمل في ميزان الحسنات لكاتبه وزوجه، ومن أشارت عليّ به، وناشره وقارئه وسادتنا العلماء من الذين نقلنا عنهم العلم والفهم، وأن يفتح للقاريء العزيز به بابًا من التواصل مع جانب من جوانب سيرة رسولنا الكريم ــ صلى الله عليه وسلم ــ العظيمة الجوانب.

السيد إبراهيم

الفصل الأول

السيدة آمنة : الأمينـة أم الأمين

(١)

اهتم العرب أيما اهتمام بعلم النسب سواء في جاهليتهم أو بعد أن دخلوا فى دين الإسلام أفواجًا، فكانت لهم فيه مدارس، مثل: مدرسة المدينة والشام، والمدرسة العراقية (في البصرة والكوفة)، والمدرسة اليمنية، ولأن هذا العلم من أجَل العلوم قدرًا فقد وضع له النسابون مصطلحات يتداولونها بينهم بحيث تخفى عمن ليس منهم، مثل: (صحيح النسب)، فيمن ثبت نسبه في ديوانهم وقوبل بنسخة الأصل فوجدوه منصوصًا عليه وثابت بإجماع النسابين من العلماء المشهورين بالعلم والأمانة والصلاح وكمال العقل، وطهارة المولد، و(مقبول النسب)، فيمن أنكره بعضهم وثبت نسبه بشهادة عدلين فصار نسبه مقبولاً عندهم، فإن لم يوجد منصوصًا عليه من طرف مشائخ النسابين، فلا تتساوى مرتبته بمرتبة من اتفق عليه بإجماع النسابين، و(مردود النسب): فيمن ادعى إلى قبيلة أي عائلة ولم يكن منهم فعلم به النسابون وأعلموا به تلك القبيلة وثبت بطلانه، فوجب منعه من دعوة الشرف فيصبح مردود النسب وخارج عن البيت الشريف.

وأما الأسباب التى دعت أهل العلم إلى الاهتمام بعلم الأنساب كونه من الأمور المطلوبة والمعارف المندوبة لما يترتب عليها من الأحكام الشرعية والمعالم الدينية، منها: العلم بنسب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأنه النبي القرشي الهاشمي الذي كان بمكة وهاجر منها إلى المدينة، وهذا العلم لابد منه لصحة الإيمان، ولا يعذر مسلم في الجهل به.

ومنها: التعارف بين الناس حتى لا ينتسب أحد إلى غير آبائه ولا ينتسب إلى سوى أجداده، وعلى ذلك تترتب أحكام الورثة فيحجب بعضهم بعضًا وأحكام الأولياء في النكاح فيقدم بعضهم على بعض، وأحكام الوقف إذا خص الواقف بعض الأقارب أوبعض الطبقات دون بعض، وأحكام العاقلة في الدية حتى تضرب الدية على بعض العصبة دون بعض وما يجري مجرى ذلك فلولا معرفة الانساب لفات إدراك هذه الأمور وتعذر الوصول إليها.

ومنها اعتبار النسب في الإمامة التي هي الزعامة العظمى؛ فلولا المعرفة بعلم النسب لفاتت معرفة هذه القبائل وتعذر حكم الإمامة العظمى التي بها عموم صلاح الأمة وحماية البيضة وكف الفتنة وغير ذلك من المصالح (١).

ولقد كان من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من له باعٌ طويلٌ بالنسب وأشهرهم في هذا أبو بكر الصديق ولهذا فقد أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشاعر حسان بن ثابت الأنصاري أن يستعين بأبي بكر ليرد على كفار قريش لعلمه بأنسابهم؛ إذ كان لأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ في علم النسب المقام الأرفع والجانب الأعلى وذلك أول دليل وأعظم شاهد على شرف هذا العلم وجلالة قدره، ولعل ما يؤكد هذا ما رواه صاحب الريحان والريعان عن أبي سليمان الخطابي أنه قال : كان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ نسابة فخرج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات ليلة فوقف على قوم من ربيعة فقال: ممن القوم؟، قالوا: من ربيعة، قال: وأي ربيعة أنتم أمن هامتها أم من لهازمها؟، قالوا: بل من هامتها العظمى، قال أبو بكر: ومن أيها؟، قالوا: من ذهل الأكبر. قال أبو بكر: فمنكم عوف الذي يقال له لا حر بوادي عوف؟، قالوا: لا، قال: أفمنكم بسطام بن قيس ذو اللواء أبو القرى ومنتهى الاحياء؟، قالوا: لا، قال: أفمنكم الحوفزان "الحارث بن ئريك " قاتل الملوك وسالبها نعمها وأنفسها؟، قالوا: لا، قال: أفمنكم المزدلف "ابن أبي ربيعة ابن ذهل بن شيبان " الحر صاحب العمامة الفردة؟، قالوا: لا، قال: أفمنكم الملوك من كندة؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم أصهار الملوك من لخم؟، قالوا: لا، قال: فلستم بذهل الأكبر بل ذهل الأصغر. فقام إليه غلام من شيبان يقال له دغفل وقد بقل وجهه؟، فقال: إن على سائلنا أن نسأله.. والعبء لا تعرفه أو تحمله يا هذا إنك قد سألت فأخبرناك ولم نكتمك شيئًا من خبرنا فممن الرجل؟، قال أبو بكر: أنا من قريش، قال : بخ بخ أهل الشرف والرئاسة، فمن أي القرشيين أنت؟، قال: من ولد تيم بن مرة، قال الفتى: أمكنت والله الرامي من صفاء الثغرة،أفمنكم قصي بن كلاب الذي جمع القبائل من فهر وكان يدعى مجمعًا؟، قال: لا، قال: أفمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه؟، قال: لا، قال: أفمنكم شيبة الحمد مطعم طير السماء الذي كأن وجهه قمر يضيء في الليلة الظلماء؟ قال: لا، قال: أفمن المفيضين بالناس أنت؟، قال: لا، قال: أفمن أهل الندوة أنت؟ قال:

لا، قال: أفمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا،قال: أفمن أهل الرفادة أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل الحجاجة أنت؟! قال: لا.

واجتذب أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ زمام ناقته فرجع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال الفتى: صادف درأ السيل درأ يدفعه يهيضه حينًا وحينًا يصدعه أما والله يا أخا قريش لو ثبت لأخبرتك أنك من زمعات قريش ولست من الذؤائب أو ما أنا بدغفل.

قال: فأخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتبسم. فقال علي ـ رضي الله عنه ـ: يا أبا بكر لقد وقعت من الغلام الأعرابي على باقعة ، قال: أجل يا أبا الحسن، ما من طامة إلا وفوقها طامة وإن البلاء موَكل بالمنطق.

ودغفل هذا هو دغفل بن حنظلة النسابة الذي يضرب به المثل في النسب وقد كان له معرفة بالنجوم وغيرها أيضًا من علوم العرب، قال الجاحظ عنه : "لم يدرك الناس مثله لسانًا وعلمًا وحفظًا وقد ضرب به المثل: (فلان أنسب من دغفل) كان أعلم أهل زمانه بالأنساب".

ولعل أول ما كُتِبَ في صدر الإسلام إنما كان في علم النسب، فقد تزامن مع بداية التدوين فى عهد الفاروق وكان على يد أولئك الذين أتى بهم الخليفة عمر بن الخطاب، فعهد إليهم بوضع سجلات الأنساب التي أنشأها وهم : جبير بن مطعم بن عدي القرشي، عقيل بن أبي طالب عبد مناف الهاشمي، مخرمة بن نوف بن أهيب الزهيري القرشي.

وكانت توجيهات الخليفة عمرالصادرة إليهم في هذا الشأن ـ كما روى ابن سعد(٢)ـ أن يدونوا ثبتًا بأنساب العرب على قبائلهم حسب قربهم من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأجل تنظيم ديوان العطاء.

والمدهش أن كل من ورد ذكرهم سابقًا قد أوردهم الشيخ أبو بكر بن زيد في الطبقة الأولى من النسابين الصحابة في كتابه: (طبقات النسابين) .. وسأوردهم مع غيرهم بتصرفٍ يسير:

١- **خليفة رسول الله أبو بكر الصديق :**
قال ابن إسحاق: كان أنسب العرب، وقال العجلي: كان أعلم قرشي بأنسابها. وقال أبن أسحاق أيضًا: كان أنسب قريش لقريش، وقد أخذ النسب عنه: جبير بن مطعم، وحسان بن ثابت، وحكيم بن حزام.
٢- **أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بن نفيل القرشى العدوى** :كان ـ رضى الله عنه ـ نسابة.
٣- **حسان بن ثابت الخزرجى الأنصارى.**

٤ - **مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة القرشي الزهري.** أمه رقيقة بنت بن أبي صيفي بن هاشم بن عبد مناف، وكنيته: أبو صفوان، وهو والد المسور بن مخرمة، وابن عم سعد بن أبي وقاص بن أهيب ، كما كان من مسلمة الفتح، من المؤلفة قلوبهم، وحسن إسلامه، وكان له علم بأيام الناس، وبقريش خاصة، وكان يؤخذ عنه النسب.

٥- **أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها وعن أبيها وجدها** . قال عروة بن الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما رأيت أحدا أعلم بالحلال والحرام والعلم والشعر والطب من عائشة أم المؤمنين". وفي رواية أخرى: "ما رأيت أحدًا أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحرام ولا بحلال ولابفقه ولا بشعر ولا بطب ولا بحديث العرب ولا نسب من عائشة".

٦- **حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي الأسد ابن أخي خديجة زوج النبى صلى الله عليه و سلم** قال الذهبي: كان حكيم علامة بالنسب، فقيه النفس، كبير الشأن.
٧- **جبير بن مطعم القرشي النوفلى كان أنسب العرب للعرب، وكان يقول:** إنما أخذت النسب من أبي بكر الصديق، وقد عده كاتبوا سيرته من مشاهير علماء النسب فى عصره.
٨- **عقيل بن أبي طالب بن عبد مناف القرشي الهاشمي:** أخو علي وجعفر رضى الله عنهم . وكان عالماً بأنساب قريش ومآثرها ومثالبها، علامة بالنسب وأيام العرب، ومن أنسب قريش وأعلمهم بأيامه.

٩- دغفل بن حنظلة بن زيد بن شيبان بن ذهل الشيباني الذهلي النسابة.

وبعد ماتقدم.. فهل هناك من تسول له نفسه وهو مجهول النسب أو الهوية أن يجاهر متفاخرًا بنسبه، أو يغامر بأن يعرض نفسه على قومه وفيهم من فيهم ممن ذكرنا من النسابة الأعلام؟!

سؤال لابد من طرحه على ذلك الذي جاء من دين مطعون في نسب إلهه من تناقضاتٍ جلية بين أسفاره المقدسة، ومع هذا يتجرأ فيتطاول على نسب سيده وسيد أجداده ويلمز بالقول هنا وهناك، وكل ما استطاع فعله هو السقوط على بعض الأحاديث الضعيفة في كتب التاريخ لا في الكتب المعتبرة لدى المسلمين، ناهيك عن كتابه المقدس الذى يروي المتناقضات وهنا مكمن الطامة الكبرى لأي دين .. فما بالكم بنسب إلهي كما يزعمون.

أخبرنا الحسن بن سفيان قال حدثنا هدبة بن خالد قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صالح قريشًا يوم الحديبية، قال لعلي: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو: لا نعرف الرحمن الرحيم اكتب باسمك اللهم، فقال صلى الله عليه وسلم لعلي : "اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم"، فقال سهيل بن عمرو: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك ولم نكذبك اكتب بنسبك من أبيك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : "أكتب محمد بن عبد الله فكتب"(٣).

نعم .. أكتب محمد بن عبد الله، وكتبها علي، ولم ينتهزها سهيل مطعنًا في نفي اسم النبي ونسبه أبدًا ولا يجرؤ سهيل ولا غيره على قول ذلك.

هل طعن أبو سفيان في نسب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمام ملك الروم هرقل ولو فعلها لأنهى الجدال لصالحه وانخسأ أتباع النبي صاغرين؟!

هل تخاذل عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة أن يواجها جعفرًا ابن عم الرسول في حضرة النجاشي ملك الحبشة وأمام هذا الحشد الوافر من

البطارقة والحاشية بالطعن والقدح في نسب محمد بن عبدالله ــ صلى الله عليه وسلم ــ برغم الهدايا المجلوبة للنجاشي، وبالرغم مما اتصف به عمرو من ذكاء، وكانت صداقته للنجاشي تعينه على فعل وقول ما يريد؟!

ولو فعلها جميعهم لما كان لمحمدٍ ولا لدينه ولا لأتباعه شأن يذكر ولقامت الدنيا حتى عهدنا هذا على ساقين فقط من الديانات السماوية هما اليهودية والمسيحية!!

ولو فعلوها فكيف خدعوا أنفسهم ودخلوا فيما بعد في دين نبي مكذوب النسب ـ حاشَ لله ـ؟!

من ذا الذى لمَ شمل الفوارس الفارة يوم حنين حين جاهر ــ صلى الله عليه وسلم ـ يناديهم بنسبه: ''أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ'' ... قال النووي رحمه الله: "فَإِنْ قِيلَ: كَيْف قَالَ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم: أَنَا اِبْن عَبْد الْمُطَّلِب'' فَانْتَسَبَ إِلَى جَدّه دُون أَبِيهِ وَافْتَخَرَ بِذَلِكَ مَعَ أَنَّ الِافْتِخَار فِي حَقّ أَكْثَر النَّاس مِنْ عَمَل الْجَاهِلِيَّة؟ ، فَالْجَوَاب : أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم كَانَتْ شُهْرَته بِجَدِّهِ أَكْثَر؛ لِأَنَّ أَبَاهُ عَبْد اللَّه تُوُفِّيَ شَابًّا فِي حَيَاة أَبِيهِ عَبْد الْمُطَّلِب قَبْل اِشْتِهَار عَبْد اللَّه، وَكَانَ عَبْد الْمُطَّلِب مَشْهُورًا شُهْرَة ظَاهِرَة شَائِعَة، وَكَانَ سَيِّد أَهْل مَكَّة، وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاس يَدْعُونَ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم ابن عَبْد الْمُطَّلِب يَنْسُبُونَهُ إِلَى جَدّه لِشُهْرَتِهِ".

فالعرب من أهل الحجاز، ومن بطون قريش وكذلك جميع القبائل العدنانية يلتقون مع سيد ولد آدم ـ صلى الله عليه وسلم ـ في النسب، كما قال ابنُ كثير (٤): فجميعُ قبائلِ عربِ الحجاز يَنتَهُون إلى هذا النَّسَب؛ كما قال ابنُ عباس وغيرُه في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾: لم يكُنْ بَطنٌ من بُطونِ قريشٍ إلا ولرسولِ الله صلى الله عليه وسلم نَسَبٌ يتصلُ بهم. وذلك أنَّ جميعَ قبائلِ العرب العدنانية تنتهي إليه بالآباء، وكثيرٌ منهم بالأمهات أيضًا. كما ذكرَه محمد بنُ إسحاق وغيرُه في أمهاته وأمهات آبائه وأمهاتهم ما يطولُ ذكره.

كيف رضيت خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية، الطاهرة، سيدة قريش، وهيّ من أوسط قريش نسبًا وأعظمهم شرفًا وأكثرهم مالاً وأحسنهم جمالاً وفضائل نفس، أن تسعى للزواج من شاب مجهول النسب ـ بزعمهم ـ قائلة له: "يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسماحتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك"؟!..بل كيف يجرؤ أبو طالب عم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول في خطبة عقد القرآن أمام رؤساء مضر، ووجهاء قريش: " الحمد لله الذي جعلنا من ذريّة إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضِئْضئ معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسُوَّاس حرمه، وجعله لنا بيتًا محجوجًا، وحرمًا آمنًا، وجعلنا حكام الناس ثم إنَّ ابنَ أخي هذا محمدُ بن عبد الله لا يوزن به رجلٌ إلا رَجَح به شرفًا ونُبْلاً وفضلاً وعقلاً"؟!

لماذا لم يعترض ورقة بن نوفل ـ ابن عم خديجة ـ الذي خطب في نفس المجلس فقال: "الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت وفضَّلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل لذلك كله، لا ينكر العرب فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، فاشهدوا عليَّ معاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبدالله خديجة بنت خويلد"؟! بل أردف عمها بقوله: "اشهدوا عليَّ معاشر قريش أني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله".

وكان هند بن أبي هالة، ابن خديجة، وربيب الرسول، يقول: "أنا أكرم الناس أمًا وأبًا وأخًا وأختًا: أبي رسول الله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمي خديجة، وأخي القاسم، وأختي فاطمة".

إنه محمد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ــ أشرف الناس نسبًا، وأكملهم خَلْقًا وخُلُقًا، فعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: ’’إنَّ الله اصطفى مِن وَلَدِ إبراهيمَ إسماعيلَ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم’’(٥).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالُ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ’’بُعِثْتُ من خيرِ قُرونِ بَنِي آدم قرناً فقرْناً حتى بُعِثْتُ من القرنِ الذي كنتُ فيه’’.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن المطلب بن أبي وداعة قال: قال العباس: بلغه صلى الله عليه وسلم بعض ما يقول الناس فصعد المنبر فقال: ''من أنا؟'' ، قالوا: أنتَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ''أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إنَّ الله خَلَقَ الخلقَ فجَعلَني في خير خَلقِه، وجعلَهم فريقيْن، فجَعَلَني في خير فِرقة، وخلقَ القبائلَ فجعلَني في خير قبيلة، وجعلَهم بُيوتاً فجعلنِي في خيرهم بيتاً؛ فأنا خيرُكم بيتاً وخيرُكم نفسًا''.

وفي الحديث أيضا المرويِّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : ''قال لي جبريل: قلَبْتُ الأرضَ مَشارِقَها ومَغارِبَها؛ فلم أجِدْ رجلا أفضلَ من محمدٍ، وقلَبْتُ الأرضَ مَشارِقَها ومَغارِبَها فلم أجِدْ بنِي أبٍ أفضلَ من بني هاشم''(٦).

فكيف إذن لمحمدنا الأكرم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول : ''أنا ابن الذبيحين'' إلا إذا كانت قصة انتسابه للذبيح الأول مشتهرة فيهم ـ رغم بعد زمانها ـ وحقيقة انتسابه للذبيح الثاني عبدالله بن عبد المطلب على بُعد فراسخ من وقائع أيامهم زماناً ومكاناً يعلمونها ويحفظون ما جرى فيها.

(٢)

إنه محمد بن عبد الله، وعبدالله كان أحب ولد أبيه عبد المطلب إليه، وذبيح قريش وفتاها بل أجمل شبابها، وحديث نواديها ومطمع بعض نسائها للنورالذى كان يشع من وجهه، ومرادهن وغاية المنىَ لفتيات قريش في الاقتران به، وقصته مع زمزم وحفرها أيضًا كانت ذائعة فزمزم كانت قد طمرتها قبيلة جُرهم قبيل مغادرتها مكة لظلمها وانهزامها، وكان ذلك منها نقمة على أهلها الذين حاربوها وطردوها. وظلت زمزم مطمورة إلى عهد أبيه عبد المطلب الذى أرِي في المنام مكانها، فحاول إعادة حفرها، ومنعته قريش، ولم يكن له يومئذ من ولد يعينه على تحقيق مراده إلا الحارث فنذر لله تعالى إن رزقه عشرة من الولد يحمونه ويعينونه ليذبحن أحدهم، ولما رزقه الله عشرة من الولد أراد أن يفي بنذره لربه فاقترع على أيهم يكون الذبح، فكانت القرعة على عبد الله، وهمَّ أن يذبحه عند الكعبة فمنعته قريش، وطلبوا إليه أن يرجع في أمره إلى عرافة خيبر لتفتيه في أمر ذبح ولده ، فأرشدته إلى أن يضع عشرًا من الإبل وهي دية الفرد عندهم، وأن يضرب بالقداح على عبد الله وعلى الإبل، فإن خرجت على عبد الله الذبيح زاد عشرًا من الإبل، "وإن خرجت على الإبل فانحرها عنه فقد رضيها ربكم، ونجا صاحبكم!!".. فوصلوا إلى مكة وجيء بالإبل وصاحب القداح، وقام عبد المطلب عند هبل داخل مكة يدعو الله - عز وجل-، وأخذ صاحب القداح يضربها، وكلما خرجت على عبد الله زادوا عشرًا من الإبل حتى بلغت مائة، كل ذلك وعبد المطلب قائم يدعو الله - عز وجل - عند هبل، فقال رجال قريش: قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب. فأبى إلا أن يضرب عنها القداح ثلاث مرات، ففعل فكانت في كل مرة تخرج على الإبل، وعندها رضي عبد المطلب ونحر الإبل، وتركها لا يُصدُّ عنها إنسان ولا حيوان، ونجَّى الله تعالى عبد الله.

وكانت المكافأة لعبدالله بعد نجاته أن يتزوج "فتاة زُهرة" آمنة بنت وهب زَهرة بنات قريش وبنت سيد بنى زُهرة" وهب بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي" فأى شرفٍ وأى حسب ، وأما أمها فهيّ برة بنت عبد العزي بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب، وجدها عبد مناف بن زهرة الذي

يُقرن اسمه بابن عمه عبد مناف بن قصي، فيقال: (المنافان) تعظيمًا وتكريمًا فهيّ كما حكى ابن هشام في سيرته : "أفضل فتاة في قريش نسبًا وموضعا".

وهكذا قدر الله أن تعرف آمنة أن عبدالله ابن عمها التي التقته في صغرها كما يلتقي أقارب العائلة الواحدة حيث كانا يسكنان في جهة واحدة من مكة أن يكون هو زوجها.

كما قدرالله أن يكون نبينا - صلى الله عليه وسلم - سليل عشيرتين كبيرتين من قريش بل أكبر القبائل التى عرفها العرب.

أما الذى يعنينا هنا ليس أمر زواج آمنة وحسب ولكن الوقوف على أمر تلك الفتاة التي حسدتها صويحباتها ولداتها لنيل هذا الشرف العظيم بالفوز بفتى مكة الذى كان حلم معظمهن، ثم مالبثت أن جنت بعد تلك الفرحة الغامرة القصيرة حزنًا وهمًا طويلاً بعد حياة زوجية قصيرة أيضًا؛ فقد فارقها زوجها فراقًا أبديًا وهيّ التى ودعته على أمل اللقاء به بعد رحلة تجارية فإذا بها بعد الانتظار المضني تفجع بأن الغربة صارت غربتان غربة السفر ثم أعقبها غربة الفراق الذي لا لقاء بعده، وكيف للحياة أن تحلو وفي أحشائها يسكن جنين سيخرج للدنيا يتيمًا، فمن لها ومعها وهيّ تصارع وحدها أهوال وشدائد الحياة التي عصفت بكل أحلامها وآمالها دفعةً واحدة؟ مات عبدالله ولم يكن عمر الجنين عند فقده إلا شهران، وهذا هو الرأي الذى ذكره ابن إسحاق، وتابعه عليه ابن هشام، وهو الرأي المشهور بين كتاب السير والمؤرخين وكان عمر عبد الله حينذاك ثماني عشرة سنة.

شاءت إرادة الله أن يطل على الدنيا الجنين يتيمًا في صبيحة يوم الأثنين التاسع من شهر ربيع الأول لينطلق نوره من شعب بني هاشم بمكة لا ليضيء قصور الشام وحسب بل ليضيء كل جنبات الدنيا عندما يصبح رسول الله للناس كافة.

سمى عبد المطلب جد الرسول - صلى الله عليه وسلم - حفيده (محمد)، ودخل به الكعبة، ودعا له. يقول البروفيسور عبد الأحد داود (٧): (إنها

لمعجزة فريدة حقًا في تاريخ الأديان، أن يُطلق اسم محمد من جميع أبناء آدم على نجل عبدالله وآمنة في مدينة مكة لأول مرة، ولايمكن أن تكون هناك حيلة زائفة أو محاولة ما أو تزوير ما فى هذا المجال، لأن والديه وأقرباءه كانوا وثنيين ولم يعلموا شيئًا مطلقًا عن التنبؤات العبرية، وأن اختيارهم لاسم محمد أو أحمد لايمكن تفسيره بأنه كان على سبيل المصادفة، أو حدثًا عرضيًا).

قال البعض أن من سماه بهذا الاسم أمه آمنة وقال بعضهم بل الله سبحانه وتعالى وإن كان المشهور أن الذي سماه جده عبد المطلب، ولأن "عبد الأحد" لا يتصور أن يكون هذا الاسم ـ محمد ـ جاء مصادفة أو عَرَضًا، يقول الدكتورمحمد شيخاني (٨) موفِقًا بين أنه إلهام من الله وأن الذى سماه جده : (ومن الموافقات الجميلة أن يُلْهَم عبد المطلب تسمية حفيده محمدًا، وأنها تسميةٌ أُعِينَ عليها ولم يكن العرب يألفون هذه الأعلام، لذلك سألوه : لم رغبت عن أسماء آبائه وأجداده؟ فأجاب : أردتُ أن يحمده الله فى السماء، وأن يحمده الخلق فى الأرض فكانت هذه استشفافًا لغيب، فإنه لايوجد فى الإنسانية من يستحق ازجاء الشكر والثناء كما يستحق المحمّد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لِما أسدى للإنسانية من خيرٍ عميم).

قال ابن قتيبة: من أعلام نبوّته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنّه لم يُسَمّ قبله أحد باسم محمد، صِيانة من الله لهذا الاسم، كما فعل مع يَحيى حيث لم يجعل له من قبل سَمِيًّا، قال تعالى: ﴿يا زَكريَا إنا نُبشِّرُكَ بغُلامٍ اسمُه يَحْيى لَم نَجْعَل له من قبْلُ سَمِيًّا﴾(٩) ولما قرُبَ زمنهُ وبشَّر أهل الكتاب بقربه سَمَّىَ قوم أولادَهم بذلك رجاء أن يكون هو، وعدّهم القاضِي عياض ستة فقط، وقال ابن حجر الذي جمع أسماء من تسمّى باسمه في جزء مفرد: "إنّهم حوالي العشرين مع تكرير في البعض ووهْم في البعض، وانتهى منهم إلى خمسة عشر نفسًا، ذكر أسماء المشهورين منهم وقال: لم يدرك الإسلام منهم إلا محمد بن عدي التميمي السعدي، ومحمد بن البراء البكري؛ لأنه صحابيٌّ جزما، وذكر ابن خَلِّكان أنّه لا يعرف أحد سُمِّيَ بمحمد في الجاهليّة إلا ثلاثة

محمد بن سُفيان بن مجاشع جدّ الفرزدق، ومحمد بن أُحَيْحة بن الجُلاح أخو عبدالمطلب لأمِّه، ومحمد بن حمران بن ربيعة".

أما اسم أحمد فلم يتسم أحد به قبل الرسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الحافظ العراقي:"وفي الصحيحين من حديث جبير بن مطعم عن النبي صلى الله عليه وسلم : ”إن لي خمس أسماء: أنا محمد وأنا أحمد“... " الحديث.

ولم يتسم بأحمد قبله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحدٌ ولا في زمنه ولا في زمن أصحابه، حماية لهذا الاسم الذي بشر به الأنبياء، وأول من سُمّي أحمد في الإسلام: أحمد بن عمر بن تميم والد الخليل بن أحمد العروضي.

حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا عبد الله حدثني أبي ثنا عبد الرحمن ثنا زهير عن عبد الله يعنى بن محمد بن عقيل عن محمد بن على أنه سمع علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ”أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء“، فقلنا: يا رسول الله ما هو؟ قال: ”نصرت بالرعب وأعطيت مفاتيح الأرض وسميت أحمد وجعل التراب لي طهور وجعلت أمتي خير الأمم“(١٠).

كما أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يأمر المسلمين بالتسمي باسمه ولم يرغبهم فى ذلك ، ولو أراد لأجابوه فقد كانوا يحبون التأسي به فى كل شيء. والحديث الذي رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ”تسموا باسمي ولاتكنوا بكنيتي“. فله واقعة مخصوصة وهي النهى عن اتخاذ كنيته "أبا القاسم" في حياته وجواز التسمي باسمه يؤيد هذا الحديث الوارد بمسند أحمد (٣/٣٨٥) حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن سالم عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي، فإنما جعلت قاسما أقسم بينكم“.

يقول ر.ف. بُودلى (١١)**: (فقد أصبح اسم الطفل محمدًا . وتسمى به ملايين الأطفال الذين ولدوا بعد الدين الجديد الذى قُدِّرَ أن ينشره على العالمين ابن آمنة من عبدالله).**

ولهذا تبارت معظم الأسرالمسلمة من عصر المبعث وحتى الآن في تسمية بعض مواليدها من الذكور بأسماء محمد أو أحمد حتى أصبح اسم محمد هو الأسم الأكثر انتشاراً فى العالم يليه اسم أحمد.

(٣)

مات عبدالله وكل ماتركه لآمنة وابنها خمسة أجمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن، وهى حاضنة الرسول - صلى الله عليها وسلم - حتى اللبن في ثدي آمنة قد جف فلم تقو على إرضاع وليدها وذلك بعد أسبوع من ولادته - صلى الله عليه وسلم - فأول امرأة أرضعت رسول الله هي ثويبة كما في تاريخ الطبري، حيث قال: "أول من أرضع رسول الله - صلى عليه وسلم - ثويبة بلبن ابن لها يقال له مسروح أيامًا قبل أن تقدم حليمة، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي" . وثويبة هذه مولاة لأبي لهب عم النبي صلى الله عليه وسلم.

ها قد بلغ النبيّ - صلى الله عليه وسلم - السادسة من عمره غاب فيها عن عينيٍّ آمنة قرابة العامين في مضارب بني سعد ابن بكر مسترضعًا عند حليمة بنت أبى ذؤيب، وذلك جريًا على عادة أهل الحضر من العرب من التماس المراضع لأولادهم من نساء البادية، فارتأت أن تذهب بطفلها وهو فى هذه السن إلى أخوال جده عبد المطلب بالمدينة من بني عدي بن النجار؛ لأن أم عبد المطلب هى : سلمى بنت عمرو النجارية، وقد كان هدف آمنة أن تُرىِّ ابنها بقية أهله فى المدينة وماهم عليه من عز ومنعة وجاهٍ وشرف، وكذلك ليزور قبر أبيه هناك، وكأنها أرادت أن تصل ابنها برحمه سواء بمكة أو المدينة، وكأنها استشعرت دنو الأجل فكانت الرحلة محملة بكل تلك القيم الأصيلة لامرأةٍ عربية تعي وتخبر التقاليد العربية الأصيلة.

خرجت آمنة وطفلها ومعهما أم أيمن بركة الحبشية جارية أبيه، ووصل الركب إلى المدينة، وكان المقام في دار النابغة من بني النجار، ومكثوا عندهم شهرًا، لم تملْ الزوجة الثكلىَ من زيارة قبر زوجها الذي واراه التراب سريعًا، وعند قبره أدرك الابن أن الميت لا يعود فأدرك معنى فقد الأب، وكانت آمنة الحزينة ترقب تصرفاته فيعتصر قلبها حزنًا عليه، وتخرج الكلمات والإجابات الملتاعة من صدرها وهي تنتزع من شفتيها ابتسامة

لتخفف آلام وأحزان وأسئلة الطفل اليتيم عن معنى الموت، وفراق الأب، ولم تحتمل آمنة المقام أكثر من هذا وكأن داعٍ دعاها فأعلنت القوم بنيتها في العودة إلى مكة.

وفي "الأبْوَاء" بين مكة والمدينة قضى الله أمرًا كان مفعولاً، حيث لم تحتمل آمنة مشقة البعد عن قبر الحبيب، وربما مشقة السفر في جوٍ قائظ لا ترحم فيه شمس تلك البلاد ماشيًا ولا راكبًا تحتها فمرضت، وزاد المرض عليها والطفل يرى التغيرات التي تصيب أمه من ضعفٍ وذبول بدا واضحين على محياها، وهو لا يملك غير مواساتها والتخفيف عنها، وبينما كانت أم أيمن تقوم على رعايتها كان محمدًا يرقب المشهد في صمت وحزن واشفاق والأم رغم أناتها تنظر إليه طويلاً وتهدأ من روعه كثيرًا حتى فرت بقايا مقاومتها وعافيتها أمام جحافل الموت الذي اختطفها أمام عينيه وهو لا يملك لها شيئًا.

وكأن الله قد رسم لنبينا قبل المبعث مسيرة حياته فهو سيبدأ الدعوة من مكة ثم يهاجر ويعيش ويدفن بالمدينة في نفس البلدة التي تضم رفات أبيه، وليكون قبر أمه بالأبْوَاء التي تبعد عن المدينة حوالي خمسة وعشرين ميلاً ترعاه في مسيره، وبالرغم من كون الأبْوَاء تقع على الطريق الجانبى لا طريق الجادة وهما الطريقان الرئيسيان بين مكة والمدينة إلا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد الهجرة كان يفضل الطريق الجانبى كثيرًا لمرورها بقبر أمه (١٢)، فكان كلما مرَّ بقبرها زاره، ويبكي ويُبكي من حوله، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: زار النبيّ صلى الله عليه وسلم قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، ثم قال: "استأذنتُ ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذنْ لي، فزوروا القبور تذكركم الموت" (١٣).

أصبح الطفل نبيًا ولم تغب عن باله آثار تلك الرحلة الثقيلة، وكيف لرحلةٍ مثل هذه ألا تكون ثقيلة على نفس طفل ما كاد يعلم معنى اليتم عند قبر أبيه، حتى عرف معنى الموت مجسدًا أمامه فى فقد الأم، ولهذا كان النبيّ - صلى الله عليه وسلم - ينظرإلى دار بني النجار بعد الهجرة قائلاً: "هنا نزلت بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله، وأحسنت العوم في بئر عدي بن النجار".

جاء إعلان الرسول الصادق الأمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإعلان كفر والديه فى زمن بعثته ولم يأبه له أحد من الصحابة، ولم يمتشقوا عصا التمرد اعتراضًا على انتساب الرسول لأبوين كافرين، ولأننا في زمن غلب فيه الاهتمام بسفاسف الأمور على النظر إلى أشرافها في الاهتمام بمثل تلك الموضوعات فأفرغ أهله فيه جل الطاقة ما بين مدافع ومهاجم، وانقسمت الأمة وكالعادة تكاتف الشيعة والصوفية ومن يسمون أنفسهم بالقرآنيين صفًا واحدًا ضد أهل السلف أو معتنقي الوهابية كما ينعتونهم، وتابعهم في العزف على نفس الوتيرة بعض أذناب النصارى.

وغاب عن الجميع أن هذه الأحاديث وهذا الإعلان دليل صدق على نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما جاء القرآن الكريم كذلك دليل صدق له حيث جاء من بين سوره بسورة المسد وفيها ما فيها من ذمٍ لعم الرسول نفسه أبا لهب ولو كان القرآن من صنع محمد لأزالها، وكذك لم يخن الرسول أمته فقد كان أمينًا فى التبليغ فما كتم شيئاً علمه من الله مما أوحى به إليه صلى الله عليه وسلم .

يقول الدكتور محمد سيد أحمد المسير(١٤): (إن الصدق ـ يقصد صدق الرسول عليه الصلاة والسلام ـ هو المعجزة الأولى التى دفعت الناس إلى الإيمان بالرسالة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم).

كما يقول الإمام أبي حامد الغزالى (١٥): (اعلم أن من شاهد أحواله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه ، وسياسته لأصناف الخلق، وهدايته إلى ضبطهم، وتألفه أصناف الخلق، وقودهم إياهم إلى طاعته مع ما يُحكَى من عجائب أجوبته فى مضايق الأسئلة، وبدائع تدبيراته فب مصالح الخلق، ومحاسن إشاراته فى تفصيل ظاهر الشرع الذب يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها فى طول أعمارهم، لم يبق له ريب ولاشك فب أن ذلك لم يكن مكتسباً بحيلة تقوم بها القوة البشرية، بل لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوب وقوة إلهية، وأن ذلك كله لايتصور لكذاب ولا مُلَبسْ، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه حتى أن العربى القُح كان يراه فيقول: والله ما هذا وجه كذاب، فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله،

فكيف من شاهد أخلاقه ومارس أحواله في جميع مصادره؟!، فـأَعْظِمْ بغباوة من ينظر في أحواله، ثم في أفعاله، ثم في أخلاقه، ثم في معجزاته، ثم في استمرار شرعه إلى الآن، ثم في انتشاره في أقطار العالم، ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه، ثم يتمارى بعد ذلك فى صدقه).

نعم أنه الصدق وهو ماتنبه له بعقله الأديب البريطانى هـ . جـ . ويلز فيقول: (إن من أرفعِ الأدلةِ على صدق محمدٍ كونَ أهلِه وأقربِ الناسِ إليه يؤمنون به فقد كانوا مطّلعينَ على أسراره، ولو شكّوا في صدقِه لما آمنوا به).

وربما السؤال هنا لماذا حكم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحكم الله عز وجل وأعلن ذلك ولم يضمرها في نفسه ليس عن شجاعة وحسب بل لأنه كرسول من عند الله مكلف بأمانة التبليغ، يوضح ذلك البيهقي : (١٦) **بعد تخريجه لحديث: ''أبي وأباك في النار'' : "وكيف لا يكون أبواه وجدُّه بهذه الصفة في الآخرة، وكانوا يعبدون الوثن حتى ماتوا، ولم يدينوا دين عيسى ابن مريم عليه السلام".**

وكون النصرانية بلغت العرب، فنعم .. ومنهم بعض أهل مكة بالطبع فقد كان فيهم من تنصر كورقة بن نوفل، كما أن المبشرين توغلوا في أماكن نائية من جزيرة العرب، ومنهم من رافقوا الأعراب وعاشوا عيشتهم، حتى عرفوا بـ (أساقفة الخيام) و (أساقفة أهل الوبر)، ومنهم (أساقفة القبائل الشرقية المتحالفة)، و(أساقفة العرب البادية) وقد أفلحوا فى إبعاد كثير من العرب عن الوثنية (١٧)**.**

وربما كان عذر أهل مكة وغيرها من العرب ممن لم يدينوا بالنصرانية أن النصرانية قد عادت وثنية عسرة الفهم، وأوجدت خلطًا عجيبًا بين الله والإنسان، ولم يكن لها في نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثيرًا حقيقيًا؛ لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التي ألفوها، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها(١٨)**، كما شهد علماء النصرانية في عصور متأخرة بذلك فقال الدكتور بارنز: (إن معظم الشعائر الدينية المسيحية قد اقتبست من الوثنية)**(١٩)**،**

وبالتـالي فقد وجد فيهـا العرب مشـابهة لمـا هـم عليـه مـن الشرك، وعبـادة الأصنام فاكتفوا بما عندهم أو ما هم عليه.

كما أننا يجب ألا نبالغ في تصور من تنصروا من العرب فى الجاهلية، وحقًا ذكـر كثيـر مـن شـعرائهم فـي أشـعارهم الكنـائس والبيـع والرهبـان والأسـاقفة، غيـر أنهـم ظلـوا لا يتعمقـون فـى المسـيحية (٢٠) **،بـل كانـت مسـيحيتهم مسـيحية سـطحية** (٢١) **، وفـي شـبه الجزيـرة العربيـة لـم يكـن للمسيحية من أثر يذكر، فقد كان اهتمام بيزنطة بعرب شبه الجزيرة ينحصر فـي كـونهم تجـارًا ونقلـة بضـائع مـن أقاصـي آسـيا وأفريقيـا، وكانـت الـروح التنصيرية في بيزنطة ضعيفة أو معدومـة** (٢٢) **، وهذا مـا يؤكده المستشرق الإيطالي اغناطيوس غويدي حين يقول** (٢٣) **: (أن جمهرة البدو من أعراب شبه الجزيرة لم يتميزوا مطلقًا بفكرة دينية راسخة، فالآلهة والأصنام كانت معروفة وسائدة، ولم يكن للدين لدى البدو حافز من طبيعة عميقة الأصول).**

فكيف لآمنة الزهرة الناشئة في بيت يحفه السؤدد والغنى، يحوطها حنـان أب ينتمـي لقـوم يقومـون بوظـائف دينيـة هامـة وضـخمة لخدمـة الكعبـة وسدانتها أن تفكر في اعتناق دين لا يتحدث عنـه أحد أمامها، وإذا افترضنا أنـه تنـاهى إلـى مسـامعها عنـه شـيء فلا يكـاد عقلهـا يستسيغه خاصـةً وأن المسيحية عنـدما وصلت بـلاد العرب كانـت قد أغرقت نفسـها فـي خلافـات وتعقيدات لاهوتيـة لا يسيغ فهمهـا إلا كبـار المتخصصين فـي علم اللاهوت، الذين وقفوا حياتهم لشرح وتفسير هذه المعميات والطلاسم (٢٤) **، فكيف لهـا حتـى عنـدما كبـرت وصـارت زوجـة وعقلـت الأمـور أكثـر أن تخـالف قومهـا وتعتنـق ديـن حـاول أحـد أتباعـه أن يهـدم الكعبـة التـى لهـا المكانـة العليـا والقداسة العظمى في قلب كل عربي نـاهيك عن كل قرشي وذلك هو أبرهـة الحبشـي حـاكم الـيمن بالنيابـة عن النجاشـي عنـدما وجـه أفيالـه تجـاه الكعبـة ليهدمها وذلك لكي يصرف العرب عنها فيحجون إلـى كنيسته التى بناها فـى صنعاء، ومـا تعرفـه مـن لقائـه بعبد المطلـب والـد زوجهـا، ومـا خلفـه ذلـك الحبشي وجيشه من الخوف والذعر والتوجس الذي فجر فى نفوس المكيين مقتًـا شديدًا علـى هذا الطاغيـة الغـازي ودينـه ممـا لا تستطيع معه آمنـة ولا غيرهـا مجـرد التفكيـر فـي الخـروج علـى مـا يـؤمن بـه قومهـا واعتنـاق ديـن**

الأعداء، خاصة وهى تحيا في كنف وعطف عبد المطلب جد حفيدها المنتظر والقائم بتبعات السقاية والرفادة وسيد قومه.

وإذا كان هذا هو قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أبويه نزولاً على حكم الله بكفرهما لأنهما قد أظلهما دين سماوي لم يتبعاه فعلى غيرهما ممن أظلهم دين الإسلام ولم يدخلوا فيه أن يتقبلوا أيضًا نفس الحكم العادل الذي أنزله الله على أحب الناس إلى قلب رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون مواربة فالله لا يحابي أحدًا، وهو الحكم عليهم بالكفر أيضًا جزاءً وفاقا.

قال صلى الله عليه وسلم :"والذى نفسى بيده، لا يسمع بي أحد من هؤلاء يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بالذى أرسلت به إلا أدخله الله النار".

يقول محمد فتح الله كولن(٢٥): (يبين القرآن الكريم ضلال أبي إبراهيم عليه السلام، وهذا الضلال لم يشكل نقيصةً في حق إبراهيم عليه السلام إذ يمكن القول بوجود أناس لم يصلوا إلى نور التوحيد من بين أجداد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذلك، ولا يدري أحد ماذا كان موقف عبد المطلب أو هاشم أو لُؤَيَ من عقيدة التوحيد، ولكننا نستطيع أن نقول بكل اطمئنان أنهم عاشوا في عهد (الفترة) وأنهم سيعاملون على هذا الأساس، ومع ذلك فإن احتمال وجود أي قصور منهم لا يمكن أن يشكل مانعًا من تكليف رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرسالة الإلهية إلى البشرية).

وقال البيهقي(٢٦) : "وكفرُهم لا يقدح في نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن أنكحة الكفار صحيحة، ألا تراهم يسلمون مع زوجاتهم، فلا يلزمهم تجديد العقد، ولا مفارقتهن؛ إذ كان مثله يجوز في الإسلام".

كما قال ابن كثير في (سيرة الرسول وذكر أيامه) : "وإخباره صلى الله عليه وسلم عن أبويه وجده عبد المطلب بأنهم من أهل النار لا ينافي الحديث الوارد من طرق متعددة أن أهل الفترة والأطفال والمجانين والصم يمتحنون في العرصات يوم القيامة. لأنه سيكون منهم من يجيب، ومنهم من لا يجيب، فيكون هؤلاء - أي الذين أخبر عنهم النبي - من جملة من لا يجيب، فلا منافاة".

أما الإمام النووي فقال في شرحه لصحيح مسلم عند حديث: "أبي وأباك في النار" : "وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو في النار، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة؛ فإن الدعوة كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم".

وكما أصطفى الله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرسالته اختار له أصحابه وأزواجه رضوان الله عليهم أجمعين، وبالأحرى اختار له والديه ولو شاء الله اختيارهم مؤمنين لكان، ولوكان كفرهما قادحًا في اختيار الرسول لما أختارهما أو رضيهما لرسوله. قال صلى الله عليه وآله وسلم: "لَم أزَل أُنقلُ مِن أصلابِ الطَاهِرِينَ إلى أرحامِ الطّاهِراتِ".

وقد رفضت دار الإفتاء المصرية الفتاوى التى خرجت بأن والدي الرسول صلى الله عليه وسلم من المشركين وأنهما فى النار، حيث قالت الدار في بحث لأمانة الفتوى برقم (٢٦٢٣) أن الحكم في أبوَي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهما ناجيان وليسا من أهل النار، وقد صرح بذلك جمع من العلماء، وصنف العلماء المصنفات فى بيان ذلك، منها: رسالتا الإمام السيوطي "مسالك الحنفا في نجاة والدَى المصطفى" و"التعظيم والمِنّة بأنَّ والدَي المصطفى في الجنة".

وقالت الدار: (إن العلماء استدلوا على ذلك بأنهما مِن أهل "الفترة"، لأنهما ماتا قبل البعثة ولا تعذيب قبلها، لأن مَن مات ولم تبلغه الدعوة يموت ناجيًا، لتأخر زمانهما وبُعدِه عن زمان آخر الأنبياء، وهوسيدنا عيسى عليه السلام، ولإطباق الجهل في عصرهما، فلم يبلغ أحدًا دعوةُ نبي من أنبياء الله إلا النفر اليسير من أحبار أهل الكتاب فى أقطار الأرض كالشام وغيرها، ولم يعهد لهما التقلب في الأسفار ولا عمَّرا عمرًا يمكن معه البحث عن أخبار الأنبياء، وهما ليسا من ذرية عيسى عليه السلام ولا من قومه، فبان أنهما مِن أهل الفترة بلا شك. ومَن قال: إن أهل الفترة يُمتَحَنُون على الصراط فإن أطاعوا دخلوا الجنة وإلا كانت الأخرى، فإن العلماء نصُّوا على أن الوالدين الشريفين لو قيل بامتحانهما فإنهما من أهل الطاعة، قال الحافظ ابن حجر:

"إن الظن بهما أن يطيعا عند الامتحان".

وأضافت أمانة الفتوى: (أن الطبري أورد في تفسيره عن ابن عباس – رضى الله عنهما - أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٢٧)، قال: "مِن رِضا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يَدخُل أحدٌ مِن أهل بيته النار".

وقالت الفتوى الطريق الثاني الذي سلكه القائلون بنجاة أبوَي النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنهما ناجيان؛ لأنهما لم يثبت عنهما شرك، بل كانا على الحنيفية دِين جدهما إبراهيم عليه السلام، ولقد ذهب إلى هذا القول جمعٌ من العلماء منهم الفخر الرازى في كتابه: "أسرار التنزيل".

واستدل أهل هذا الطريق بقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (٢٨)، أى أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يتقلب في أصلاب الساجدين المؤمنين مما يدل على أن آباءه لم يكونوا مشركين، قال الرازى: قال صلى الله عليه وآله وسلم: "لَم أزَل أنقلُ مِن أصلابِ الطّاهِرينَ إلى أرحامِ الطّاهِراتِ"، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ (٢٩)، فوجب ألا يكون أحدٌ مِن أجداده صلى الله عليه وآله وسلم مشركًا.

كما رفضت أمانة الفتوى قول من قال إنهما خير من المؤمنين مع كفرهما، لأن هذا يعني القول بتفضيل الكافرين على المؤمنين؛ وأضافت: ولكى نخرج من هذا المحظور وجب أن نقول بأنهما مؤمنان.

أما الرواية الثالثة التى استندت إليها أمانة الفتوى في قولها بنجاة والدي الرسول، بأن الله تعالى أحياهما له ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حتى آمَنا به، وأضافت أن هذا المسلك مال إليه طائفة كثيرة مِن حفاظ المحدِّثين وغيرهم، منهم: الخطيب البغدادي وابن شاهين وابن المُنَيِّر

والمحب الطبري والقرطبى، واحتجوا لمسلكهم بأحاديث ضعيفة، ولكنها ترقى إلى الحسن بمجموع طرقها.

وينحو منحى دار الإفتاء رئيس الجمعية الشرعية بمصر الدكتور محمد المختار المهدي(٣٠) في تبرئة وتنزيه أبوي الرسول الكريمين من الكفر حيث يقول: (لم يمنع النبي من الاستغفار لأُمِّه لأنّها مشركة، بل لأنها من أهل الفترة الذين لم تبلغهم الدعوة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(الإسراء:١٥)، وقد صرح القرآن أكثر من مرة أن قوم النبي لم يرسل إليهم قبله رسول ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾(السجدة:٣)، فأيُّ ذنبٍ ارتكبته أمه حتى يسغفر لها، وقد توفيت وهو ابن ست سنين؟!.. أما بكاؤه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند قبرها فلتذكره إياها وحزنه على فراقها، وما قيل هنا في أمه ـ رضيّ الله عنها ـ يقال في أبيه في حديث أنس أن رجلاً قال : يارسول الله، أين أبي؟، قال : ''في النار''، قال: فلما قفّى دعاهُ، فقال: ''أبي وأباك في النار'' (أخرجه مسلم)، ومع أن هذا الحديث قد تُكُلِّمَ فيه!!.. ولو صحْ!!..كان المقصود بأبيه في الحديث هو عمه أبو طالب، لأنه هو الذي بلغته الدعوة، والعرب تطلق على العم لفظ الأب كما ورد في القرآن الكريم عن قول يعقوب لبنيه حين حضره الموت ورد أبنائه عليه بقولهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(البقرة:١٣٣).

وأعجب من قول الدكتور المهدي أن الحديث تكلم فيه أو لقوله ولو صح، مع كون هذا الحديث لم ينفرد به الإمام مسلم وحده، بل هو عند عدد كبير من أهل الحديث كأبي داود، وأحمد وابن حبان والبيهقي وأبي يعلى والبزار وغيرهم... وهو حديث صحيح.. كما أقر ذلك أهل العلم بالحديث فقد صححه كل من مسلم وابن حبان والجوزجاني والبيهقي وابن كثير والألباني والحويني.. كما يزداد عجبي من صحفي مختص بالشئون الدينية في صحيفة قاهرية يفتي بلعن من قال بأن أبوي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في النار!!.. فما هكذا يدور الخلاف كما تعلمناه من سادتنا العلماء.

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن(٣١): **(ولم يُقدر أحدٌ مما شهدوا رقدتها في مضجعها الأخير بالأبواء، أن سوف يأتى حينٌ من الدهر تُبعث فيه الراقدة، ثم لا يموت لها ذكرٌ من بعد ذلك أبدًا، بل نظل صورتها تنتقل عبر الأجيال باهرة السنا والبهاء، ويظل اسمها خالدًا على مر العصور والأدهار ، يحف بها جلال أمومتها العظمى التي لبثت ـ وسوف تلبث دائمًا ـ تستثير أنبل ما في وجدان المؤمنين من انفعال، وتُلهم شعراءهم روائع القصيد، وهذه الدنيا تصغي فى الليلة المباركة من ربيع كل عام هجري، إلى هتاف المحتفلين بذكرى الساعة الغراء التي قامت فيها ''آمنة'' عن ولدها سيد البشر، سلامٌ على ''آمنة'' سيدة الأمهات''، ووالدة النبي المبعوث بآخر رسالات السماء).**

وبعد أن أنهى الدكتور محمد أبو زهرة تصفح تاريخ السيدة آمنة بنت وهب قال: (لننظر إلى تلك المجاهدة الصبور، فإذا قلنا أنها عاشت كالعذراء إذ لم يكن إلا أنها حملت سر هذا الوجود، وكأنها أودعت أمانة النبوة لتحتفظ بها، وكأنها كالبتول العذراء، بيد أن هذه لم تصطفها الملائكة، عزاء من رب العالمين إذ اختارها وتعهدها نبي وأقامها في المحراب وكانت في رعاية ظاهرة، وأما آمنة بنت وهب فقد خوطبت بلسان الفطرة المستقيمة، وعلمت بحكم الباعث في نفس طاهرة أنها حملت أمانة، واستمرت الأمانة معها في رعاية الله تعالى وهى حملت ما حملت غير وانية ولا مقصرة، ولا هادي يهديها إلا ما انبعث في نفسها من نور الفطرة، والاحساس بعبء الأمانة) (٣٢).

وسواء اختلف من اختلف مع فتوى الديار المصرية أو اتفق معها، وسواء اختلف أو اتفق من رأى فى السيدة آمنة بنت وهب الإيمان أو خلافه، لكننا لا نملك إلا أن نحترم ونُجل هذا العبء الذي تحملته وأعانها الله عليه، فقد تحملت الأمانة في سن صغيرة وهى الحسيبة النسيبة، السيدة المخدومة، بنت السادات وأكابر قومها، ومع هذا فلم تلن لها قناة، ولم تفر من قدرها، أو ألقت رضيعها إلى أهله وفرت إلى أهلها تبحث لها عن زوجٍ آخر وحياة جديدة، بل قامت برسالتها بكل أمانة وتحملت فى سبيلها ما تحملت، ثم ماتت وهي في سفرها وغربتها من أجل أن تصل ابنها برحمه، ويقف على قبر والده، فكانت

بحق مثال يُحكىَ في القيام بأداء الأمانة، فرضع منها وليدها الأمانة حتى سُمّيّ قبل مبعثه "الأمين"، فكان أهلاً عندما اصطفاه الله أن يقوم بأمانة الرسالة والتبليغ بل يتحمل المشاق في سبيل اعلاء دين الله، وكأنها بحياتها ومماتها رسمت لابنها طريق الهجرة، لتبقى هي على طريق حله وترحاله ملاك حارس يرعى خطواته، وماتت وقد كانت آخر نظراتها تحتضن وجهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبللة بدموع الفراق والخوف عليه.

(١) أحمد بن علي القلقشندي : نهاية الأرب بمعرفة أنساب العرب (٢ـ١٩).

(٢) (طبقات ابن سعد ٣/ ٢٩٥ ، الطبري: تاريخ ٢٢/٥) .
(٣) (صحيح ابن حبان:ج١١/ص٢١٤ ح٤٨٧٠).
(٤) ابن كثير: سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من البداية والنهاية باب : ذكر نَسَبِه الشريف وطِيبِ أصلِه المُنِيف .
(٥)(انفرد بإخراجه مسلم من حديث الأوزاعي وهو عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام به نحوه).
(٦) (رواه الحاكم والبيهقي).

(٧) عبد الأحد داود ، محمد في الكتاب المقدس، ص ١٦٣.

(٨) محمد شيخاني (دكتور) ، محمد عبقريُ مصلح أم نبي مرسل ص ٣٩ .

(٩) سورة مريم : ٧ .

(١٠) الصحيحة٣٩٣٩ [(في مسند أحمد بن حنبل - (ج ١ / ص ٩٨ ترقيم الشاملة تعليق شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن)] .

(١١) ر.ف.بودلى ، حياة محمد ص ٤٠ .

(١٢) دكتور حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ص ١٠١.

(١٣) [صحيح مسلم ، كتاب الجنائز، باب استئذان النبيّ صلى الله عليه وسلم ربه في زيارة قبر أمه (٢/ ٦٧١) رقم (٩٧٦). نقلاً من حاشية السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة (٢٠٥/١-٢٠٦) دار القلم - الطبعة الأولى].

(١٤) الدكتور محمد أحمد المسير ، النبوة المحمدية ص٢٣

(١٥) أبو حامد الغزالي ، أحياء علوم الدين جـ ٣ صـ ٤٧٩ ، ٤٨٤

(١٦) البيهقي : دلائل النبوة (١٩٢/١، ١٩٣)

(١٧) لويس شيخو: النصرانية وآدابها ج١ص ٣٧ .

(١٨) صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم ص ٥٤ .

(١٩) خواجة أفندي كمال الدين : ينابيع المسيحية ص ٨٥ .

(٢٠) شوقي ضيف (دكتور) : محمد خاتم المرسلين ص ٤٥ .

(٢١) حسين مؤنس (دكتور) : أطلس تاريخ الإسلام ص ١٠٠ .

(٢٢) دكتورإسماعيل راجي الفاروقي والدكتورة لوس لمياء الفاروقي : أطلس الحضارة الإسلامية ، ص ١١٢.

(٢٣) أغناطيوس غويدي : محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام ص ٦٠.

(٢٤) عبد الشافي محمد عبد اللطيف (دكتور) : تاريخ الإسلام في عصر النبوة ص ٦٢ .

(٢٥) فتح الله كولن : محمد مفخرة الإنسانية ص ١٩٤.

(٢٦)الدلائل (١٩٢/١، ١٩٣) .

(٢٧) سورة الضحى : ٥ .

(٢٨) سورة الشعراء : ٢١٨، ٢١٩ .

(٢٩) سورة التوبة : ٢٨ .

(٣٠) محمد المختار محمد المهدي (دكتور) (من فقه الدين الخالص .. محظورات القبر) مجلة التبيان عدد (٩٠) محرم ١٤٣٣ هـ/ديسمبر ٢٠١١ ،ص٤٣-٤٤.

(٣١) عائشة عبد الرحمن (دكتورة)أم النبي ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣٢) محمد أبو زهرة (دكتور) :خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ص١٢٧ .

الفصل الثاني

ثويبة الأسلمية:

أم الرسول بالرضاع

في دنيا البشر كثيرًا ما نسمع أن هناك من اختاره الله عز وجل ليسعده؛ فيسوقه حيث نعمة تصيبه، أو يسوقها إليه، أو يقصيه عن شر لو أصابه لتبدلت حياته تمامًا، ومن أولئك السعيدات: "ثويبة" مولاة أبى لهب عم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى لم تحدث نفسها يومًا بالعتق يومًا، وربما حدثت نفسها أو حادثت غيرها عن هذا الحلم والأمل المشروع، ولكنها كانت تراه مستحيلاً فعليها أن تعيش جارية عند سيدها وتموت كذلك، كما أن عليها أن ترضى وتقنع بهذا، فهذا هو المعهود والمألوف.

غيم الحزن الكثيف فوق ديار بني هاشم؛ فزهرة شباب قومه بل مكة بأسرها ومطمح فتياتها، مات شابًا في مقتبل حياته الجديدة، غريبًا، بعيدًا عن الديار، وترك خلفه زوجة أسيفةً عليه، تهدمت أحلامها الوليدة في دنياها الجديدة، وفي أحشائها يتحرك جنينها هو كل مايربطها بزوجها الراحل.

تعلقت أنظار بنى هاشم وآمالهم بالبقية الباقية من عبدالله الذبيح الثاني وأحب أولاد عبد المطلب إلى قلبه، فظلوا يترقبون مولد ذلك الجنين بالشوق الممزوج بالصب، والأمل المشوب بالخوف والحذر من تصاريف القدر، ليزيح بنور قدومه تلك الغيمة الرابضة فوق قلوبهم،وليبدد في جنبات مكة ذلك الحزن الجاثم فى نفوس القوم وأسمارهم.

لم تكد تمر خمسون يومًا بعد محاولة أبرهة الأشرم بأفياله على الكعبة المشرفة، والتي كان مصيرها الخسران المبين، وحديث مكة لم ينقطع عن سرد بطولة شيخ مكة وسيدها عبد المطلب ووقوفه أمام الطاغية المعتدي ذلك الحبشى أبرهة، وكانت تلك الفرحة الوحيدة التي أظلت الجميع وتوارى فيها على استحياء قصة وفاة عبدالله الحزينة، بل ربما نسوا معها ولو قليلاً ذلك الجنين الذى يواصل نموه حتى طرق أبواب الشهر السابع أو ربما تجاوزه، لكن آمنة ما كان لها أن تنسى وهى تحس بأن بشائر قدومه لدنياها تتوالى بل اقترب زمن تحققها، حتى جاء إلى الوجود ابن عبدالله وهيّ الفرحة الأكبر التى انتظر الجميع حدوثها.

سرى الخبر فى مكة سريعًا وكيف لا ينتشر وعبد المطلب فور ارسال آمنة إليه من يخبره بالحدث السعيد أتى إليها مهرولاً فرحًا فحمل حفيده بين ذراعيه ومضى يطوف به الكعبة ثم عاد لينحر الذبائح، ويطعم أهل الحرم.

كما طارت ثويبة الأسلمية كالشعاع إلى سيدها أبي لهب عم الوليد الهاشمي تبشره بقدوم ابن أخيه إلى الدنيا فطار الرجل فرحًا هو الأخر ولم يدر ما يفعل مع ثويبة مكافأةً لها على بشارتها الطيبة غير أن يكافئها بعتقها لتصبح حرة، فكان هذا الوليد خيرًاعليها فتملّك حبه قلبها.

انقطع اللبن في صدر آمنة ربما لشعورها بالحزن والقلق وعدم الارتياح النفسي كما توصف هذه الحال المراجع الطبية في عصرنا الراهن، فكان من حظ ثويبة أن تتولى إرضاع وليد الخير حيث أرضعت قبله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابنها مسروح وعم الرسول حمزة بن عبد المطلب.

والواقع يقول أنه ببشارة ثويبة لأبي لهب وعتقه إياها جلبت الخير لنفسها كما جلبت الخير لسيدها أيضًا؛ فقد قيل أن العباس بن عبد المطلب رأى أخاه أبا لهب بعد موته بعام في النوم فقال له: "ما حالك ؟ فقال: في النار، إلا أن العذاب يخفّف عني كل أسبوع يومًا واحدًا وأمص من بين إصبعيَّ هاتين ماء ـ وأشار برأس إصبعه ـ وان ذلك اليوم هو يوم إعتاقي ثويبة عندما بشّرتني بولادة النبي عليه الصلاة والسلام".

أخبرنا محمد بن عمر عن معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير أن ثويبة كان أبو لهب أعتقها فأرضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما مات أبو لهب رآه بعض أهله في النوم بشر حيبة، فقال: ماذا لقيت قال أبو لهب: لم نذق بعدكم رخاء غير أني سُقيت في هذه بعتاقي ثويبة وأشار إلى النقيرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع".

لم تكن ثويبة تحلم بأكثر من العتق، ولم يدر بخلدها أنها برضعاتها التي استمرت لأيام، ستجعل اسمها باقيًا يتردد في مجالس أهل العلم لمئات السنين وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فيختلفون في عتقها أكان في

حال بشارتها، أم بعد هجرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة، وهل ببشارتها وبعتقها بحديث مرسل، خفف الله العذاب عن أبي لهب، والحديث المرسل لا تثبث به عبادة أو عقيدة، بالإضافة لكونه أتى من رؤيا منام والشرع لا يثبت بالمنامات،وأن الكافر لايثبت له العمل الصالح إذا مات على كفره (١)،غير أن كل هذا لا يغنيها في شيء أكثر من فرحتها بفوزها باقتران اسمها باسم نبي الله عند ذكر أيامه الأولى على الأرض.

ماتت آمنة بعد هذا بعامين ثم تولى كفالة الطفل جده ولما مات أوصى بكفالته لابنه أبي طالب وكبر في بيته، ثم تزوج من السيدة خديجة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ، وفي كل هذه المراحل الحياتية كان الرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلها وهو بمكة وكانت خديجة تكرمها حتى بعد مبعثه بمكة نبيًا، فلما هاجر ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة كان يبعث إليها بصلة وكسوة حتى جاءه خبرها أنها قد توفيت سنة سبع من الهجرة بعد فتح خيبر، فقال : ''ما فعل ابنها مسروح؟''، فقيل : مات قبلها ولم يبق من قرابتها أحد(٢).

سأل عنها ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووصلها سواء بمكة أو بالمدينة وهو بعيدٌ عنها، وسواء كان قبل مبعثه أم بعده، كما سأل عمن خلفها من قومها ليصلهم. هكذا خلقه الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيًا أشد ما يكون الوفاء مع كل من تعهده أو اتصل به سواء أكان عربيًا أم غير عربي، مؤمنًا أم كافرًا، رجلاً كان أم امرأة، حرًا كان أم عبدًا، وكلما توغلنا فى سيرته من الآن فصاعدًا ستتصاعد معنى قيمة وشيمة الوفاء في خلقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسجاياه مهما كلفه الأمر من عنت أو بذل وجهد، ورحم الله أول مرضعة له غير أمه ثويبة الأسلمية فكانت أول أم له بالرضاع، أصابها منه الخير وليدًا ورجلاً ونبيًا.

(١) أنظر:الحـافظ ابـن عبـد البـر فـي كتـاب الاسـتيعاب (١/١٢)، ابـن سـعد فـي الطبقـات (١٠٨/١٠٩،١)، ابن الجوزي فيكتاب الوفا بأخبار المصطفى(١٧٨/١٧٩،١).

(٢)طبقات ابن سعد (١/١٠٨)، وتاريخ الإسلام للذهبي.

الفصل الثالث

بركة بنت ثعلب

البقيـــــةً من آل النبي

بمجرد نطق اسمها (بركة) حتى تحس في نفسك ومن حولك بالبركة تعم المكان والزمان، وكيف لا وقد صاحبت من كان بركةً على أهله ومن حوله والناس أجمعين؛ فقد صاحبت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل مولده وحتى بعد أن وُلِد إلى أن توفاه الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، شاركته أفراحه وأحزانه، غدواته وروحاته، وحتى غزواته كانت معه وحوله، أحبته بالقول، وأحبته بالفعل فصدقت في الاثنين.

إنها بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن بن مالك بن سلمة بن عمر ابن النعمان الحبشية جارية عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي مات بالمدينة وولده جنينًا لم يمر عليه فى أحشاء أمه سوى شهرين، فآلت ميراثًا إلى ابنه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

صاحبت بركة آمنة أم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرحتها بزواجها من ذبيح مكة ابن عبد المطلب، كما صاحبتها قلقها على غيابه وترقب عودته، حتى فاجأهم الحزن الثقيل بنبأ وفاته غريبًا بعيدًا بيثرب التي تبعد عنهم فوق الخمسمائة من الكيلو مترات، وكذلك صاحبتها رحلتها الأخيرة من مكة إلى المدينة بعد أن بلغ الطفل أعوامه الستة وأدرك أن له والدًا توفى يافعًا لم يره، وكانت بحق رحلة آمنة الأخيرة في الحياة لتبدأ بعدها رحلتها الأولى إلى الآخرة، وذلك بعد عودتهم من المدينة في منطقة الأبْوَاء بين مكة والمدينة.

بدأت من الأبْوَاء رحلة بركة مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاحتضنته بعد أن روعه فقد أمه الشابة التى ذبلت وراحت نضارتها سراعًا أمامه حتى طواها الثرى، ليمضي بعدها ميممًا وجهه ووجهته حيث مكة وقد خلت حياته من أهم رفيقين لكل إنسان، وكان من لطف الله به أن هيأ له رفيقاً في هذه اللحظة معينًا وواسيًا وحاضنًا، فبددت عنه الجزع والوحشة والحزن وهى مشاعر قاتلة للرجل الشديد الناضج من الرجال، فما بالنا بطفل لم يبرأ بعد من ألم ولوعة وقوفه بقبر أبيه، وفقده إلى الأبد، وربما في

أعماقه شكر القدر أن ترك له أمّاً ثم إذا به يفاجيء برحيلها على بعد كيلوات من قبر أبيه، فأى دور وجهد صعب وأى مهمة تلك التى قامت بها بركة لتهوّنَ على طفل هذا حاله المسافة الطويلة الباقية حتى يبلغا مشارف مكة.

احتضن الطفل اليتيم جده عبد المطلب الذي رق له وقدمه على أولاده ليهوّنَ عليه آلام فقد أبويه، ولم يكن من فى الدار غرباء عليه فهالةُ زوج جده بنت عم أمه الراحلة، وأعمامه حمزة والعباس، وكانت هالة تحوطه بالكثير من الرعاية سواء كان ذلك بدافع منها أمْ بتوصيةٍ من عبد المطلب ذاته، الذي كان رغم هيبته ووقاره لا يجلس على فراشه أحد من أبنائه مهابةً له وتوقيرًا إلا حفيده محمد، فقد كان يجلسه على فراشه حبًا فيه، وحدبًا عليه، ولطالما حاول أعمامه أن يؤخروه عن الفراش، فينهاهم عبد المطلب قائلاً: "دعوا ابني هذا، فوالله إن له لشأنًا" . ولم تكن بركة غائبة عن المشهد فقد كانت بجواره دائمًا تخدمه وتواسيه، وكان جده دائمًا ما يوصيها به عندما يغيب عنهم في أعماله ويشدِّدُ عليها فى الاعتناء به وحسن رعايته، والحق أن بركة لم تكن في حاجة لمن يوصيها به فهو ابنها التى لم تلده ولما لا فقد كان يناديها بكل حب الابن: ''يا أمّه''، وكانت تجيبه وتهرع إليه بكل حنان واشفاق الأم.

ظن الحفيد محمدًا أن شبح الموت بعيدًا عن دار جده وكانت بركة وأعمامه دائمًا ما يسرقونه من أحزانه وذكريات يثرب الأليمة ورحلة العودة المريرة منها غير أنه لثماني سنوات وشهرين من عمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ داهم الموت جده عبد المطلب بمكة، ورأي قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب دون غيره من الأعمام مع كونهم أيسر منه حالاً وذلك لأنه كان شقيقًا لعبدالله والد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ إذ أمهما فاطمة بنت عمر بن عائذ، إلى كونه القائم مقام المطلب في قريش.

مضت الأيام في بيت العم والطفل صار صبيًا يرعى الغنم، ثم عرف التجارة وأجادها، وها نحن معه فى بيته مع السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ التى أصبحت زوجًا له، ولم يرض أن تظل بركة جاريةً له وكيف وهو الذى يقول عنها : ''إنها أمي من بعد أمي'' فأعتقها في يوم زواجه لتحس معه بالفرحة وتكون حاضرةً بوصفها أمُه بحق وهي حرة مختارة، ورأت خديجة حب زوجها لبركة فأكرمتها بل تكفلت بتجهيزها عندما تقدم إليها عبيد بن

زيد من بني الحارث بن الخزرج الذي قدم مكة وأقام بها، فولدت له أيمن، ثم مات عنها، فرجعت إلى مكة.

دخل الإسلام دار خديجة فأسلمت وأسلمت معها أم أيمن ـ رضي الله عنها ـ في أول العهد بالإسلام مع من أسلم من بيت النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ فكانت من السابقين الأولين وقد كانت ـ رضي الله عنها ـ من الذين هاجروا الهجرتين إلى الحبشة و إلى المدينة بعد ذلك.

ومن المؤكد أنها هاجرت إلى المدينة غير أن الحافظ قال: "إنّها لم تهاجر إلى الحبشة، ماتت في أول خلافة عثمان وهي غير بركة أم أيمن الحبشية، التي كانت مع أم حبيبة بالحبشة".

فبركة الحبشية التى كانت مع السيدة أم حبيبة كانت تكنى أم يوسف، وفي كون أم أيمن هاجرت إلى أرض الحبشة قول فيه نظر فإنها كانت تخدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزوجها مولاه زيد بن حارثة والثابت أن زيدًا لم يهاجر إلى الحبشة ولا أحد ممن كان يخدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ ذاك فظهر أن هذه الحبشية غير أم أيمن وإن وافقتها في الاسم، قال الأبي فى السيرة الحلبية: "والمعروف أن الحبشية إنما هي بركة أخرى جارية أم حبيبة، قدمت معها من الحبشة، وكانت تكنى أم يوسف، كانت تخدم النبي أي وهي التي شربت بوله"(١).

ولم يذكر أحد من العلماء أن بركة أم أيمن خادمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هاجرت إلى الحبشة سوى ابن عبد البر وتبعه فى ذلك ابن الأثير، والقول في ذلك مع ابن حجر(٢).

وهذا ما يؤكده عبد الرحمن كيلاني (٣) : في رده على الكاتب الإسرائيلي أرليتش هاغاي الذي تناول حدث هجرة المسلمين إلى الحبشة في كتابه : "أثيوبيا والشرق الأوسط"، فقال كيلاني : (لقد احتوى الفصل الأول من كتاب إرليتش عدة أخطاء دينية وتاريخية ـ ولا عجب!! فعلى سبيل المثال يدعى المؤلف أن أم أيمن ـ رضى الله عنها ـ وقد كانت أمة حبشية أعتقها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ، كانت من ضمن الذين هاجروا إلى الحبشة

في الدفعة الأولى، ولم يأت المؤلف بدليل على زعمه هذا. ومحمد بن إسحاق وغيره لم يدرجوها بين أسماء الذين هاجروا إلى الحبشة).

والمعلوم أن الذين هاجروا إلى الحبشة كانوا من القرشيين، ولن يجد من أراد أن يستقصي أسماء من هاجروا من الصحابة اسم أحد من الموالي مع أنهم كانوا أصحاب الحظ الأوفر من التنكيل والتعذيب أكثر مما نال غيرهم ممن هم من أصحاب المنعة والنسب والمكانة في قريش.

نخلص مما تقدم أن أم أيمن لازمت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ طيلة حياته، ولم تفارقه إلا حين سبق ـ صلى الله عليه وسلم ـ بناته وزوجه سودة بنت زمعة إلى المدينة مهاجرًا، وأما فراقها له بعد زواجها فما كان ليدعها تنتقل إلى بيت الزوجية دون زيارتها، يدل على هذا ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول : ذهبت مع النبي صلى الله عليه و سلم الى أم أيمن نزورها فقربت له طعامًا أو شرابًا فإما كان صائمًا و إما لم يرده فجعلت تخاصمه أي كُلْ".

و في غير رواية مسلم: فأقبلت تضاحكه و كان الرسول ـ صلى الله عليه و سلم ـ يبتسم لتصرفاتها ويهشُ لها.

حتى بعد زواجه من السيدة عائشة لم ينقطع عنها ولم تنقطع عنه ـ صلى الله عليه و سلم ـ وذلك فيما روته السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : شرب رسول الله صلى الله عليه و سلم يومًا و أم أيمن عنده فقالت : يا رسول الله اسقني، فقلت لها : ألرسول الله صلى الله عليه و سلم تقولين هذا؟، قالت: ما خدمته أكثر، فقال النبي صلى الله عليه و سلم : "صدقت" فسقاها.

وهذا ولا شك ينبئنا عن مدى تلك الحميمية بين الرسول ـ صلى الله عليه و سلم ـ وبين حاضنته وأمه فيما كان يحب أن يناديها، وكانت تعلم هى مالها من مكانة في قلب رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ تسمح لها بأن تضاحكه وتمازحه، وتعلم بأنه لن يردها أو يعبس في وجهها، حتى أنها جاءت يومًا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ و قالت له : يا رسول

الله احملني، فقال صلى الله عليه و سلم : ''**أحملك على ولد الناقة**''، قالت : إنــه لا يطيقنــي ولا أريـده، فقـال صـلى الله عليــه و سـلم : ''**لا أحملـك إلا عليه**'' . وقد كان الرسول ـ صلى الله عليه و سلم ـ يمازحها صادقا حيث أن كل الإبل صغيرها وكبيرها ولد النوق.

وما يدل على أنـه ـ صلى الله عليـه و سلم ـ ما كان يغضبها أبدًا مارويّ عن أنس رضي الله عنه قال : كان الرجل يجعل للنبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ النخلات، حتى افتتح قريظة والنضير، وإن أهلي أمروني أن آتي النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ فأسأله الذي كانوا أعطوه أو بعضه، وكان النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ قد أعطاه أم أيمن، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي كذا، وتقول : كلا والله، حتى أعطاها عشرة أمثاله(٤).

ومما يستدل به من شرح النووي أن أم أيمن فهمت أن هبة رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ لها مؤبدة فتملك بها أصل الرقبة أي النخلات. فما كان من النبى ـ صلى الله عليه و سلم ـ إلا أن استطاب قلبها فى استرداد ذلك فما زال يزيدها في العوض حتى رضيت، وكل هذا تبرع منه ـ صلى الله عليه و سلم ـ، وإكرام لها لما لها من حق الحضانة والتربية(٥)، وفرط جود النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ، وكثرة حلمه وبره، ومنـزلة أم أيمن عند النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ كما قال الحافظ ابن حجر(٦).

لم يثق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأحد قدر وثوقه في أمانة أم أيمن على الودائع التى استودعها عنده بعض أهل مكة، فقام بإعطاء الودائع لها، وأمر عليًا أن يرد هذه الودائع إلى أهلها(٧)، وذلك قبيل خروجه إلى المدينة مهاجرًا. فلما وصل الرسول ـ صلى الله عليه و سلم ـ وصاحبه إلى المدينة في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة، أقام بقباء أربعة أيام، وأسس فيها مسجدًا، ثم توجه إلى المدينة، وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بمن معه في المسجد الذي في بطن الوادي، ثم نزل ـ صلى الله عليه وسلم ـ في دار أبي أيوب الأنصاري، حتى تم الانتهاء من بناء المسجد وغرف زوجاته.

روى هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: لما هاجر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خلّفنا وخلف بناته، فلما استقرَّ بعث زيد بن حارثة، وبعث معه أبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم يشتريان بها ما يحتاجان إليه من الظّهر، وبعث أبو بكر معهما عَبْد الله بن أرَيقط ببعيرين أو ثلاثة، وكتب إلى ابنه عَبْد الله بن أبي بكر أن يحمل أمي أم رومان وأنا وأختي أسْمَاء، فخرجوا مصطحبين، وكان طلحة يريد الهجرة فسار معهم، وخرج زيد وأبو رافع بفاطِمَة وأم كُلْثُوم وسودة بِنْت زمعة، زوج النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأم أيمن، فقدمنا المدينة و النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يبني مسجده وأبياتاً حول المسجد، فأنزل فيها أهله (٨).

وأخرج الطبراني من وجه آخر عن عائشة قالت : "لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر خلفنا بمكة فلما استقر بالمدينة بعث زيد بن حارثة وأبا رافع، وبعث أبو بكر عبد الله بن أريقط وكتب إلى عبد الله بن أبي بكر أن يحمل معه أم رومان وأم أبي بكر وأنا وأختي أسماء، فخرج بنا وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة، وأخذ زيد امرأته أم أيمن وولديها أيمن وأسامة، واصطحبنا، حتى قدمنا المدينة فنزلت في عيال أبى بكر، ونزل آل النبي صلى الله عليه وسلم: عنده، وهو يومئذ يبني المسجد وبيوته، فأدخل سودة بنت زمعة أحد تلك البيوت، وكان يكون عندها، فقال له أبو بكر :ما يمنعك أن تبنى بأهلك؟ فبني بي " الحديث (٩).

وفي الحديثين المتقدمين ذكرت السيدة عائشة من هاجر معها أو من هاجرت معهن وفيمن هاجر معها أم أيمن فى الحديث الأول وفى الحديث الثانى فصلت فألحقت بأم أيمن ولديها أيمن وأسامة، وغنيٌ عن الذكر أن زيد بن حارثة زوج أم أيمن مرسل بتكليف من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بإحضار أهل بيته .. فهل يعقل أن يخالف زيدًا التكليف النبوي؟! وهل سيتخلى عن مروءته ويترك أم ابنه لتهاجر وحدها؟! وما هى الضرورة؟ .. بل المذكور فى الحديثين أن المهاجرات الطاهرات - رضوان الله عليهن - بدأن الرحلة معاً وأنهينها معًا، أما ما ورد فى حديث جرير بن حازم : حدثنا عثمان بن القاسم، قال : "لما هاجرت أم أيمن أمست بالمنصرف دون الروحاء ، فعطشت وليس معها ماء وهي صائمة، وجهدت، فدلي عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض، فشربت، وكانت تقول: ما أصابني بعد ذلك عطش، ولقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر فما عطشتُ(١٠)، فيوؤل أن أم أيمن - ربما - ضلت الطريق عن الركب حال التوقف، ثم عادت وانضمت إليهم ثانيةً، وذلك لأنها لم تصل المدينة وحدها.

والروحاء - المشار إليها فى حديث عثمان - بينها وبين المدينة مرحلتان، وفي صحيح مسلم: بينهما ستة وثلاثون ميلاً، أى ما يعادل السبعين كيلو متر(١١)، وهذا ما ينفي خروجها وحدها من مكة.

وإذا احتج أحدٌ بأن أم أيمن لم تكن وحدها التي هاجرت من مكة إلى المدينة وحدها فقد صنع نفس الصنيع كلاً من أم سلمة وأم كلثوم بنت عقبة، قلنا أن لكلٍ من الصحابيتين الجليلتين ضرورة مُلحة في الخروج وهيّ منتفية عند أم أيمن، فأم سلمة سبقها زوجها بالهجرة واحتبسها قومها وابنها عنه فأرادت اللحاق به، وأم كلثوم عزمت على الفرار بدينها خوفًا من الفتنة على دينها، وقومها أهلُ شركٍ عتيد، ثم أن كلاً منهما لم تهاجرا وحدهما، فالأولى لقيت بالتنعيم عثمان بن طلحة أخا بني عبد الدار فأخذ بخطام البعير، حتى أوصلها إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء وفيها زوجها، والثانية

من نفس المكان (التنعيم) التقاها رجلٌ من خُزاعة فاطمأننتُ إليه لدخول (خزاعة) في عهد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وعَقده، فأوصلها للمدينة

والملاحظ أن كل من الرجلين كانا على خلقٍ قويم التزما بآداب الصحبة والنخوة والمروءة العربية رغم كفر عثمان وإيمان الخزاعي، ولم تمش كلاً من المرأتين المسافة كلها من مكة إلى المدينة؛ فالتنعيم يبعد عن مكة - بداية هجرتهما - ستة كيلو مترات، فما بالنا بامرأة معها زوجها وطفليها، ومكلف بإحضارها ومن يضمهنّ بيت النبوة .. أكان تاركها، ولو تركها لظروف لا نعلمها، أيتركها بلا راحلة ولا زاد؟!

ولا أدري أي صوم صامته أم أيمن وهيَ في طريق هجرتها، إذ الصوم فرضه الله تعالى في السنة الثانية من الهجرة، وكما قال النووي : "صام رسول الله صلى الله عليه وسلم رمضان تسع سنين، لأنه فرض في شعبان في السنة الثانية من الهجرة وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة" (١٢).

لم يمتد حُب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليسع أم أيمن فقط وزوجها زيد بل وسع حتى ولديهما أيمن وأسامة؛ فكان دائمًا مايضمهما مع الحسن والحسين في المناسبات كالعيدين، وذلك فيما رواه البيهقي عن عبد الله بن عمر:"أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج في العيدين مع الفضل بن عباس وعبد الله والعباس وعلي وجعفر والحسن والحسين وأسامة بن زيد وزيد بن حارثة وأيمن بن أم أيمن - رضي الله عنهم -،رافعًا صوته بالتهليل والتكبير، فيأخذ طريق الحذائين حتى يأتي المصلى، وإذا فرغ رجع على الحذائين حتى يأتي منزله"(١٣).

كانت أم أيمن دائمًا بجواره ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلفه في السراء والضراء، أحبته حب الابن، بل أكثر من ذلك بكثير؛ فهيّ التى تولت غُسل السيدة خديجة ـ رضيّ الله عنها ـ ومعها أم الفضل لبابة زوج عمه العباس، كما عاشت مع بنتيه أم كلثوم وفاطمة بعد وفاة أمهما كالأم لهما، حتى بعد أن ضم إليهما الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ السيدة سودة بنت زمعة، وحين تزوجت فاطمة كانت ممن جهزها لعريسها وهي التى أنبأتنا عن جهاز الزهراء حين قالت: "ولّيت جهازها، فكان فيما جهزتها به مرفقة من أدم ـ من جلد ـ حشوها ليف وبطحاء مفروش في بيتها".

ولما انتقلت السيدة زينب بنت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جوار ربها كانت أم أيمن ممن غسلنها، ومعها السيدة سودة بنت زمعة، والسيدة أم سلمة رضوان الله عليهن جميعًا.

وحين لاكت بعض الألسن سيرة السيدة عائشة ـ رضوان الله عليها ـ في حادثة الإفك، لم يجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدرًا أحن وأحفظ من صدر أمه وبقية أهله، وفعل كما يفعل الابن حين يضيق صدره ويريد أن يفرّج عن نفسه بما يعتمل داخله فكانت أم أيمن ملاذه الآمن الحنون، فطمأنته وصدقته الحديث حين سألها صلى الله عليه و سلم :"أي امرأة تعلمين عائشة؟"، قالت : "حاشا سمعي و بصري أن أكون علمت أو ظننت بها إلا خيرا".

ومثلما أضحكت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأضحكها وضحكت معه، مثلما هزها بكاؤه فبكت معه ، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال أخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابنة له تقضي فاحتضنها فوضعها بين يديه ، فماتت وهي بين يديه، وصاحت أم أيمن، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:"أتبكين عند رسول الله؟!" ، فقالت : ألستُ أراك تبكي؟، قال : "إني لست أبكي، إنما هي رحمة، إن المؤمن بكل خير على كل حال، إن نفسه تنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل"(١٤).

هكذا كانت أم أيمن ـ رضى الله عنها ـ مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقلبها وعينيها؛ فلم تتخلف عن السير معه فى بعض غزواته، ولم تكن تمنع ابنها الأول أيمن عن الجهاد، ولم تمنع ابنها الثاني أسامه عنه مخافة القتل والفقد خاصة وقد استشهد الأول منهما، كانت لاتحب الفرار وتشد حملةً شعواء على من يفعل ذلك من جند المسلمين ـ وقليلاً ما فعلوا ـ ولكن يوم أحد يشهد لها وذلك عندما خالف الرُّماة أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستطاع المشركون أن يقتلوا عددًا كبيرًا من الصحابة ـ رضيَ الله عنهم ـ وانهزم البعض الآخر فقامت تحثي في وجوههم التراب وتقول لبعضهم: "هاك المغزل فاغزل به، وهلم سيفك" .. ثم اتجهت نحو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تستطلع أخباره في نسوة معها حتى اطمأنت على سلامته، وكان هذا دأبها فرغم تقدم السن بها لم تتخلف عن الخروج في غزوة خيبر، ولما علمت بتخلف أيمن ابنها عن تلك الغزوة وبختة وعيرته بالجبن والبخل، ولم تكن تعلم بمرض فرسه الذى كان سببًا في منعه من الخروج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

الصابرة المحتسبة عند ربها زوجها زيد بن حارثة في سرية مؤتة، ثم جاء امتحان صبرها الأكبر في استشهاد ابنها أيمن في غزوة حنين، ثم قصم ظهرها وناءت عن حمله فقدها لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابنها الأول، وحبها الأكبر، والأثير لديها، فبكته وبكته حتى أبكت من حولها حين قالت(١٥):

حين قالوا الرسول أمسى فقيدا   ميتا كان ذاك كل البلاء
وابكيا خير من رزئناه في الدنيا   ومن خصه بوحي السماء
بدموع غزيرة منك حتى   يقضي الله فيك خير القضاء

عن أنس رضى الله عنه قال : قال أبو بكر رضى الله عنه بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يزورها، فلما انتهينا إليها بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ما عند الله خير لرسوله صلّى الله عليه وسلّم، فقالت : ما أبكي

أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله صلّى الله عليه وسلّم ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها(١٦).

إنها (بركة) التي بارك الله في عمرها، لتنعم بالقرب من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعايشته بما لم تحظ به أمه التي أنجبته ..

(بركة) الشاهد على ميلاد وحياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأفراحها وأحزانها، ودقائق أسرارها، كما كانت الشاهد على وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتلحق به في خلافة عثمان ـ رضيَ الله عنه وعنها ـ في أرجح الأقوال.

(١) : دراسة نقدية : هجرة المسلمين إلى الحبشة ، هامش ص١١.
(٢) الحافظ بن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٧ / ٣٧) .
(٣) عيسى مصبح خلف : (تعقبات الحافظ بن حجر فى كتابه الإصابة على الحافظ ابن عبد البر فى الاستيعاب ، ص ١٠٤).
(٤) [أخرجه البخاري برقم (٤١٢٠) ، ومسلم برقم (١٧٧١)] .
(٥) [شرح النووي (٩٧/٦)] .
(٦)[فتح الباري (٤٧٥/٧)] .
(٧) الحافظ إبن حجر رحمة الله في التلخيص الحبير(٤- 1457 50).
(٨) ابن حجر ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار » باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ،المستدرك على الصحيحين [6716] .

(٩) ابن حجر ، فتح الباري شرح صحيح البخارى بقية كِتَاب الْمَنَاقِبِ ،باب تَزْوِيجِ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَائِشَةَ وَقُدُومِهَا الْمَدِينَةَ وَبِنَائِهِ بِهَا .
)الإصابة ٤ / ٧٧ ودلائل النبوة (٢٣٧٢) حسن لغيره.10(
(١١)صحيح البخاري » كتاب الصلاة » أبواب استقبال القبلة » باب المساجد التي على طرق المدينة والمواضع التي صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم .
(١٢) النووي ، "المجموع" (٢٥٠/٦)
(١٣)وسنده حسن كما قال العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٧٩/١
(١٤)قال الشيخ الألباني في مختصر الشمائل المحمدية صـ ١٧١: أخرجه النَّسائي في الجنائز \باب في البكاء على الميت ٤\١١
(١٥)ابن سعد: الطبقات الكبرى (٣٣٢/٢) .
(١٦) [رواه مسلم في كتاب "فضائل الصحابة"، باب فضائل أم أيـمن برقم (٢٤٥٤)] .

الفصل الرابع

عائلة

الرسول صلى الله عليه وسلم

بالبادية

بينما كانت مكة الواقعة فى منتصف طريق القوافل العابرة بين الشام واليمن لا تنعم بالزروع والثمار حيث تعاونت على حصارها الجبال الصخرية من كل جانب مما جعل جوها شديد الحرارة قليل الأمطار، كانت غير بعيدة منها فى جنوبها الشرقي تنعم "الطائف" بطيب الهواء، والأرض الخصبة الخضراء التي تموج بالحدائق الغناء، والأشجار والزروع، فكانت لأهل مكة ريفهم وبستانهم، ومربى أولادهم حتى أصبحت عادة في أشرافهم كلما رزقهم الله أولادًا أرسلوا بهم إلى مراضع البادية، صونًا لهم من الحرارة القائظة، وخوفًا من التهام المرض لهم، فتصح هناك أبدانهم، كما يستقيم لسانهم بنطق اللغة العربية الصحيحة في مهادهم؛ فقد أشتهر أهل البادية بالبيان والفصاحة لا سيما بني هوازن فهم من أفصح العرب، كما كانت بادية بني سعد الكائنة بجنوب الطائف مقتصرة على الجنس العربي فقط، فلم تكن مثل مكة يسكنها ويأتيها الهجين من الأعاجم تجارًا وزوارًا وعبيد بقصد التجارة أو العمل أو زيارة البيت الحرام، لذلك كان أبناؤها يتكلمون العربية بسليقتهم وطبيعتهم وفطرتهم، ولما لا؟! .. ألم ينشأ الشعر الجاهلي في البوادي من نجد والحجاز وما إليهما من شمالي الجزيرة العربية، ولهذا فقد كانت البادية المدرسة التي يتعلم فيها الشعراء النابهون .. ومن سار على دربهم من شعراء العصر الإسلامي كالمتنبي الذd أقام في بادية بني كلب بالشام سنتين يتعلم اللغة ويقوّم لسانه، وكذلك فعل أبو نواس عندما ترك والبة بن الحُباب ليقيم بالبادية سنة لنفس الغرض.

لهذا كله حظيت نساء بني سعد بامتهان الرضاعة وأشهرهنّ "حليمة بنت أبي ذؤيب عبدالله بن الحارث" التى سلكت مع زوجها الحارث بن عبد العزي الطريق الشمالي المؤدي إلى مكة في صحبة عشر نسوة ليفزنّ بمن يطلبهن لرضاع صغارهنّ.

تكالبت كل الظروف السيئة على حليمة وزوجها وطفلهما الرضيع، فالسنة التى مرت بهم كانت مجدبة لم يرسل الله فيها المطر، ولم تنبت الأرض زرعًا، وحتى الناقة التى صحبتهم كانت هى الأخرى لا تدر إلا القليل من اللبن كحال ثدييّ حليمة، والطفل يأكله الجوع فلا يجد عند أمه ولا ناقتهم

ما يقيم أوده، وأكملت حمارتهم العجفاء البيضاء منظومة التعاسة فأبطأت في مسيرها لتصل النسوة قبل حليمة.

كانت آمنة تعرف عادات نساء الأشراف من قومها وطبقتها، وإعراضهن عن إرضاع صغارهن والدفع بهم إلى مراضع البادية، غير أنها كانت تستطيع أن تحارب هذه العادة من أجل الاحتفاظ برضيعها معها لتأنس به خاصةً بعد رحيل أبيه عنها في رحلة اللاعودة، فباتت تخشى أكثر من بُعد البقية الباقية منه حيث السفر أميالاً دون المائة إلى الطائف، غير أن عدم كفاية لبنها لتغذية الرضيع إلى الحد الذي دفع ثويبة أمَةُ أبي لهب عمه لتتولى مهمة إرضاعه، وما كانت تعرفه أيضًا عن الفوائد التى ستعود على رضيعها حين يكبر، جعلها تضحي بأحلى أوقاتها حين كانت تتشممه وتتحسسه، لتتجشم من جديد عناء الحزن على فقد أبيه، وعناء الشوق الذي سيبدأ رحلته عندما يغيّب الطريق فلذة كبدها عنها.

دخل ركبُ حليمة وزوجها متأخرًا إلى مكة وقد فازت كل مرضعة من صويحباتها برضيع، وأخبرنها بأنه لا يوجد خلفهن سوى طفل يتيم آثرن ألا يأخذنه؛ فالوالد الذى يجزل العطاء قد مات، وماذا عساهما يصنعان أمه وجده؟!، والمرضعات هنا يتحدثن بخبرة مهنية حياتية متراكمة استقرت فى وعيهن مما تعرضن له من قلة البذل من الأم أو الجد، ولم يتحدثن عن فقر ولا غنى، فالرضيع شريف من أشراف مكة، وجده سيد مكة، وما أدري المرضعات بما ورثه عن أبيه، وأنه لم يخلف له مالاً ـ كما يذهب أكثر من كتب السيرة العطرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلام النسوة واضح : "وذلك أنا أنما كنا نرجو المعروف من أبى الصيب، فكنا نقول : يتيم؟ .. وما عسى أن تصنع أمه وجده؟".

كيف يكون اليتيم فقيرًا وهو في كفالة جده عبد المطلب سيد مكة وكبيرها الذي أغتصب جيش أبرهه منه مائتين من الإبل أثناء حملته على الكعبة، والذي افتدى ابنه عبد الله بمائة من الإبل، كما ذبح مجموعة كبيرة منها في زواجه لا يصد عنها إنسان ولا حيوان، ويذكر اليعقوبي في كتاب البلدان: "أن عبد المطلب عند موته لُف في حُلتين من حلل اليمن قيمتها ألف مثقال من الذهب،وقد كانت هدية من سيف بن ذي يزن الحميري لما ظفر بالحبشة

وذلك بعد مولد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتته وفود العرب وأشرافها وكان من جملتهم وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم جد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمية بن عبد شمس وأسد بن عبد العزي وعبد الله بن جُدعان فقدموا عليه وهو في قصر يقال له غُمدان ـ بضم الغين ـ فطلبوا الإذن عليه فأذن لهم وتكلم عبد المطلب مهنئًا. ولما فرغ أدناه وقربه ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشر إماء سود وخمسة أرطال فضة وحلتين من حلل اليمن وكرش مملوءة عنبرًا، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك".. أكان اليتيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد كل هذا فقيرًا، ونسينا أهل آمنة من بني زهرة ويسارهم، أكانوا تاركين حفيدهم ترفضه المرضعات لفقره؟!

أخذت حليمة بنصيحتهن في باديء الأمر، فماذا عساها أن تفعل هي الأخرى بـ "طفل يتيم"؟.. ربما غلبها الإحساس البشري بالعزة والأنفة ـ وهى صفة بشرية أشد ما تكون عند العربي الأصيل ـ إذ كيف تقبل ما رفضته صويحباتها ولداتها، فردت اليتيم وانصرفت قافلة من حيث جاءت، ولكنها حين قلبت الأمور وجدت أن أسوأ من رفضها لهذا اليتيم هو العودة بلا رضيع البتة، واحترم زوجها الحارث رغبتها في العودة فصمت، غير أنها بادرته هذه المرة وقد غلبتها طبيعتها البشرية كأنثى ـ والغيرة أشد ما تكون في النساء ـ : "والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه"، فأشار عليها الحارث ناصحاً : "لا بأس عليك أن تفعلي عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة".

الظروف التي قد نظنها سيئة في ظاهرها وهي قدرية في باطنها، قد تقودنا من حيث لا ندري إلى خير كثير نجهله، إنها يد الله الرحيمة التي ترتب لنا مسيرنا ومصائرنا، وغالبًا ما يضحك الإنسان ساخرًا من غبائه عندما يتذكر كم كان ساخطًا على ما ظنه سيئًا في بداية الأمر، فلمّا استعرض ما انتهى به المآل تنهد قائلاً بارتياح: الحمد لله.

فبمثل ما تكالبت الظروف السيئة على حليمة وعائلتها، تضافرت الظروف الجيدة والجديدة التى أحاطتها وتلبثتها منذ اللحظة الأولى التى هرولت ساعية إلى طفل قريش اليتيم وسليل البيت الهاشمي فاستلمته من أمه على مضض: "وما حملني على أخذه إلا إني لم أجد غيره"، لتكون

رحلة العودة صورة مغايرة تمامًا لرحلة الذهاب، فإذا كل ما هو سيء قد تبدل؛ فثدييها قد أقبلا على اليتيم كنهر لا يتوقف جريانه حتى شبع اليتيم وابنها وناما كما نامت حليمة وزوجها، فلم يكن بكاء طفلهما يدع النوم يتسلل إليهما ساعة من ليل، والناقة البخيلة بلبنها امتلأت لبنًا، فشربا منها حتى شبعا وارتويا، أمّا الحمارة العجفاء ما كادت تركبها ورضيعها اليتيم حتى لحقت بالركب الذى تقدمها فسبقتهم إلى الحد الذي كانوا يستمهلونها ليلحقوا بها وزوجها .

منذ تلك اللحظة التى ارتويا وشبعا الحارث وزوجته وكأن الله قد صدق للحارث ظنه في اليتيم "عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة" حتى يحادث زوجه في هذا : "تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة"، أحس الحارث ببركة هذا الرضيع، وصفة البركة هذه ستظل ملاصقة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كانت منذ كان جنينًا فرضيعًا وطفلاً ثم نبيًا رسولاً في حياته كلها وبعد مماته، وهى صفة كثيرًا ما سنقابلها في كل أطوار حياته فيما بعد، ليكون حديثنا التالي عنها في بيت عمه أبي طالب بعد وفاة جده.

يقينًا .. كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بركة على من حوله حيًا وميتًا، فمن أول من أصاب من بركته وهو جنينٌ بعد لم يكدْ يدخل حياتنا الدنيا سوى دقائق يسيرة ثويبة جارية عمه أبا لهب التي أعتقها لما أخبرته بقدومه، لتتوالى البركات الطيبات على المسلمين حتى صارت معجزات، كما كانت بركاته ينعم بها من غير المسلمين وإن لم يؤمنوا به أو يتبعونه، وليس أدل على ذلك ما أثبتته البحوث العلمية فى العواصم العالمية من تأثير النطق بالبسملة على الميكروبات والفيروسات بالحيوانات والطيور عند ذبحها.

وليس أدل على حلول البركات، وحدوث التغييرات أن يقر بها ويذيعها من عاينها وشاهدها وأصاب منها، ومن غير حليمة يصلح لرصد هذا؟ فقد عاش الرضيع حتى أصبح طفلاً معها سنوات، والبركة التى أحستها وأسرتها وجيرانها ببادية بنى سعد لم تكن طفرة حدثت مرة ثم ذهبت بل كان لتكرار شواهدها ما وقر فى صدرها إنما كان بسبب حلول هذا الطفل اليتيم المبارك عليهم وبينهم، حتى قالت : "قدمنا منازلنا في بلاد بني سعد وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعًا

لبنًا فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب فتروح أغنامهم جياعًا وما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي شباعًا لبنًا فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير".

وما يؤكد هذا أن الطفل ما كاد يبلغ العامين حتى قدمت به حليمة ومن معها إلى أمه آمنة لترده إليها بحسب العرف المتبع فيهم بينما نفسها لا تطاوعها إلا أن تصحبه معها ثانيةً "ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لما كنا نرى من بركته"، و يبدو أن آمنة أبدت اعتراضًا شديدًا على إلحاح حليمة غير أن حليمة لم تيأس حتى ذكرتها بوباء مكة ومخافة أن يصيب ابنهما، فلم تزل بها حتى ردته معها إلى بادية بني سعد مرة أخرى".

كانت أسرة الطفل محمد بالبادية هي الأسرة الوحيدة التى سعد بها أيما سعادة في طفولته كلها؛ لأنها كانت عائلة مكتملة الأركان من أم وأب وأشقاء، فأسرته التى خرج منها بمكة لم يكد يعلم عنها شيئًا؛ فلقد تركها رضيعًا، وكانت الأم فقط أهم أركانها ثم جده فحاضنته، وهي الأسرة التي سيعود عليها آجلاً، أما الأسرة الثالثة في حياته فقد كانت أسرة جده وزوجه وأبنائهما أي أعمامه، وقد انتقل للعيش معهم بعد وفاة أمه، ثم تكون أسرة عمه أبي طالب هى الأسرة الأخيرة التي عاش فيها قبل زواجه الأول وكانت تتكون من العم وزوجه وأبنائهما وكانت ملاذه بعد وفاة جده. غير أنه كان قد أدرك منذ عاد معنى الحزن، ولوعة الفراق حين أخبروه بفقد الأب، ثم معاينته ومعايشته لفقد الأم، فكان هم اليتم عليه قاسيًا وهو لم يزل صغيرًا بعد، لقد غمر هذا الشعور حياته كلها في عهد هاتيك الأسرتين، بخلاف شعور السعادة والبهجة والحفاوة والتدليل واللعب فى المروج، الذي عاشه في كنف أبويه الحارث وحليمة، وأخوته عبد اللّه، وأنيسة، وحذافة أو (الشيماء) كما كانوا ينادونها.

عاد الطفل مع حليمة التى سعدت بالفوز به مرة ثانية، وربما سعد هو أكثر فقد كانت البادية ملعبه مع أخيه ورفاقهما، وموطن أخته الشيماء التى تكبره بعدة سنوات وكانت له نعم الحاضنة والراعية، ومدللته بعد أمهما

حليمة، وهو الذي كان يأنس لصوتها العذب حين تبعده عن حر الشمس أن يطاله، وهي تقول في ضراعةٍ ورجاء :

يا ربّنَا أبْقِ لَنَا مُحَمّـــــــدًا
حتى أرَاهُ يَافِـعًا وأمْـــــــرَدَا
ثُمّ أراهُ سَيِّـــــدًا مُـسَــــوّدَا
واكْبِـتْ أعَـادِيهِ مَعًا وَالْحُسّدَا
وَأعْطِهِ عِزّا يَـدُومُ أبـــــــدًا

ولم يعكر صفو تلك السعادة الغامرة على حليمة وزوجها غيرماوقع للطفل من حادثة شق الصدر فخافت عليه وبناءً على نصيحة من زوجها أعاداه لأمه كي يخليان مسئوليتهما مما جرى له إذا ظهر، غير أن آمنة العربية القرشية لم يَرُقْ لها تصرف حليمة في إلحاحها في العودة به معها في المرة السابقة، ثم الإتيان به في هذه المرة وتركه على عجل من أمرها، فسألتها في حزم : "مَا أَقْدَمَكَ بِهِ يَا ظِئْرُ وَقَدْ كُنْتِ حَرِيصَةً عَلَيْهِ، وَعَلَى مُكْثِهِ عِنْدَكَ؟ قالَتْ : فَقُلْتُ : قَدْ بَلَغَ اللَّـهُ بِابْنِي وَقَضَيْتُ الَّذِي عَلَيَّ، وَتَخَوَّفْتُ الْأَحْدَاثَ، عَلَيْهِ، فَأَدَّيْتُهُ إِلَيْكَ كَمَا تُحِبِّينَ، قالَتْ : مَا هَذَا شَأْنُكِ، فَاصْدُقِينِي خَبَرَكِ. قالَتْ : فَلَمْ تَدَعْنِي حَتَّى أَخْبَرْتُهَا. قالَتْ : أَفَتَخَوَّفْتِ عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ؟ قالَتْ : قُلْتُ نَعَمْ، قالَتْ : كَلَّا، وَاَللَّـهِ مَا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ(١)، وَإِنَّ لِبُنَيَّ لَشَأْنًا، أَفَلَا أُخْبِرُكِ خَبَرَهُ؟، قالَتْ : قُلْتُ: بَلَى، قالَتْ : رَأَيْتُ حِينَ حَمَلْتُ بِهِ، أَنَّهُ خَرَجَ مِنِّي نُورٌ أَضَاءَ لِي قُصُورَ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، ثُمَّ حَمَلْتُ بِهِ، فَوَاَللَّـهِ مَا رَأَيْتُ مِنْ حَمْلٍ قَطُّ كَانَ أَخَفَّ عَلَيَّ وَلَا أَيْسَرَ مِنْهُ، وَوَقَعَ حِينَ وَلَدْتُهُ وَإِنَّهُ لَوَاضِعٌ يَدَيْهِ بِالْأَرْضِ، رَافِعٌ رَأْسَهُ إلَى السَّمَاءِ، دَعِيهِ عَنْكَ وَانْطَلِقِي رَاشِدَةً" (٢).

وحادثة شق صدر رسولنا الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثابتة في صحيح مسلم (٣)، ومسند أحمد، قَالَ عَبْد اللَّه بْن الْإِمَام أَحْمَد حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحِيم أَبُو يَحْيَى الْفَزَّاز حَدَّثَنَا يُونُس بْن مُحَمَّد حَدَّثَنَا مُعَاذ بْن مُحَمَّد بْن أُبَيّ بْن كَعْب حَدَّثَنِي أَبُو مُحَمَّد بْن مُعَاذ عَنْ مُحَمَّد عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب أَنَّ أَبَا هُرَيْرَة كَانَ جَرِيئًا عَلَى أَنْ يَسْأَل رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَشْيَاء لَا يَسْأَلهُ عَنْهَا غَيْره فَقَالَ يَا رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَوَّل مَا رَأَيْت مِنْ أَمْر النُّبُوَّة؟ فَاسْتَوَى رَسُول اللَّه صَلَّى

اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا وَقَالَ: ''لَقَدْ سَأَلْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِنِّي فِي الصَّحْرَاءِ اِبْن عَشْرِ سِنِينَ وَأَشْهُر وَإِذَا بِكَلَامٍ فَوْقَ رَأسِي وَإِذَا رَجُل يَقُول لِرَجُلٍ: أَهُوَ هُوَ؟، فَاسْتَقْبَلَانِي بِوُجُوهٍ لَمْ أَرَهَا قَطُّ وَأَرْوَاح لَمْ أَجِدهَا مِنْ خَلْق قَطُّ وَثِيَاب لَمْ أَرَهَا عَلَى أَحَد قَطُّ فَأَقْبَلَا إِلَيَّ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَخَذَ كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا بِعَضُدِي لَا أَجِد لِأَحَدِهِمَا مَسًّا، فَقَالَ أَحَدهمَا لِصَاحِبِهِ: أَضْجِعْهُ فَأَضْجَعَانِي بِلَا قَصْرٍ وَلَا هَصْر، فَقَالَ: أَحَدهمَا لِصَاحِبِهِ اِفْلِقْ صَدْره، فَهَوَى أَحَدهمَا إِلَى صَدْرِي فَفَلَقَهُ فِيمَا أَرَى بِلَا دَم وَلَا وَجَع، فَقَالَ لَهُ: أَخْرِجْ الْغِلّ وَالْحَسَد، فَأَخْرَجَ شَيْئًا كَهَيْئَةِ الْعَلَقَة ثُمَّ نَبَذَهَا فَطَرَحَهَا، فَقَالَ لَهُ: أَدْخِلْ الرَّأْفَة وَالرَّحْمَة، فَإِذَا مِثْل الَّذِي أَخْرَجَ شِبْه الْفِضَّة ثُمَّ هَزَّ إِبْهَام رِجْلِي الْيُمْنَى فَقَالَ: أُغْدُ وَاسْلَمْ، فَرَجَعْت بِهَا أَغْدُو رِقَّة عَلَى الصَّغِير وَرَحْمَة لِلْكَبِير''(٤).

قال الحافظ (٥): "وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك".

وهذا ردًا على تخرصات من أنكروا إرهاصات ميلاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وحوادث شق صدره التي جاءت في الصحيحين، والرد عليها سهل يسير بالنقول الصحيحة، والأدلة العلمية الحديثة، مما يضيق المقام بسرده، وليس هنا مكانه(٦).

وللوفاء مواضع كثيرة ونبيلة في حياة رسولنا الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يتسع المقام لسردها كلها، لكن قارىء سيرته العطرة سيقع عليها دون عناء، فمثلما كان وفيًا لأمه آمنة فزار ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبرها مرات، مثلما كان حفيًا بثويبة مرضعته بعد أمه، وكذلك أم أيمن حاضنته، كان لحليمة نصيب كبير من بساتين وفائه الرحبة ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك حين قدمت عليه بمكة بعد زواجه من خديجة، تشكو له من جدب البلاد وهلاك الماشية، فكلم ـ صلى الله عليه وسلم ـ خديجة فيها فأعطتها أربعين شاة وبعيرًا موقعًا للظعينة، وانصرفت إلى أهلها، وكانت هذه المرة الأولى التى رآها بعد رجوعه من الطائف طفلاً، أما الثانية فبعد أن بعثه الله نبيًا يوم حنين حين أقبل عليه الحارث أبوه من الرضاعة، فوضع له ثوبه، فقعد عليه، ثم أقبلت حليمة أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست

عليه، ثم أقبل أخوه عبدالله من الرضاعة، فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأجلسه بين يديه.

ولما جيء بالشيماء أخته من الرضاعة في سبايا هوازن عرفها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعلامة فيها، فبسط لها رداءه، ثم قال لها يخيرها : ''إن أحببت أقمتِ عندي مكرمة محبة، أو متعتك ورجعتِ إلى قومك''، فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي. فأعطاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثة أعبد و جارية و أجزل لها العطاء ثم ردها إلى قومها

ولما قدم وفد هوازن على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم أربعة عشر رجلاً يرأسهم زهير بن صُرَد ، وفيهم أبو بُرْقان عم رسول الله من الرضاعة، وقد جاءوا مسلمين مبايعين فسألوه أن يَمُنَ عليهم فيرد لهم أموالهم ونسائهم وذراريهم، بعد أن استعطفه أبو صرد: (إنما في هذه الحظائر أخواتك وعماتك وخالاتك وبنات عمك وبنات خالاتك وأبعدهن قريب منك بأبي أنت وأمي أنهن حضنك في حجورهن وأرضعنك بثديهن، وتوركنك على أوراكهن، وأنت خير المكفولين)، فرضي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ورضيّ المسلمون بما رضي به رسول الله وردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، وذكر ابن كثيرأنه عليه الصلاة والسلام أطلق لهم الذرية، وكانت ستة آلاف ما بين صبي وامرأة، وأعطاهم أنعامًا وأناسي كثيرًا. حتى قال أبو الحسين بن فارس: "فكان قيمة ما أطلق لهم يومئذ خمسمائة ألف ألف درهم". فهذا كله من بركته العاجلة في الدنيا، فكيف ببركته على من اتبعه في الدار الآخرة ؟!(٧)، كما رد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مالك بن عوف النصري رئيس هوازن أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل بعدما أسلم وحسن إسلامه، واستعمله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على من أسلم من قومه.

تحلى رسولنا الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصفاتٍ وخلالٍ كريمات طيبات أكبر وأكثر من أن يحصيها العلماء المهرة بدراسة سيرته العطرة ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير أن صفتا البركة والوفاء لازمتاه منذ بداية مولده بل قبلها وهى بالتتابع البركة ثم الوفاء، ولا نجد هناك عائلة ممن عاش

معهم وبينهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أصابها من خيره وبركته ووفائه وبخاصةٍ عائلة الحارث وحليمة بالبادية.

(١) وفى دلائل النبوة لأبى نعيم بلفظ "لا تخافى هذا، فإن ابنى هذا معصوم من الشيطان" .

(٢)[لفظ ابن إسحاق، من حديث حليمة بنت الحارث السعدية ،السيرة النبوية لابن هشام « ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضاعته ص166] .

(٣) والحديث في ذلك ثابت صحيح أخرجه مسلم(١٦٢):
عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئيره- فقالوا إن محمداً قد قتل. فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: أرى أثر المخيط في صدره ."والظئير المرضعة وهي هنا حليمة كما هو معلوم. وبالرجوع إلى كتب الحديث النبوي الشريف، نجد أن حديث شق الصدر جاء بأسانيد صحيحة. فقد رواه أبو نعيم في دلائل النبوة، وأخرجه مسلم في صحيحه(١٦٢)، والإمام أحمد في مسنده، وابن سعد في طبقات الصحابة، عن أنس رضي اللّه عنه، أن النبي صلى الله عليه و سلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه واستخرج منه علقة. فقال : هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَهُ، ثم أعاده إلى مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه، يعني مرضعته، أن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون ".
وللحديث شواهد كثيرة، فقد أخرجه الحاكم في المستدرك، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) الألباني: السلسلة الصحيحة ، إسناده جيد قوي (٦٠/٤) .

(٥) ابن حجر العسقلانى : الفتح (١٥٢/١٥ح ٣٨٨٧).

(٦) انظر كتاب : نبيٌ بلا معجزات .. للمؤلف ـ تحت الطبع .
(٧)السيرة النبوية – ابن كثير ج ١ (٢٣٣/١) .

الفصل الخامس

أم الرسول صلى الله عليه وسلم

القرشية الهاشمية

لما بلغ عبد المطلب عشر ومائة سنة أو يزيد وافته المنية بينما كان عمر حفيده محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتجاوز الثامنة بقليل فكان وقع الخبر على الطفل شديدًا؛ لأنه كان البقية الباقية من ذكرى أبيه الذي لم يره، والراعي والمواسي له بعد وفاة أمه، فهوالذي ضمه إلى بيته وأولاده بل وقدمه على كل من حوله تكرمةً وإيثارًا، بل ناداه بابنه حين كان ينهر من يحاولون أن يبعدوه عن مجلسه بكلمةٍ ظل صداها فى قلبه وأذنيه:"دعوا ابني فوالله إن له لشأنًا".

لهذا فقد بكاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكاءً مرًا لم يخفف عنه من شدة حزنه غير مواساة ومؤازرة حاضنته أم أيمن التي كانت تعلم يقينًا أنهما حتمًا سيغادران بيت عبد المطلب إلى بيت عمه أبي طالب الذي كان قد أوصاه والده عبد المطلب لما أحس بمسير الموت إليه أن يكفل ابن أخيه، ولم يتململ أبو طالب أو يتردد أو يتعلل بفقره وكثرة عياله، لأنه كان يعلم سر اختيار عبد المطلب له؛ فهو الأخ الشقيق لوالد الطفل من جهة الأم فاطمة بنت عمرو بن عائذ، ولأنه أيضًا الوارث لمقام أبيه من قريش، وربما لسببٍ خفي أراد عبد المطلب أن يؤثر أبا طالب بهذا اليتيم لما له من بركة لمسها الجد بنفسه من حال حفيده، فعلم في قرارة نفسه أنه لم يحمل ابنه فوق ما يطيق بل إنه ليهديه من سيكون سبب الخير له ولأولاده وبيته، كما كان أبو طالب نفسه حاضرًا حين قال قوم من بني مدلج لعبد المطلب: "احفظ به ـ يقصدون حفيده صلى الله عليه وسلم ـ فإنا لم نر قدمًا أشبه بالقدم التي في المقام منه"، فقال عبد المطلب لأبي طالب: "أسمع ما يقول هؤلاء". فكان أبو طالب يحتفظ به.

والحق أن زوج عمه أيضًا لم تتبرم بمقدمه لدارهم بل فرحت به أيّما فرح وليس هذا بمستغرب؛ فهي القرشية الهاشمية فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، التي نشأت في بيت من أشرف بيوت قريش وأعزها نسبًا ومجدًا، إذ تلتقي ـ رضي الله عنها ـ مع رسول الله ـ

صلى الله عليه وسلم ـ في جده هاشم، ولهذا فقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لها مثل أولادها : طالبًا وعقيلاً وجعفرًا. ولقد تركت معاملتها في نفس النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ وهو طفل أبلغ الأثر الذي ظل باقيًا في قلبه حتى مماتها.

والحديث عن بركة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينتهي فحيث انتقل أو رحل، أو حط أو استقر في سَفرٍ أو حضر يحسها من حوله ويتحدثون عنها ويحدثون بها إلا هو صلى الله عليه وسلم، أحستها بنت أسد وكذلك زوجها؛ فقد تغير حال أولادهم بعد حضور ابن أخيه عما قبل؛ فالأولاد يأكلون ويشبعون ويفضل من طعامهم إذا أكل معهم محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكن هذا حالهم قبله، أو حالهم إذا أكلوا بدونه لم يشبعوا ولم يرتووا، بينما إذا شربوا اللبن من إنائه بعد أن يشرب منه بفمه الشريف ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدور الإناء عليهم جميعًا فيروون عن آخرهم.

في هذا البيت الهاشمي حظيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ برعاية أمُّهِ القرشية الهاشمية فاطمة الحسيبة النسيبة القريبة، وأمُّه الحبشية صنو حياته وقسيمة أحزانه وأفراحه بركة بنت ثعلب، وهما ممن شملتهما بركته ـ صلى الله عليه وسلم ـ، إنه البيت الذي يتميز عن سائر البيوت التي تربى فيها وتركها بميزة طول إقامته فيه، مع ميزة أخرى وهي بداية تكوينه الفكري والمجتمعي، والبدني، إنه البيت الذي شهد المرحلة الانتقالية في حياة رسولنا الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبعدها سيستقر في بيت الزوجية، وبعدها سيبدأ عهد جديد في حياته ألا وهو عهد النبوة والدعوة.

لم تكن فاطمة بنت أسد تدري أن بركة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليست قاصرة فقط على الإحساس بالشبع والارتواء، بل ستشمل حياتها كلها وحياة أبنائها فيما بعد.

كما لم تكن تدرى أيضًا أن هذا اليتيم الناشيء في بيتها الذي استسقى زوجها بوجهه الغمام أن ينزل مطرًا على قريتهم مكة فاستجاب الله له، حتى أقبل السحاب وأغدق واغْدَوْدَق، وانفجر الوادي، وأخصب النادي والبادي، والذي سافر مع عمه لما بلغ ـ صلى الله عليه وسلم ـ اثنتى عشرة سنة في أول رحلة تجارية له خارج حدود مكة حيث الشام، ولمّا أتم العشرين من

عمره حضر حرب الفجار التي انتهكت عهدهم واستمساكهم بالسلام في الأشهر الحرم، وكانت بين قريش - ومعهم كنانة - وبين قَيْس عَيْلان، وميدانها سوق عكاظ، ثم حضر - صلى الله عليه وسلم - على إثرها توقيع حلف الفضول في دارعبدالله بن جدعان الذي تعاهدت فيه القبائل من قريش على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلى أن يقوموا معه، ويكونوا على من ظلَمَه حتى يردونُ عليه مظلمته.

ذلك اليتيم الذي بدأ من بيتها رحلة الكدح والكفاح من أجل الرزق برعي الغنم، والتجارة بالمشاركة مع السائب بن أبي السائب المخزومي، حتى خرج متاجرًا بمال خديجة لما كان في الخامسة والعشرين، لم تكن فاطمة تدري أن الله سيبعثَ هذا اليتيم نبيًا يملأ آفاق الأرض نورًا ورحمةَ وهداية، وتحل بركته على كل من آمن به واتبع هديه صلى الله عليه وسلم.

كان وفاؤه - صلى الله عليه وسلم - نادرًا ماتتلفت حولك فتجده في سيرة عظيم أو كبير، فهذه الفضيلة قد انتظمت حياته كلها؛ في فقره وفيّ، وفى غناه وفيّ، فى صغره وفيّ، وفى كبره وفيّ، قبل أن يبعث وفيّ، وبعد النبوة وفيّ، مع أزواجه وفيّ، مع المؤمنين وفيّ، مع الكفار وفيّ، مع الأعداء وفيّ، مع الأقارب وفيّ، ومع الأباعد .. كان وفاؤه - صلى الله عليه وسلم - إحدى معجزاته الكبرى.

خرج - صلى الله عليه وسلم - من بيت عمه إلى بيت زوجه خديجة - رضيّ الله عنها - ومعه بركة التي كانت حاضنته، فلم يأخذه الغني والجاه وينسى يومًا من آواه واحتضنه وكفله ورباه، يشهد بهذا أنه لما أصابت قريشًا أزمة شديدة وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة قال - صلى الله عليه وسلم - للعباس عمه الذي كان من أيسر بني هاشم : "يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله: آخذ من بنيه رجلاً و تأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه"، فقال العباس : نعم. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ، فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما عقيلاً فاصنعا ما شئتما. فأخذ رسول الله عَليًا فضمه إليه وأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه.

وفي صبح يوم جديد أظل مكة خبر نبوة محمد، ورب محمد الذى يدعو الناس لنبذ الأصنام، وتوحيد الواحد الديان، آمن مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من آمن، ومنهم أبناء عمومته يسبقهم عليًا ويأتي بعده جعفر الذي عقد العزم للهجرة إلى الحبشة هو وزوجه، فتودعه أمه فاطمة ملتاعة عليه ولم تحمل في نفسها شيئًا تجاه ولدها محمد لأنه أتى بدين فرق بين المرء وأهله، يشهد لها بهذا يوم أن علقت مكة صحيفتها وأوكلت إلى بَغِيض بن عامر بن هاشم مهمة كتابة ما اتفقوا عليه "ألا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا محمدًا للقتل" فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم ـ إلا أبا لهب ـ وحبسوا في شعب أبي طالب، من السنة السابعة من البعثة الشريفة، فتدخل مع زوجها وأولادها لتعاني مع من عانى من الجوع والعطش وأكل أوراق الشجر لثلاثة أعوام بين قلب سافر نصفه حيث أرض النجاشي، ونصفه الآخر مع ما يعانيه أهلها في هذا الحصار القاسي، كما أنها لم تجزع ولم تعترض حين كان أبو طالب يقدم أولادها فداءً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خوفًا عليه، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وأمره أن يأتي بعض فرشهم ، وهذا لأن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان لها كأولادها، بل كان الأثير عندها.

لم تكد ستة أشهر من الخروج من الشعب تمضي حتى أعلن الناعي خبر وفاة أبي طالب في رجب سنة عشر من النبوة، ثم لحقته خديجة.

والراجح من الروايات التاريخية أن فاطمة بنت أسد أسلمت وهاجرت إلى المدينة المنورة، فقد قال ابن سعد: "أسلمت فاطمة بنت أسد وكانت امرأة صالحة، وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يزورها ويقيل في بيتها".

وفي المدينة تزوج ابنها علي ـ رضي الله عنه ـ فاطمة بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فأسكنها في بيت أمه فاطمة بنت أسد، وكان عليًا يُوصي أمه عليها: "قُلْتُ لِأُمِّي فاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدِ بْنِ هَاشِمٍ: اكْفِي فاطِمَةَ بِنْتِ

رَسُولِ اللَّـهِ ـ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ ـ سِقَايَةَ الْمَـاءِ وَالـذَّهَابَ فِي الْحَاجَـةِ ، وَتَكْفِيكِ خِدْمَةَ الدَّاخِلِ الطَّحْنَ وَالْعَجْنَ" (١).

ومع دخول السنة الخامسة من الهجرة كانت أنفاس الهاشمية القرشية الحانية قد فارقت الحية الفانية راضيةً مرضية، ولما علم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنبأ ألبسها قميصه الطاهر، كما جاء في أقوى الروايات ـ حيث ورد في وفاتها عدة روايات لا تخلو من ضعف ـ وهي رواية أنس بن مالك رضي الله عنه، حيث قال: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : لَمَّا مَاتَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدِ بْنِ هَاشِمٍ أُمُّ عَلِيٍّ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ دَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَجَلَسَ عِنْدَ رَأسِهَا ، فَقَالَ : "رَحِمَكِ اللَّهُ يَا أُمِّي، كُنْتِ أُمِّي بَعْدَ أُمِّـي، تَجُـوعِينَ وَتُشْـبِعِينِي، وَتَعْـرَيْنَ وَتَكْسِـينِي، وَتَمْنَعِـينَ نَفْسَـكِ طَيِّبًـا وَتُطْعِمِينِي، تُرِيدِينَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ". ثُمَّ أَمَرَ أَنْ تُغَسَّلَ ثَلَاثًا، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءَ الَّذِي فِيهِ الْكَافُورُ سَكَبَهُ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ ـ بِيَدِهِ ، ثُمَّ خَلَعَ رَسُولُ اللَّـهِ ـ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ ـ قَمِيصَـهُ فَأَلْبَسَـهَا إِيَّـاهُ ، وَكَفَّنَهَا بِبُرْدٍ فَوْقَهُ، ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ ـ أُسَامَةَ بْنَ زَيْـدٍ، وَأَبَـا أَيُّـوبَ الْأَنْصَـارِيَّ، وَعُمَـرَ بْـنَ الْخَطَّـابِ، وَغُلَامًـا أَسْوَدَ يَحْفِـرُونَ، فَحَفَرُوا قَبْرَهَا، فَلَمَّا بَلَغُوا اللَّحْدَ حَفَرَهُ رَسُولُ اللَّـهِ ـ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ ـ بِيَدِهِ، وَأَخْرَجَ تُرَابَهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ ـ فَاضْطَجَعَ فِيهِ، فَقَالَ : "اللَّهُ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ حَـيٌّ لَـا يَمُـوتُ، اغْفِرْ لِـأُمِّي فَاطِمَـةَ بِنْـتِ أَسَـدٍ، وَلَقِّنْهَـا حُجَّتَهَـا، وَوَسِّـعْ عَلَيْهَـا مُـدْخَلَهَا بِحَـقِّ نَبِيِّـكَ وَالْأَنْبِيَـاءِ الَّـذِينَ مِـنْ قَبْلِـي؛ فَإِنَّـكَ أَرْحَـمُ الـرَّاحِمِينَ". وَكَبَّـرَ عَلَيْهَـا أَرْبَعًـا، وَأَدْخَلُوهَا اللَّحْدَ هُوَ، وَالْعَبَّاسُ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ـ رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْهُمْ ـ (٢).. وهي أقوى الروايات مع ضعفها جميعًا.

اضطجع ـ صلى الله عليه وسلم ـ في اللحد أي الحفرة التي لا تتسع إلا لواحد بالكاد، قبل دخول زوج عمه فيه، على مرأى ومسمع، والاضطجاع غير المضاجعة، ولو ضممنا حديث ابن عباس ـ على مافيه من جهالة ـ إلى الحديث السابق لعلمنا المقصد والغاية من فعل رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي قال :"أَلْبَسْتُهَا قَمِيصِي ؛ لِتَلْبَسَ مِنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ، وَاضْطَّجَعْتُ مَعَهَا فِي

قَبْرِهَا ،خُفِّفَ عَنْهَا مِنْ ضَغْطَةِ الْقَبْرِ؛ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ أَحْسَنِ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيَّ صَنِيعًا بَعْدَ أَبِي طَالِبٍ" (٣).

وبالجمع بين الروايتين يكون معنى "اضطجعت معها" يعني : معها في نفس المكان، وليس في نفس الوقت .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا مَاتَتْ فَاطِمَةُ أُمُّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ خَلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَمِيصَهُ وَأَلْبَسَهَا إِيَّاهُ ، وَاضْطَجَعَ فِي قَبْرِهَا، فَلَمَّا سُوِّيَ عَلَيْهَا التُّرَابُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَأَيْنَاكَ صَنَعْتَ شَيْئًا لَمْ تَصْنَعْهُ بِأَحَدٍ! فَقَالَ: " أَلْبَسْتُهَا قَمِيصِي؛ لِتَلْبَسَ مِنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ، وَاضْطَّجَعْتُ مَعَهَا فِي قَبْرِهَا؛ خُفِّفَ عَنْهَا مِنْ ضَغْطَةِ الْقَبْرِ؛ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ أَحْسَنِ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيَّ صَنِيعًا بَعْدَ أَبِي طَالِبٍ".

وأما ما قاله ابن شَبَّة عن عبد العزيز بن عمران ما حاصله: "أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم ينزل في قبر أحدٍ قط إلا خمسة قبور: ثلاث نسوة و رجلين، منها قبر خديجة بمكة، و أربع بالمدينة: قبر ابن خديجة كان في حجر النبي صلى الله عليه وسلم و تربيته، و قبر عبد الله المزني الذي يقال له :ذو البجادين، وقبر أم رومان أم عائشة بنت أبي بكر الصديق، وقبر فاطمة بنت أسد، أمّ عَليٍّ"(٤).

قال الذهبي رحمه الله تعالى : "وفي ذي الحجة ماتت أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية أم عائشة رضي الله عنهما في السنة السادسة من الهجرة، وأخرج البخاري من رواية مسروق عنها حديثًا وهو منقطع لأنه لم يدركها، أو قد أدركها فيكون تاريخ موتها هذا خطأ" (٥).

وهذا صحيح أن تاريخ موت أم رومان خطأ فهيّ لم تمت في العام السادس من الهجرة كما ذكر الواقدي، لأنها كانت حاضرة حين نزلت آية التخيير : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ

اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَالـدَّارَ الْآَخِرَةَ فَإِنَّ اللَّـهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِـنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٦)

وباتفـاق كـان تـاريخ نزولـها فـى سـنة تسـع (٧)، وهـذا مـا يؤكده ابن القيم (٨) عن موت أم رومان في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم: "أنه حديث لا يصح وفيه علتان تمنعان صحته، إحداهما أن زيد بن جدعان ضـعيف الحـديث، والثانيـة أنـه رواه القاسـم بـن محمـد عن النبي وهو لم يدرك زمن رسول الله صلى الله عليـه وسلم، وحديث البخاري إسناده كالشمس".

وعلى هذا نقول باطمئنان أن أم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاطمة بنت أسد هى المرأة الثانية بعد زوجه خديجة ـ رضى الله عنهما ـ التى نزل قبرها لا سواهما، وهذا إن دل فإنما يدل على فضيلة لم تفته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيمن أحسن إليه أن يحسن إليه بأعظم مما أحسن، إنه الوفاء أعظم قيمة يقابلها وسيقابلها من تفضل الله عليه بقراءة سيرته العطرة ـ صلى الله عليه وسلم ـ، تجدها في أعظمها حين تطالع وفاؤه لخديجة ـ رضى الله عنها ـ، وتجدها بعد هذا في مستويات متفاوتة عند غيرها، عندما يبذل المال، أو الحرية، أو العفو، وأعظمها عندما ينزل بجسده الشريف في قبريّ زوجه وأمّه خديجة وفاطمة ـ رضي الله عنهما ـ ومرد هذا أنهما أطول من عايش من النساء عمرًا وزمنًا فى بيت واحد، وهما أكثر من منحاه الحب والمودة والإيثار عن رضا ودون انتظار المكافأة والثواب.

(١)الطبراني (٢٠٣٢٦) وفيه انقطاع .
(٢)الطبراني (٢٠٣٢٤) وفيه ضعف.
(٣)الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ (٧١٢٨) وفيه جهالة.
(٤) نور الدين السمهودي : وفا الوفاء بأخبار المصطفى،(ج ٣ صـ ٢٧٥) .
(٥) محمد بن سعد بن منيع :الطبقات الكبرى (8/276) .
(٦) سورة الأحزاب : (الآيتان ٢٨ـ ٢٩).
(٧) ابن حجر : فتح الباري (ج ٧ ص ٤٣٨).
(٨) ابن القيم : زاد المعاد (ج٣ ص ٢٣٨) .

الفصل السادس

السيدة خديجة : سيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ

و سيدة المسلمين الأولى

مضت الأيام وقد جاوز النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سن الفتوة حتى أصبح في شرخ الشباب ولم تحدثه نفسه أو من حوله بخطبةٍ أو زواج، مع كونه جميل الخِلقة، قويم الأخلاق، محمود السيرة، رفيع النسب، وكان حَريًا لوتقدم لخطبة من يريد لما رُدّ طلبه، غير أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان لا يهتم بشئون البدن، فماله الذي يجنيه من سعيه في الرعي تارة وتارة من الشراكة في تجارة يكاد يقوم بأوده، عمه ذو عيال فمن أين له بالمال والوقت؟

أما السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزي بن قصي فالمتفق عليه في حياتها أنها كانت ذات نسب طاهر، وجمال باهر، ومال وافر، سيدة قرشية لبيبة، جليلة، حازمة رشيدة، ولدت ونبتت في بيت مجد وسؤدد من نسل طيب الأعراق، عاشت عمرها مخدومة لا خادمة؛ فالخدم يملأون دارها، ويقومون على رعايتها ورعاية أولادها من زيجتين سابقتين من سادات رجال قريش، أولاهما هند بن النباش بن زرارة وأنجبت منه ولدين هند وهالة ثم مات عنها، أما ثانيهما فهو عتيق بن عابد بن عبدالله وأنجبت منه بنتًا سمتها هند ثم مات عنها هو الآخر، فعاشت بعدهما لتربية أولادها، ورعاية مالها الذي زاد بميراثها عنهما فاستثمرته في التجارة كعادة أهل قريش فكانت تستأجر الرجال فتضاربهم عليه.

وامرأة هذا حالها هل فكر مرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتخذها زوجاً له؟ .. والإجابة بالنفى؛ لأنه يعلم أنها أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهنّ شرفًا، وأكثرهن مالاً، و يعلم أن كل قومها من أشراف مكة يتمنون ويطلبون الاقتران بها، حتى أنه لم تحدثه نفسه بالعمل فى تجارتها إلا حين عرض عليه عمه: "يا ابن أخي أنا رجلٌ لا مال لي وقد اشتد الزمان وألحَّت علينا سنون منكرة، وهذه عيرُ قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيرها فيتَّجرون لها في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتَها لأسْرعتْ إليك وفضَّلتك على غيرك لما يبلغها

عنك من طهارتك".. ولكن إذا أراد الله أمرًا هيأ لـه الأسباب؛ فقد وُلِدَ محمد يتيمًا، وعاش يتيمًا، ثم آتاه الله اليسر العامل، وكفاه العيش الكادح، رعى الغنم ودَبَّر التجارة، ثم بسط الله لـه تعالى الرزق، وأتاه الزوج الوفية الرضية، فأكمل الله بها انسانيته، وأكمل لها أمومتها، وتوافقا في قطع فيافي هذا الوجود، وكمّل كل منهما ماينقصه بما عند الآخر، هي امرأة شريفة، ذات ثراء، وهو رجل مكتمل عامل قوي أمين، فأغناها بأمانته وكفلها برجولته، ووجه مالها إلى الخير بحسن نيته وطيب طويته.. وقد كان يعمل لها في المال بأجر مضاعف، تطيب به نفسها، ويكسب مالها على يديه أضعاف ما ينتج غيره، وكان عبداً شكورًا، ولو استمر في هذه الطريق يعمل في مالها ومال غيرها،لأدَرَّ الله عليه أخلاف الرزق، ولو كان يبتغي المال وأعراض هذه الدنيا، لنال الشباب والمال معًا.. ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى أن يعمل في مالها بغير أجر، وأن يضاعفه بغير ثمن، وأن تكون أم ولده، لطيب عرفها وشرف نفسها، وقد تخير لنطفته فاختار أكمل امرأة في قريش أعلاها فى المكرمات كعبًا، وقد اختارها الله تعالى له لتكون له ردءًا في شدائده، تواسيه بالكلمة والعطف والحنان، في وقت قد اشتد فيه البلاء، وعَظُم الابتلاء، فأعنَتَه المخالفون، وكان عزيزًا عليه أن يُعنِتَهُمْ، فكان في حاجة إلى من يأوى إليه، كما هو في حاجة إلى من يذود عنه.. وإذا كانت امرأة نوح وامرأة لوط قد تخاذلتا عن معاونة النبيين الصالحين، فامرأة محمد أعلت شأن النساء قاطبة، فكانت الزوج الملهمة المواسية، الودود العطوف الولود، يلقى قريش وصدودها، وعداوتها وجفوتها، فاذا آوى إلى بيته وجد برداً وسلامًا .. وإذا كان قد فقد عطف الأم الرؤوم في صدر حياته في وقت الحاجة، فقد عوضه الله في خديجة زوجًا وأمًا ورفيقة الحياة(١).

فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يسع لا للعمل ولا للزواج من سيدة مكة خديجة، ولولا أنها هيّ التى تولت زمام المبادرة بطلبه للزواج ماتقدم ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطوة واحدة، وهذا الحوار القصير بينه وبين مبعوثة خديجة نَفِيسَة بنت مُنْيَة ليدل على هذا أشد الدلالة حين فاتحته قائلة: محمّد! ما يمنعك أن تزوَّج؟، فقال: ''مَا بيَدي ما أتزوَّجُ بِهِ''، قلت: فإن كُفِيتَ ذلك ودُعيتَ إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تُجيب؟، قال: ''فمَن هيّ؟''، قلت: خديجة، قال:''وكَيفَ لي بذلك؟''، قلت: عليَّ،

قال: ''فأنا أفعلُ''. وبالتالى فهو ليس نفعيًا ولا متسلقًا، ولا نهازًا للفرص - حاشاه - فلم يكن من أمره بعد زواجه منها ما يــدل علي إسرافه في مالها كما يفعل النفعيون الذين يتزوجون العجائز الثريات؛ فلم يعمد إلي البذخ في مظهره، بل كان متواضعًا عفيفًا، ولم يعمد إلي القصف مع أبناء المياسير إظهاراًالثرائه الطاريء(٢)، كما لم يتمتع بتلك الثروة، ولم يتلذذ بها، بل قضى حياته فقيرًا(٣)، ولو أن رجلاً تزوج خديجة - الجميلة الغنية - لأقبل علي الدنيا ولكان همه أن ينمي ثروتها ليربو حظه من الراحة المادية، ولغشيَّ مجالس مكة حيث تدور الكؤوس المُترعة الباعثة للنشوة في الرؤوس، وحيث تسمع أحلى الأحاديث وأجمل الدعابات، وأطلى الأقاصيص (٤)، يجوز هذا على أي أحد إلا محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه رغم فقره،عرف قدر نفسه.. وحفظ لها عزتها .. فلم تهن يومًا عليه .. ولم يهنها أحد .. حتى صار وهو ابن الأكرمين .. سليل سادات قريش ومجد الهاشميين المكين .. والمتصف بالصادق الأمين .. الزوج الأنسب للطاهرة القرشية، وسيدة نساء العالمين.

عاش مع خديجة - رضي الله عنها - قصة رائعة من الحب والوفاء والسعادة والامتنان، فسار بهما قارب الحياة في سعادة غامرة، وحزن عميق موجع؛ فليس هناك حزن في الدنيا يضارع حزن فقد الأولاد في حياة والديهم وقد ذاقاه عند موت طفلهما الأول القاسم وهو دون السنتين، ثم لاح لهما الأمل مجددًا مع ميلاد طفلهما الثاني عبدالله غير أن يد المنون لم تفلته فلحق بأخيه، وكان عزاؤهما فى زينب ثم رقية فأم كلثوم وخاتمة المطاف الزهراء فاطمة.

فكيف له - صلى الله عليه وسلم - أن يقترن بغيرها فى حياتها - رضى الله عنها - وهي القريبة منه بعد القلب فى النسب؛ إذ يجتمعان فى (قصي)، وشهد بيتها بزوغ نور الإسلام، وأول من آمنت بالرسالة من نساء العالمين، حتى صارسبق إيمانها ومن حولها من أهل البيت، الدليل الناصع والبرهان الصحيح على صدق ما جاء به - صلى الله عليه وسلم -، هل كان باستطاعة امرأةً سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذي تركه في أعماقه موت أمه بين يديه؟! .. هل كان لأنثى غيرها، أن تهييء له الجو المسعف على التأمل، وأن تبذل له من نفسها - فى إيثار نادر- ما أعده لتلقي رسالة

الله؟! .. هل كان لزوجة عداها أن تستقبل عودته التاريخية من غار حراء بمثل ما استقبلته هي به من حنان مستثار وعطف فياض وإيمان قوي، دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب، أو يتخلى عنها يقينها في أن الله غير مخزيه أبدًا؟! .. هل كان في طاقة سيدة غير خديجة، غنية مترفة مُنعّمة، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة، لتقف إلى جوار رجلها في أحلك أوقات المحنة، وتعينه على أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد، في سبيل ما تؤمن أنه الحق؟! ..كلا .. بل هي وحدها التي أعدتها الأقدار لتملأ حياة الرجل الموعود بالنبوة، وتكون لليتيم أمًا وللبطل ملهمة، وللمناضل ملاذًا وسكنًا، وللنبي المبعوث نبع ثقة وطمأنينة سلام(٥).

فصارت لها منزلة فوق منزلة نساء النبيين والعالمين كما جاء في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ''سيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ بَعْدَ مَرِيَمَ : فَاطِمَةُ، وَخَدِيْجَةُ، وَامْرَأَةُ فِرْعَوْنَ؛ آسِيَةُ''.

ولمّا كان بيتها بعد قلبها ـ رضيّ الله عنها ـ يحوط الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالهدوء والراحة والسكينة، من وقت ما زملته ودثرته عند نزوله من غارحراء، لحين مسحت عنه ما علق به من صخب ونصب ممن لاحقوه بالتكذيب والتهوين والتشويش بعد أن أنذر و بشر برسالة السماء، أفاء الله سبحانه وتعالى عليها ببيت أحسن منه تظلله السكينة والسلام، فعنْ أبِي زُرْعَةَ أنه سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُوْلُ: أَتَى جِبْرِيْلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "هَذِهِ خَدِيْجَةُ أَتَتْكَ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيْهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ، فَاقرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لاَ صَخَبَ فِيْهِ وَلاَ نَصَبَ. فردت رضى الله عنها السلام قائلة: الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام".

يقول شارح المواهب اللدنية : "هذا من وفور فقهها، حيث جعلت مكان رد السلام على الله تعالى الثناء عليه... لأن الله الخالق سبحانه لا يُرد عليه السلام كما يرد على المخلوق فالسلام يحمل معنى الدعاء بالسلامة، والأمان له، فكان معنى قولها رضى الله عنها : الله السلام فكيف أقول عليه السلام ومنه سبحانه يُستمد السلام، وإليه يعود السلام، وبه عزوجل يسود السلام؟"

أقبل العام العاشر من البعثة المباركة بأحزان لم يعشها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل؛ ففى خلال أيام قليلات رحل عنه عمه الذي أحبه وعاش فى كنفه، وزاد عنه، وأشفق وخاف عليه، ثم داهمه مرض خديجة أحب الناس إلى قلبه ثم فراقها عنه قبل الهجرة بثلاث سنين، ولها من العمر خمس وستون سنة، فدفنها بالحجُون وقد نزل ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قبرها، لترحل من الدنيا وترحل معها سنوات من العمر قضاها كأجمل أيام حياته، لم يفتأ يذكرها بعدها.

حتى بعد زواجه الثالث من السيدة عائشة ـ رضيّ الله عنها ـ التى عانت كثيرًا ، وصبرت كثيرًا من ذكره ـ صلى الله عليه وسلم ـ لزوجه الراحلة خديجة ـ رضيّ الله عنها ـ بل و أفعاله أيضًا التى تؤكد عن مدى حبه وتعلقه بأيام ذلك الزواج الأول، وذلك حين يقدم (هالة) ابن خديجة عَلَيه وَهُوَ رَاقِد فاسْتَيْقظ فضَمَّهُ إلَى صَدْره وَقالَ : "هَالَة هَالَة" بفرح وشوق وحنين. وحين جَاءتْ عَجُوزٌ إلَيه صلى الله عليه وسلم، فقالَ : "كَيْفَ أَنْتُمْ كَيْفَ حَالُكُمْ كَيْفَ كُنْتُمْ بَعْدَنَا؟"، قالَتْ: بخَيْرٍ بأبي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا خَرَجَتْ سألته عائشة : يَا رَسُولَ اللَّـهِ تُقْبلُ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوز هَذَا الإقبَالَ؟، فقالَ : "يَا عَائِشَةُ إنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَانَ خَدِيجَة وَإنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنْ الإيمَانِ". وما رأته منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِق خَدِيجَة، بل كَانَ إذا أُتِيَ بالشَّيْءِ يَقُول : "اِذْهَبُوا بِهِ إلَى فُلانَة فَإنَّهَا كَانَتْ صَدِيقَة لِخَدِيجَة". وذات مرة اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَة عَلَى رَسُولِ اللَّـهِ صلى الله عليه وسلم فعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَة فَارْتَاعَ (فَارْتَاحَ) لِذَلِكَ فقالَ "اللَّهُمَّ هَالَة" أيْ اِهْتَزَّ لِذَلِكَ سُرُورًا و هَشَّ لِمَجِيئِهَا، وَسر بهَا لِتَذَكُّرِهِ بهَا خَدِيجَة وَأَيَّامهَا وَقوْله: "اللَّهُمَّ هَالَة" أي اِجْعَلْهَا هَالَة.

غارت عائشة ـ رضي الله عنها ـ وغيرتها مشروعة فقد كانت البكر الوحيد التي تزوجها ـ صلى الله عليه وسلم ـ، صبيحة مليحة، صغيرة، تحيا مع زوج تحبه ويكبرها، ويذكر زوجة راحلة كانت أكبر منه وبالتبعية تكبرها بكثير فضاق صدرها حتى قالت : "مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِز قُرَيْشٍ حَمْرَاءِ الشِّدْقيْن هَلَكَتْ فِي الدَّهْر قدْ أَبْدَلَك اللَّهُ خَيْرًا

مِنْهَا (٦)"، وفي رواية قالت: "أَبْدَلَكَ اللَّه بِكَبِيرَةِ السِّنّ حَدِيثَة السِّنّ" (٧).فغضب صلى الله عليه وسلم غضبًا شديدًا، وقال :"مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلادَ النِّسَاءِ" (٨) .

فمن ذا الذى كان محمد يصانعه وهو يفي لخديجة كل ذلك الوفاء الجميل الذي يستحق أن يكون مضرب الأمثال لسائر الأزواج، رجالاً ونساء! .. أتراه كان يصانع التى ماتت ليغضب التى يعيش معها ويحبها؟ .. ما القول فى هذا الوفاء المعجز؟(٩).

لم تكن تعلم عائشة أنه وفاء نادر معجز من رجل نادر معجز لم تسمع بمثله فى عالم مكة ولا دنيا المدينة، ولا رأت مثيلاً له فيما حكته أشعار العرب وأقاصيصهم، لكنها حين خبرته وعرفته من هول غضبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقسمت في نفسها : "اللهم إن أذهبت غضب رسولك عني لم أعد أذكرها بسوء".. بل وصرحت بهذا تائبةً نادمة بين يديه: "وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لا أَذْكُرُهَا بَعْدَ هَذَا إلا بِخَيْرٍ"، ولم تعد تستغرب أي مواقف تصدر عنه إزاء خديجة أبدًا، إنه الوفاء.. تلك الفضيلة الهامة والراسخة والبارزة فى سيرته صلى الله عليه وسلم.

إنه الوفاء لخديجة .. ذلك الوفاء الذي كان لعائشة لقاء معه مرة أخرى، فيما نقلته عنها كتب السنة حين قالت: "لَمَّا بَعَثَ أَهْلُ مَكَّةَ فِي فِدَاءِ أَسْرَاهُمْ، بَعَثَتْ زَيْنَبُ ـ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فِي فِدَاءِ أَبِي الْعَاصِ ـ زوجها ـ بِمَالٍ، وَبَعَثَتْ فِيهِ بِقِلادَةٍ لَهَا كَانَتْ عِنْدَ خَدِيجَةَ أَدْخَلَتْهَا بِهَا عَلَى أَبِي الْعَاصِ ـ قَالَتْ : فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَقَّ لَهَا رِقَّةً شَدِيدَةً، وَقَالَ: "إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا"، فَقَالُوا: نَعَمْ (١٠).

يأتي يوم فتح مكة ليجمع بين الوفاء للناس والزمان والمكان، إنه ذلك الوفاء الكوني الذى اجتمع فى معلم الكون من الثقلين مكارم الأخلاق، فرغم فرحته بنعمة الله أن أتم عليه نصره وفتح له مكة ساعةً من نهار فدخلها

بتواضع المؤمنين الشاكرين، فجعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ موقع قيادته الذي يشرف منه على مكة هو "الحجون" بجانب "المعلاة" حيث ترقد الحبيبة، والزوجة التي أحسنت التجارة مع الله حين استسلمت لموعوده باختيارها، فجذبت بنفسها سفينة محمد سيد الخلق ـ صلى الله عليه وسلم ـ لترسو في مرفأ حياتها لتكون أول ركب المؤمنين العاملين المجاهدين معه حين يأذن ربه لها بإطلاق أشرعتها، لتحمل وتتحمل معه عبء تلاطم أمواج الشرك الهادرة في تحطيم تلك الدعوة المبحرة إلى حيث يشاء الله .. إنها خديجة أم أولاده وقسيمته في عذاب بدايات الدعوة والتي بذلت وأنفقت من صحتها وراحتها ومالها في سبيل هذا الدين ونبي هذا الدين، فقال صلى الله عليه وسلم : ''انصبوا لي خيمةً عند قبر خديجة'' فليس هناك أحق منها في أن تقاسمه أول ليلة من مُقامه بمكة، وهي الأحق بهذا النصر وأن يَهدي إليها النصر، وأن ترفرف راياته فوق جبينها الوضاء، فهي اليوم السيدة الأولى في استعراض جيش الفتح، فكما كانت المؤمن الأول بالله ورسوله الذي ذاق حلاوة بشائر الإسلام وعذاب إرهاصات ميلاده إلى ما قبل هجرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، يجب أن تكون اليوم هى الأولى والأوّلى من زوجاته لتشهد معه وتحتفل معه بهذا اليوم، ثم نزل ـ صلى الله عليه وسلم ـ وروحها ـ رضي الله عنها ـ تؤنسه ثم تصحبه من بعد الفتح وهو يطوف بالكعبة ويحطم الأصنام، ملتفتًا بين آونة وأخرى إلى بيتها العزيز، حيث رشف من نبع الحب والحنان ماتزود به لذاك الكفاح المضنى الطويل (١١).

لم تكن السيدة خديجة رضى الله عنها مجرد زوجة لنبي كما كانت زوجات الأنبياء قبلها، ولم تكن كذلك إمرأةً عادية مرت في حياة رجل وإلا ما ذكرتها صحف الإخباريين والمؤرخين كل هذا الذكر .. بل كانت الركن الركين في حياته قبل النبوة، وحجر الأساس الذي بُنِّىَ فوقه بنيان هذا الدين العظيم ، فهي التى رزقه الله حبها، وهي التى واسته بمالها، وهي التى آمنت قبل نبوته بنبوته فيما أسميه مجازًا بـ (الإيمان الاستباقى) حين قالت له قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم : بِأَبِي وَأُمِّي ، وَاَللَّه مَا أَفْعَل هَذَا لِشَيْءٍ، وَلَكِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُون أَنْتَ النَّبِيّ الَّذِي سَيُبْعَثُ فَإِنْ تَكُنْ هُوَ فَاعْرِفْ حَقِّي وَمَنْزِلَتِي وَادْعُ الإِلَه الَّذِي يَبْعَثك لِي ، فَقَالَ لَهَا :''وَاَللَّه لَئِنْ كُنْت أنا هُوَ قَدْ اِصْطَنَعْت

عِنْدِي مَا لا أُضَيِّعُهُ أبَدًا، وَإنْ يَكُنْ غَيْرِي فَإنَّ الإلَـه الَّذِي تَصْنَعِينَ هَذَا لأَجْلِـهِ لا يُضَيِّعُك أبَدًا"(١٢).

وكل ما علمناه من سيرة خديجة ـ رضى الله عنها ـ خليقٌ على قِلّتهِ أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش، ولكن هذا القليل الذى علمناه لو ذهب كله ولم يبق منه إلا أيام حضانتها لبشائر النبوة في طلعتها لضمن لها أن تتبوأ مقام السيادة بين نساء العالمين .. وقد بقيَ محمد يذكر لها تلك الأيام إلى مختتم أيامه، وظل يتفقدها ويتفقد مواطن ذكراها أعوامًا بعد أعوام، فقد كان منها الشغل الشاغل عن أطيب الأيام وأصعب الأيام، وأن وفاءً كهذا لهو وحده كفاية المستقصي في التعريف بحقها من زوجةٍ بارة وأم رؤوم، فما من شهادة لإنسانة هى أصدق من دوام الوفاء لها فى قلب إنسان عظيم (١٣).

لقد أدركت ـ رضى الله عنها ـ بشواهد كثيرة من أحاديث دارت فى أجواء وأسمار مكة على مرآى ومسمع منها عن قرب ابتعاث نبى آخر الزمان (يا نساء مكة إنه سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمد، فمن استطاعت منكن أن تكون زوجًا له فلتفعل)، (يوشك أن يبعث فيكن نبي، فأيتكن استطاعت أن تكون له أرضًا يطؤها فلتفعل).. بل أن مشاهدات غلامها ميسرة وحديثه مع الراهب نسطورًا لم تذهب أدراج الرياح بل وقرت فى قلبها وعقلها زمنًا طويلاً، فصاحبته فى السنوات الأولى لصعوده غار حراء أحيانًا، كما لم تتركه يقاسي وحده حصار قريش له مع بني هاشم وبني عبد المطلب في شعاب مكة أثناء المقاطعة ثلاث سنين بل شاركته ـ رضي الله عنها ـ على الرغم من تقدم سنها فأنفقت خلالها من مالها حتى نفد ، فما تضررت ولا تأففت، حتى جادت بنفسها فى سبيل الله مرضياً عنها من الله ورسوله، ومرضياً عنها منا نحن أولادها المؤمنين .. نذكرها كلما ذكرنا رسولنا المبعوث رحمةً للعالمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ نتأسى بها في وفائها، وجهادها، ومواساتها بمالها وصحتها ووقتها، وتضحياتها في سبيل ما آمنت به بكل غالٍ ونفيس، وجسارتها وهى الثرية الشريفة أن تجابه المجتمع الجاهلي من حولها في سبيل ما اعتقدت، لتضرب أعظم الأمثلة للأمة كلها بل للعالمين في وقتها وغير وقتها مهما امتدت السنين ليتأسى

بها من كان من المؤمنين، وليوقرها من كان على غير الدين، فاستحقت بحق أن تكون أم المؤمنين وسيدة نساء العالمين إلى يوم الدين.

(١) الإمام محمد أبو زهرة ، خاتم النبين صلى الله عليه وسلم ص ١٩٩.
(٢) نظمي لوقا ، محمد في حياته الخاصة ص ١٥ .
(٣) كليمان هوار ، تاريخ العرب جـ ١.
(٤) فتحي رضوان ، محمد الرسول الأعظم ص ١٠٨ـ١٠٩ .
(٥) دكتورة عائشة عبد الرحمن ، نساء النبى ص ٤٩ .
(٦) رواه مسلم ٤٤٦٧ .
(٧) أحمد ٢٣٧١٩، وأصله في مسلم وهو الحديث الذي قبله.
(٨) أحمد ٢٣٧١٩، وأصله في مسلم وهو الحديث الذي قبله .
(٩) دكتور نظمى لوقا ، محمد فى حياته الخاصة ص ٦٢ .
(١٠) أبو داود ٢٣١٧ ، أحمد ٢٥١٥٨.
(١١) دكتورة عائشة عبد الرحمن ، نساء النبى صـ ٤٦ .
(١٢) ابن حجر ، فتح الباري ١٦٧/٧
(١٣) عباس العقاد، فاطمة الزهراء والفاطميون ص ٣٠٠.

الفصل السابع

زهرة الرسول .. الزهراء البتول

في بيت شهد موت الذكور من الأولاد في سن مبكرة، مما خلّف في حنايا القلب حزن دفين، لم يبدده إلا صراخ طفل جديد وإن يكن أنثى فالزوجان لا يأبهان لهذا فيسميانها زينب، ثم تتابع الفرحة بالمواليد فتأتي الثانية رقية وبعد عام تدركها أم كلثوم، حتى أصبح محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ حديث نوادي قريش لكونه لا ينجب إلا البنات فقط، وكأن هذا من صنيعه!

شبت البنات متحاباتٍ تحفهن رعاية أم رؤوم، وأب حنون، ممتلئات بالنعمة ورغد العيش، جمعنَّ إلى جانب الثراء الظاهر، مجد النسب، وشرف المكانة بالانتساب لعائلتي والديهما.

أتت مسك الختام في رحلة الإنجاب فاطمة التي أطلت على دنيا الأب وقد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره على التقريب، وأدرك الأم عامها الخمسين أو أقل، وقد ارتبط ميلادها بحادث مشهود محفور في ذاكرة المكيين حين غطى سماء مكة سحابة كبيرة من النزاع بين أشرافها دام حوالي الأربع ليال عندما كانوا يجددون للكعبة بنائها في من يحمل الحجر الأسود إلى مكانه منها، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي وكان من عقلائهم عرض عليهم أن يحكِّموا بينهم أول داخلٍ عليهم من باب المسجد فقبلوا، وشاء الله أن يكون القادم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فلما رأوه هتفوا: "هذا الأمين، رضيناه، هذا محمد". فلما انتهى إليهم، وأخبروه بخلافهم طلب رداءً فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا ما أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده الشريفة ــ صلى الله عليه وسلم ــ فوضعه في مكانه، فانقلب الخلاف فرحًا وسعادة غمرت مكة كلها، حتى خَلّدَ المناسبة شعرًا أبا وهب المخزومي بقصيدةٍ جاء فى آخرها :

ففاجأنا هذا الأمينُ محمدٌ فقلنا رضينا بالأمين محمدٍ

وكأنما شاء الله أن يكون لمولد هذه الطفلة الجميلة، الشبيهة بأبيها، ارتباط بحدث مثلما ارتبط ميلاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحدث عام الفيل، ربما كان في هذا دلالة على عمر طويل قادم سيرتبطان خلاله ببعضهما أكثر، ستكون له فيه رغم صغر سنها كالأم في حنوها حتى كان يكنيها بأم أبيها، لما كان من تذكيرها له بحنان فاطمة الكبرى أمه القرشية الهاشمية فاطمة بنت أسد التى سماها باسمها من شدة حبه لها ـ رضى الله عنهما ـ، ودلالة تحمل معنى من خصلةٍ أصيلة فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنوانها الوفاء.

ملأت الطفلة فاطمة أرجاء الدار فرحًا وسرورًا فلم تكد تتركها زينب لأحد لشدة تعلقها بها، غير أنها تزوجت بأبي العاص بن الربيع ابن خالتها هالة وهو من المعدودين من رجال مكة مالاً وأمانة وتجارة، فاتصل حبل الرعاية والاهتمام بها من رقية وأم كلثوم وهما اللتان نشأتا متحابتين متلازمتين وجمعت بينهما في الحياة والممات أحداثًا عجيبة؛ إذ تزوجا معًا من شابين من أبناء الأعمام وهما (عُتبة وعُتيبة) ولدا أبي لهب عم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعادا معًا قبل الدخول بهما إلى بيت أبيهما بعد أن أنذر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عشيرته الأقربين بالنور المبين، فآثر أبا لهب وزوجه حمالة الحطب أن يعلنا العداوة والحرب على البيت النبوي بلا هوادة.

تزوجت رقية من عثمان بن عفان وتركت قريش إلى الحبشة مهاجرة برفقة زوجها فرارًا بدينهما من أذى مشركي مكة ، لتتقاسم أم كلثوم وفاطمة سنوات من العذاب مع والديهما؛ فيشهدا معًا وفاة أمهما خديجة بعد خروجها بعدة أشهر منهوكة القوى من

حصار قريش الظالم في شعب أبي طالب، ولا تعلم رقية بنبأ الوفاة إلا بعد عودتها من الحبشة فيلفها حزن مقيم.

طوت يد الله صفحة مكة قليلاً ليبدأ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسيرته الجديدة في نشر الرسالة من المدينة التي هاجر إليها سرًا مع أبي بكر ليلحق بأصحابه الذين سبقوه امتثالاً لأمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك بعدما أنبأه الله بتدبير قريش له فى دار الندوة للتخلص منه، ومن المدينة أرسل ـ صلى الله عليه وسلم ـ من يحضر له بنتيه أم كلثوم وفاطمة، فزارتا قبر أمهما بالحجون مودعتين، تاركين أختهما زينب مع زوجها وأولادهما بمكة، غير أن هجرتهما لم تمر بسلام فما كادتا تودعان مكة حتى طاردهما اللئام من مشركي قريش فنخس أحد سفهاء مكة ـ الحويرث بن نقيذ ـ بعيرهما فرمى بهما إلى الأرض، فتأذت لذلك فاطمة الضعيفة النحيلة الجسم من أثر الحصار والجوع، والحزن على الأم التي فارقتها، ثم القلق على الأب المهاجر.

غضب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ممن آذى ابنتيه فهدد بقتله وجاريتيه فرتنى وصاحبتها؛ فقد كانتا تتغنيان بهجائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة.

تمضي الأيام في المدينة بين شوق للأهل بأم القرى، وصعوبة التأقلم بأجواء الوطن الجديد، بينما الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في شغل بتأسيس دولة الإسلام، وخروجه لغزوة بدر الكبرى يفجعه نبأ موت ابنته رقية ذات العشرين ربيعًا في السنة

الثانية من الهجرة فيدفنها ملتاعًا صابرًا، وفي ربيع الأول من العام الثالث الهجري يزوّج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابنته البكر أم كلثوم لعثمان بن عفان المكلوم لفراق زوجه، وكان هذا الزواج بالأمر الإلهي وبنفس صداق رقية.

لقد دفعت بنات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثمنًا باهظًا في سبيل الدعوة إلى دين الله الحق، وأول من دفعتا الثمن رقية وأم كلثوم بطلاقهما، ثم دفعته رقية وحدها بعد زواجها من عثمان بن عفان سفرًا، وبُعدًا، وغربةً؛ فقد سكنت بلادًا لا تعلم عنها شيئًا، ولا تعرف فيها أحدًا إلا القلة المؤمنة التي هاجرت معهم، لتُحْرَم من حنان الأم ومودتها، وعطف الأب وزياراته، والأنس بأخواتها القريبات من سنها وقلبها، لتعيش العمر في هجرة متصلة من مكة إلى الحبشة مرتين، ثم القرار بالمدينة في هجرتها الأخيرة، كما تدفع أم كلثوم ثمنًا مكلفًا من شبابها الغض الذي مر بدون زواج، وبلا بيت يضم الرجل والذرية الصالحة، وحتى زينب الكبرى ولئن تزوجت في حياة والدتها من أبي العاص بن الربيع ابن خالتها إلا أنها دفعت الثمن بشكل مختلف، وذلك حين عاشت في بيتها مع رجلٍ تحبه ويحبها بينما قلبها منقسم بين تعاطفها مع أسرتها المؤمنة وإيمانها بدينٍ يرفضه زوجها لرفض قومه له، وعليها أن تحترم اختياره، لأن زوجها ـ في المقابل ـ احترم اختيارها، ودفعت الثمن ثانيةً قلقًا حين أسر جيش أبيها زوجها مرتين، كما دفعته عذابًا طويلاً من السنين حين كُتِبَ عليها مفارقة بيتها وزوجها الحبيب لأنه على دين الشرك الذي تمسك به مخافة أن يقال تَبّعَ دين زوجته، لتدفع زينب الثمن الأكبر فى النهاية حين خرجت من مكة إلى المدينة

لتلحق بأبيها، فأدركها هبّار بن الأسود، فلم يزل يطعن بعيرها برمحه حتى صرعها وألقت ما في بطنها وكانت فى شهرها الرابع، وتعيش في مهجرها مريضة من أثر دفعة بن الأسود لتموت - رضي الله عنها- في أوّل سنة ثمان للهجرة، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول :"هي خير بناتي أصيبت فيّ".

وبقيت أصغر بناته الزهراء معه - صلى الله عليه وسلم – فكانت أطول أخوتها صحبة لأبيها، إذ لم تفارقه منذ ولادتها وحتى مماته، وهى صحبة طويلة وجميلة لا تخلو من الألم والعنت، فقد تحملت هيّ الأخرى ودفعت من سنوات عمرها وشبابها وصحتها ثمنًا باهظًا؛ فقد كانت بحق سيدة الصابرين التى تجرعت كووس الآحزان مترعات كأسًا كأسًا؛ فقد مات أخويها القاسم وعبد الله ثم ماتت أمها ثم تتابعت الأحزان بوفاة أختيها: رقية يوم بدر في العام الثامن من الهجرة وأم كلثوم فى العام التاسع من الهجرة، وآخر من شيعت إبراهيم أصغرأخوتها من السيدة مارية.

كانت الشاهدة على ماتحمله أحب الناس إلى قلبها من أذى المشركين فى سبيل نشر الدعوة منذ طفولتها، حين كانت تصحبه إلى الحرم وترقبه وهو ساجد لله تعالى، وفي إحدى المرات رأت أناس من مشركي قريش يحيطون به وهو خاشع في سجدة طويلة وجاء عقبة بن أبي معيط بسلى جزور وقذفه على ظهره - صلى الله عليه و سلم - فلم يرفع رسول الله حتى تقدمت هيّ بحنو وحب وبراءة فأزاحت السلى ودعت على من صنع ذلك بأبيها وعندئذ رفع المصطفى - صلى الله عليه و سلم - رأسه قائلاً :"اللهم عليك الملأ من قريش اللهم عليك أبا جهل بن هاشم وعتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة وعقبة بن أبي معيط وأبي بن خلف".. فخشع المشركون لدعائه وغضوا أبصارهم حتى انتهى من صلاته وانصرف إلى بيته وفاطمة معه.

كأن صوته - صلى الله عليه وسلم - أنغام السماء يحلو لفاطمة أن تسمعها خاصة حين يذكر اسمها على الملأ، فتحس كأنها طائر عبقري غطى

بجناحيه جبال مكة وآكامها ووديانها، وقر في قلبها الطفولى أن هذا النداء سيكتب له الخلود، ولن تستأثر به جنبات تلك القرية مكة وحدها بل أن بطون الكتب ستحويه، وألسنة الخلق بكافة الألسن والجنسيات ستلتذ بنطقه، لقد سمعته لما خرج صلى الله عليه و سلم يومًا إلى قريش وقد نزل قوله تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١)، فجعل ينادي : "يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا"، ثم اختص فاطمة من أولاده فخاطبها :"ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا" (٢).

كما تحب أن تسمع صوته الحبيب ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى وهو يهدر غاضبًا مادام سيذكر اسمها، وتذكر ذلك حين أتاه حِبَهُ وحبيبه وابن حبيبه أسامة بن زيد مستشفعًا للمرأة المخزومية السارقة لكيلا يقيم عليها حد السرقة، فغضب ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أسامة ثم جمع الناس، فخطب فيهم : "ياأيها الناس إنما أهلك من كان قبلكم انهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمدٍ يدها "(٣).

مثلما صاحبته ـ صلى الله عليه و سلم ـ رحلة الحياة في السلم، عز عليها أن تتركه في الحرب فصحبته في غزوة أحد لتداوي الجرحى مع نساء المسلمين، لتراه حين تكاثر المشركون حوله وقد انكسرت رباعيته وسال الدم على وجهه الشريف، فجرت عليه واعتنقته ثم بلهفة وحنو تمسح الدم الذي غطى وجهه الشريف، فلما يئست من توقفه حرقت حصيرًا لتمنعه به الدم فامتنع.

في زحمة الحياة، ورفقة الأب ورعايته، نسيت فاطمة العمر الذي شارف على الثمانية عشر ربيعًا، وبعد مرور خمسة أشهر من مقدمها الشريف للمدينة يزوّجها أبيها أحب الناس إلى قلبه فتى الفتيان "علي" .. وهل يليق بسليلة البيت النبوي إلا أن تفوز بفتى نبوي تربى في ذات البيت، فشربا معًا

من نهره المغداق في كنف محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحنو الطاهرة الراحلة خديجة بنت خويلد ـ رضيً الله عنها ـ ليكون كل مهرها درع علي الحطمية الثقيلة العريضة التي كان يحارب بها ، وهيّ في الأصل هدية من والد العروس الذي باعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأربعة وثمانين درهمًا، أخذها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأعطاها بلال، وقال: ''اجعلوا ثلثيها في الطيب، وثلث في المتاع''، كم تساوى تلكم الدريهمات اليسيرة أمام هذا النسب الشريف، كم تساوى فلذة كبد رسولنا وسيدة نساء العالمين، وعصارة التربية العالية في أطهر بيت على وجه البسيطة؟!

انتقلت فاطمة من بيت النبوة إلى بيت علي الذي أسكَنها بيت أمه، وكانت دارها بعيدة عن بيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي لم يتحمل بعدها عنه وهو الذي كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينهض إذا دخلت عليه ويقوم بتقبيل رأسها ويدها، ويجلسها في مجلسه، كما كانت ـ رضى الله عنها ـ إذا دخل عليها ـ صلى الله عليه وسلم ـ قامت إليه وأخذت بيده وقبلته وأجلسته في مجلسها، كما كانت عادته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلما قدم من سفر أن يبدأ بالمسجد، فيصلى ركعتين، ثم يذهب لفاطمة، ثم يأتي بيوت أزواجه، بل لا ينام حتى يُقبِّل عُرْض وجهها، وبين عَينيها.. لكل هذه الحميمية بين الأب وابنته الوحيدة الباقية جاءها النبيُّ - صلى الله عليه وسلم –، قال: ''إني أريد أن أحوِّلك إليَّ''، فقالت لرسول الله: "فكلِّم حارثة بن النعمان أن يتحوَّل - ينتقل من منزله - وأكون إلى جوارك"، وكان حارثة كلما تزوَّج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحوَّل له حارثة عن منزل بعد منزلٍ، حتى صارت منازل حارثة كلها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لها: ''يا بُنيَّة، قد تحوَّل حارثة عنا حتى استَحْيَيتُ مما يتحوَّل لنا عن منازله''، فبلغ ذلك حارثة، فتحوَّل وجاء إلى النبي، فقال: يا رسول الله، إنه بلَغني أنك تريد أن تُحوِّل فاطمة إليك، وهذه منازلي، وهي أسقبُ [أقرب] بيوت بني النجار بك، وإنما أنا ومالي لله

ولرسوله، والله يا رسول، لَلّذي تأخذه مني أحبُّ إليَّ من الذي تدَع، فقال له الرسول: ''صدَقت، بارَك الله عليك''، فحوَّلها رسول الله إلى بيت حارثة.

شاءت إرادة الله تعالى أن يمد في عمر فاطمة الشبيهة بأبيها الحبيبة إلى فؤاده، حتى كان منها - رضيّ الله عنها دون إخوتها - النسل المتصل برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهيّ من أعظم المناسبات التى أدخلت فيها الزهراء الفرحة على أبيها حين كان ينادي الحسن والحسين: يابَنى، وكانا يدعوانه : يا أبت.

وعلى قدر المزية التي حظيت بها من طول الصحبة بالوالد العظيم صاحب الخلق العظيم، على قدر الألم الذي أنهكها وأجهدها وروعها - وحدها - دون كل أخوتها؛ إذ خصها الله بأن مد في عمرها لتشهد رحيل أعز وأعظم الناس قاطبةً الأب الحاني والبقية الباقية لها بعد موت الأم والأخوة والأخوات.. فزهدت في الابتسام ولقاء الناس بعده إذ ليس بعده عندها إلا أن يحين دورها في الرحيل لتلحق به - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي بشرها بهذا حين أسرَّ إليها - رضي الله عنها - بخبر انتقاله إلى الرفيق الأعلى صراحةً ومشافهةً دون غيرها، ثم أسرَّ إليها ثانية بعد حُزنها على سماع خبر فِراقه، بأنها ستكون أول أهله لحوقا به، فَسُرَّتْ بذلك؛ حيث قالت: فلمَّا رأى جزَعي، سارَّني الثانية، فقال: ''يا فاطمة، أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟''(٤)، وفي رواية: "فأخبَرني أني أوَّل مَن يتبعه من أهله، فضحِكت"(٥).

أحست - رضى الله عنها - ببوادر الرحيل تزحف على دارها، وما تبقى لها سوى أن ترتب حياة أولادها من بعدها، وكذلك حياة حبيب العمر، وابن العم حيث رأت أن توصيه، فقالت: "يا ابن عم، إنه قد نُعيتُ إلي نفسي، وإنني لا أرى حالي إلا لاحقة بأبي ساعة بعد ساعة، وأنا أوصيك بأشياء في قلبي"،

فقال علي: "أوصيني بما أحببت يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم" ،فجلس عند رأسها وأخرج من كان في البيت. فقالت رضي الله عنها :"يا ابن العم ما عهدتني كاذبة ولا خائفة، ولا خالفتك منذ عاشرتني"، فقال رضي الله عنه : "معاذ الله ! أنت أعلم بالله تعالى ، وأبر وأتقى وأكرم وأشد خوفاً من الله تعالى، وقد عز علي مفارقتك وفقدك إلا أنه أمر لابد منه، والله لقد جددت علي مصيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجل فقدك، فإنا لله وإنا إليه راجعون"... ثم أوصته رضى الله عنها بثلاث :

ـ <u>أولا</u>: أن يتزوج بأمامة بنت العاص بن الربيع، وبنت أختها زينب رضي الله عنها. وفي اختيارها لأمامة ـ رضي الله عنها ـ قالت :(أنها تكون لولدي مثلي في حنوتي ورؤومتي. وأمامة هي التي روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحملها في الصلاة).

ـ <u>ثانيا</u>: أن يتخذ لها نعشا وصفته له ، وكانت التي أشارت عليها بهذا النعش أسماء بنت عميس رضي الله عنها، وذلك لشدة حياءها ـ رضي الله عنها ـ فقد استقبحتْ أن تحمل على الآلة الخشبية ويطرح عيها الثوب فيصفها، ووصفه أن يأتي بسرير ثم بجرائد تشد على قوائمه، ثم يغطى بثوب ...

ـ <u>ثالثا</u>: أن تدفن ليلاً بالبقيع.

ولقد روى الإمام الذهبي قصة وفاتها في السيرعن أم جعفر : "أن فاطمة قالت لأسماء بنت عميس : إني أستقبح ما يُصنع بالنساء، يُطرح على المرأة الثوب فيصفها. قالت: يا ابنة رسول الله، ألا أريك شيئًا رأيته بالحبشة؟ فدعت بجرائد رطبة فحنَتْها، ثم طرحت عليها ثوبًا، فقالت فاطمة : ما أحسن هذا وأجمله، إذا مت فغسليني أنت وعليّ، ولا يدخلن أحد عليً... فكانت ـ رضى الله عنها ـ هي أول من غُطى نعشها في الإسلام على تلك الصفة كما قال ابن عبد البر... وأما أمرها أن لا يصلي عليها أبوبكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ولا أن يتوليا دفنها، فهذا محض كذب وافتراء.

إنها فاطمة .. الزهراء.. سيدة نساء العالمين في زمانها، والبضعة النبوية، والجهة المصطفوية، بنت سيد الخلق رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم ـ أبي القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشية الهاشمية أم الحسنين رضي الله عنها وعنهما.

بعد وفاة أبيها بستة أشهر في ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة،لحقت به فدُفنَت ـ رضى الله عنها ـ ليلاً كما أوصت بعد أن صلى عليها علي بن أبي طالب ونزل في قبرها والعباس والفضل بن العباس رضى الله عنهم أجمعين .

(١) (سورة الشعراء:٢١٤).
(٢)رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).
(٣)صحيح مسلم، (١٦٨٨).
(٤)البخاري برقم (٤٤٣٣، ٤٤٣٤)، ومسلم برقم (٢٤٥٠)، واللفظ لمسلم.
(٥)البخاري برقم (٤٤٣٣، ٤٤٣٤)، ومسلم (٢٤٥٠).

الفصل الثامن

سودة بنت زمعـة
ثانى الأمـهات وأول المـهاجرات

لـم تكـن تعلـم ولا جـال بخاطرهـا يومًـا أن تكـون زوجًـا للرسـول ـ صـلـى الله عليه وسلم ـ فقد كانـت فـي هـذه الأثنـاء متزوجـة مـن الصـحابي السكران بـن عمرو الذي روت لـه رؤياها الأولـى التـي فيهـا كـأن النبـي ـ صـلى الله عليـه وسلم ـ قد أقبل ماشيًا حتـى وطـيء عنقهـا، فقـال زوجهـا لهـا: "وَأَبِيكَ لَئِنْ صَدَقَتْ رُؤْيَاكِ لأَمُوتَنَّ وَلَيَتَزَوَّجَنَّكِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ : حِجْرًا وَسِتْرًا". وهذا قول منهـا فيـه مـن المـوالاة لزوجهـا فـي حضـوره، ففـي الأمر رجولـة وليس دين، فموالاتهـا للرسـول ظاهرهـا وباطنهـا مـن حيث هـو رسول لا مـراء فيهـا، أمـا داخـل البيـت فـالحرة لا تتمنـى إلا زوجهـا، ولـم تكـد تـأتي ليلـةً أخـرى حتـى رأت ثانيـةً أَنَّ قَمَـرًا انْقَضَّ عَلَيْهَـا مِـنَ السَّـمَاءِ وَهِـيَ مُضْطَجِعَةٌ، فَأَخْبَرَتْ بنقائها زَوْجَهَا، فَقَالَ لها: "وَأَبِيكِ لَئِنْ صَدَقَتْ رُؤْيَـاكِ لَـمْ أَلْبَثْ إلا يَسِيرًا حَتَّى أَمُوتَ وَتَتَزَوَّجِينَ مِنْ بَعْدِي" .

إنـهـا الصحابية الجليلـة، والسيدة النبيلـة سـودة بنـت زمعـة، ذات المكانـة المرموقة فـي مجتمـع نسـاء قـريش، فهـيّ عامريـة قرشـية مـن قبيلـة النبـي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، تزوجت ابن عمها السكران بن عمرو(١)، فأسلما ثـم هاجرا معًا فى الهجرة الثانية إلى الحبشة، وأقاما فيها دهرًا من الـزمن هربًـا من أذى المشركين وامتثالاً للأمر الصادر من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ثم عادا مـع مـن عـاد مـن المهـاجرين إلـى أرض الـوطن مكـة بعد أن أنجبـا ستة صبية، ولم يلبث أن يموت زوجهـا الصـحابى المهـاجر بعـد وقـت قصـير من داءٍ ألم به، لتحيا بعده أرملة وحيدة ذات عيال في بلد مازالـت تعـج بـأذى طواغيت الكفر، واضطهاد أهل الإيمان، فتصبر محتسبة لله تعالى ما ألم بها، معتصمةً به ـ سبحانه ـ و بإيمانهـا بـه مـن فتنـة قريبـة تحيط بهـا مـن والـدها القابض على كفره بقوة، وأخوها عبد اللَّه بن زمعـة البـاقي علـى ديـن آبائـه، ومن شدة حاجتها لمن يعينها على أمرها ومطالب أولادها.

سـكن الحـزن البيـت النبـوي بعـد فـراق الـزوج الحنـون، والأم الـرؤوم، خديجـة ـ رضـى الله عنهـا ـ ليجتمـع علـى الرسـول ـ صـلى الله عليـه وسـلم ـ عبءٌ فوق عبء، فأمـا عبء الـدعوة فكـان قـد أفـرغ لـه وقتـه وجهـده لأنـه كانـت هنـاك مـن تخفـف عنـه مـا يقاسـي فـى سـبيل ذلـك، وكانـت تتحمـل عنـه

عبء الأسرة من بيت وتسيير تجاراتها لتفرغه لما هو فيه، أما الآن فقد كان عليه أن يقوم بشئون بيته الذى ضم بنتيه أم كلثوم وفاطمة، ومهام الدعوة التي تلتهم أعظم جهده ووقته.

والوقائع تشهد بأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما جال بخاطره أمر الزواج أبدًا فلا عرضه على أحد، ولا عرضه عليه أحد، بل كان الصحابة ـ رضيّ الله عنهم ـ يطالعون حاله، ويعلمون كم يقاسي، ويتمنون لو افتدوه بأرواحهم لو كان في هذا ما يخفف عنه ما هو فيه، غير أنهم يعلمون أيضًا أن خديجة كانت لها المكانة العظمى في قلبه وحياته كما هيّ في قلوبهم، فمن ذا الذي سيغامر إذن ويقترح بل ويطرح الحلول على رجلٍ في غمرة أحزانه، لم يبحر قاربه بعيدًا عن شاطيء ذكرياته مع امرأةٍ عاشها وعايشته قرابة الربع قرن؟!.. كما أنها ليست كأي امرأة؛ إذ ليس هناك في قريش كلها من يماثلها من النساء.. فمن يختارون؟!

تطوعت لهذه المهمة الصحابية الجليلة خولة بنت حكيم زوج الصحابي الجليل عثمان بن مظعون التي استجمعت شجاعتها في وضع نهاية لهذا الموقف العسير، فاستأذنت في الدخول عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت: يا رسول الله كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة، فقال: ''أجل، كانت أم العيال وربة البيت''. كان هذا مدخلاً استهلاليًا يأتي كمقدمة للخوض في صلب الموضوع الأهم، وهذا الاستهلال لا تفلح فيه غير النساء، ولهذا فقد أتت بمفاجأتها من باب طرق الحديد وهو ساخن حين قالت: أفلا أخطب عليك؟ وفى رواية : ألا تزوَّج؟ ؟ قال: ''بلى، فإنكن معشر النساء أرفق بذلك''. فخطبت عليه سودة بنت زمعة.

تذكرنا عبارة خولة :"ألا تزوَّج؟" بعبارة مبعوثة خديجة نَفِيسَة بنت مُنْيَة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو في مطالع الشباب: "ما يمنعك أن تزوَّج؟"، نفس الدلالة واحدة: أن الرسول في شبابه وفي شيخوخته لم يكن له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك النهم الجنسي الذي يلصقه به أصحاب العقول المريضة، والأقلام المغرضة، ولا ننكر عليه الميل الغريزي شأنه في هذا شأن الرجال،

وشأن البشر، غير أنه في شبابه امتنع أولاً، بينما هنا وافق سريعًا لاختلاف الموقفين؛ إذ كان في الأول شاب لا عائلة حوله، ولا دعوة مكلف بتبليغها، بينما في موقفه الأخير عنده عائلة رحلت الأم وخلفت وراءها بنتين تحتاجان الرعاية، ودعوة إلى الله في مرحلة التأسيس وتحتاج التفرغ الأكبر في بث قيمها ومفاهيمها في قلوب كالجلاميد، وفتن ودسائس حوله تحاك له ولمن تبعه تتطلب منه التيقظ والحيطة والحذر.. فكان الزواج هو الحل المثالي لما هو فيه، فوافق عليه.

لا نكاد نذكر سودة حتى نذكر في التو عائشة ـ رضى الله عنهما ـ؛ فقد عرضتها خولة علي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخطبها وأجّل الدخول عليها لعدة سنوات ريثما تكبر، بيد أن خولة ما أن سمعت الموافقة من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى خرجت مسرعةً لتبشر بها صديقتها سودة قائلةً : ماذا أدخل الله عز وجل عليك من الخير والبركة؟ قالت: ما ذاك؟، قالت: أرسلني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخطبك عليه، قالت: وددتُ ذلك.

تزوجت سودة برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسواءٍ أكان أبوها هو الذي زوّجها أو الذي زوّجها ابن عمها الصحابي حاطب بن عمرو الذي كان من أوائل المهاجرين إلى الحبشة، وذلك بناءً على طلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين جاء يخطبها، فقالت له: أمري إليك، فقال لها :"مُري رجلاً من قومك يزوجك".

شاء الله أن يتحقق لسودة مارأت فى مناميها، ليكون زواجها من رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعمة ومنةً من الله عليها وتكريمًا لها جزاء ما عانت من الهجرة والتغريب، وفقد الزوج، وأذى الأهل ومشركي مكة، وجزاء إيمانها الصادق بالله ورسوله، كما كان هذا الزواج الشاهد الأكبر على أن هذا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبعد ما يكون عن التمتع بملذات الحياة الدنيا كشأن كل البشر، طمعًا منه فيما عند الله.. ذلك أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن عاش زمنًا طويلاً مع من تكبره بسنواتٍ وسنوات، ثم رحلت، فلمَ لمّا سنحت له

الفرصة يرضى بالعيش مرة أخرى مع من تكبره سنًا وإن يكن خمسة أعوام، ويا ليتها أكبر بدون عيال ولكنها امرأة مُصبية معيلة لها خمسة صبية أو ستة (٢)، وقد يقبل بهذا لو ثقل جمالها كِفَة الاختيار، ولكنها أيضًا غير باهرة الجمال؟! .. أما كان له أن يرفض عرض خولة من بادىء الأمر، متعللاً بأي علة مناسبة، وستقبلها خولة؟! .. ومن ثم يسعى إلى الزواج من شابة صغيرة ترد عليه مافات من عمره ولا غضاضة عليه.. وهل نضب معين قريشٍ من النسوة الشابات النواهد الأبكار؟! .. أهذا مسلك يسلكه الرجل المولع بالنساء؟!

والواقع يشهد أن السيدة سودة كانت عاقلة حصيفة لبيبة، يبدو هذا في موقفها المتوازن بين شرف الاصطفاء لها بأن تكون زوجًا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين كونها ذات عيال، وتخشى أن يتسبب هذا في تفويت فرص الراحة والمودة والسكن الذي يجب أن يسود البيت النبوي، فتتمهل قليلاً، ليفاتحها ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذا مستفسرًا: "ما يمنعك مني؟"، قالت: والله يا رسول الله، ما يمنعني منك أن لا تكون أحب البرية إليّ، ولكن أُكَرّمُكَ أن يضعوا هؤلاء عند رأسك بكرة وعشية، قال: "فهل منعك شيء غير ذلك؟"، قالت: لا والله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"يَرْحَمُكِ اللّهُ، إنّ خَيْرَ نِسَاءٍ رَكِبْنَ أعْجَازَ الْإبِل صَالِحُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ، أحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرٍ، وَأَرْعَاهُ عَلَى بَعْلٍ بِذَاتِ يَدٍ"(٣)، فهدأت نفسها.

كانت سودة تعلم من الوهلة الأولى أن مقارنتها بخديجة ـ رضيّ الله عنهما ـ سابقتها في فراش زوجية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليست في صالحها تمامًا، لذا فلا داعي إذن أن تشغل بالها بمن سيقارنون، ويتفاجئون، ويتساءلون، حسبها أنها صارت أمًا للمؤمنين، والزوجة التى اختارها ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتكون خلفًا لخديجة ـ رضيّ الله عنهما ـ، وحسبها أنها اليوم في ذات الدار التى سكنتها خديجة، وأنها ستكون الأم الحانية، الراعية لبنات النبي وخديجة، فحسمت القضية لصالحها فأراحت واستراحت؛ إذعلمت

في قرارة نفسها أنها لن تملأ ذاك الفراغ الهائل الذي تركته خديجة في حياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ولمّا كانت ـ رضيّ الله عنها ـ ذكية، لماحة، عفوية الطباع، ضاحكة السن، خفيفة الدم، أدركت من فورها ما هو الدور الذي تستطيع أن تضطلع به في البيت النبوي.

مثلما عاشت خديجة سنوات عمرها لا يشاركها في زوجها امرأة أخرى، منح الله سودة مثل هذا الشرف وإن لم يكن بنفس طول مدة خديجة؛ إذ عاشت في كنف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحوًا من أربع سنين حتى دخل بعائشة في المدينة لا تشاركها فيه أخرى، وهيّ ماتميزت به وسابقتها السيدة خديجة عن سائر نساء النبي، وكأنما أراد الله تعويضها عما ينتظرها عندما ستتقدم في السن، وورود عائشة ثم حفصة عليها وهما شابتان صغيرتان عنها بكثير، الأمر الذي سيدفعها لئن تضحي بليلتها في سبيل البقاء بجوار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عساها تختم حياتها زوجة له.

لم يكن يصلح بعد خديجة للعيش مع رسول الله سوى سودة؛ فقد كانت امرأة كبيرة وواعية، رزان، مؤمنة، ومن فواضل نساء عصرها، ولهذا فلم تكن أمًا لبنتيه وحسب بل أيضًا أمًا لزوجتيه الصغيرتين، وتكاد أن تكون أمًا له أيضًا؛ فلم تكدر للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ صفو عيشه، إذ كانت حريصة أن ترضيه كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً، فقد كانت ـ رضيّ الله عنها ـ تحبه حبًا جمًا، وكانت إحدى أحب زوجاته إلى قلبه، لصلاحها وتقواها، ومسيرة إيمانها، ولعلمه بسعيها لإدخال السرورعلى قلبه بما تختاره من كلمات تشيع في أرجاء نفسه البهجة، حتى لمّا فطنت إلى أن مشيتها تضحكه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك من اكتناز جسمها، كانت تتعمد المشي أمامه لتضحكه أكثروأكثر، إذ كان يسرها سروره.

لحرصها الشديد على إسعاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تفتعل المشاكل من غيرة بعد اقترانه بعائشة، بل عاش بينهما فى مودةٍ خلقاها حوله كزوجتين صالحتين على الرغم من فرق العمر الكبير بينهما.. تتبدى هذه المودة فيما ترويه عائشة : دَخَلَتْ عَلَيَّ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ فَجَلَسَتْ وَرَسُولُ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَقَدْ صَنَعْتُ حَرِيرَةً فَجِئْتُ بِهَا، فَقُلْتُ: كُلِي، فَقَالَتْ: مَا أَنَا بِذَائِقَتِهَا، قَالَتْ: قُلْتُ: وَاللَّهِ لَتَأْكُلِينَ مِنْهَا، أَوْ أَلَطِّخَنَّ مِنْهَا بِوَجْهِكِ، قَالَتْ: مَا أَنَا بِذَائِقَتِهَا فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا شَيْئًا فَمَسَحْتُ بِهِ وَجْهِي، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ يَضْحَكُ، وَهُوَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَمَسَحَ بِهِ وَجْهِي، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْفِضُ عَنْهَا بِمَرٍّ وَهُوَ يَضْحَكُ يَسْتَقِيدُ مِنِّي، فَأَخَذَتْ شَيْئًا فَمَسَحَتْ بِهِ وَجْهِي فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضْحَكُ .

ولم تكن ـ رضى الله عنها ـ تقبل المزاح من عائشة فقط بل ومن حفصة أيضًا، وقد علمتا عن سودة مقدار إيمانها، وورعها، وتقواها، ومخافة أن يظهر الدجال الذى حذر منه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ المؤمنين، فأخبراها بأن الدجال قد خرج، فما كان من سودة إلا أن اختبأت في بيت كانوا يوقدون فيه، واستضحكتا، وجاء رسول الله فقال:"ما شأنكما؟"، فأخبرتاه بما كان من أمر سودة، فذهب إليها وما أن رأته ـ صلى الله عليه وسلم، حتى سألته مستفسرةً : يا رسول الله، أخرج الدجال؟، فقال:"لا، وكأنْ قد خرج" فاطمأنّت وخرجت من البيت، وجعلت تنفض عنها بيض العنكبوت.

أكرم الله السيدة سودة بنت زمعة بالإسلام فالهجرة مع زوجها الأول السكران إلى الحبشة كمؤمنة من المؤمنات فلُقبتْ بالمهاجرة أرملة المهاجر، ثم أتم الله ـ عز وجل ـ عليها فائق كرمه حين أصطفاها من بين نساء المسلمين لتكون زوجًا لخاتم النبيين ـ صلى الله عليها وسلم ـ فتحظى بلقب أم المؤمنين، وتهاجر إلى المدينة بهذا اللقب ويستقبلها ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بيتها الذي بناه لها، لتنال شرف الهجرتين، وتكون أم المؤمنين الأولى بالمدينة المنورة، ويصبح لقبها سودة أم المؤمنين المهاجرة وثاني أزواج سيد العالمين صلى الله عليه وسلم.

ظلت السيدة سودة تحمد الله كثيرًا على كل هذه النعم التي تفضّل بها عليها، ولهذا لما تقدم بها السن وكانت تعلم فى حنايا نفسها أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما تلطّفَ بها وبحالها حين اختارها زوجًا له، وما كانت تريد أن تخرج من هذه المعية، كما كانت تعلم أيضًا أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عادلاً، ويحب أن يقيم شرع الله في بيته وبين أزواجه،

أليس هو القائل صلى الله عليه وسلم: ’’من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط’’ وما كان من خلقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأمر أمته بأمر ولا يلتزم به إلا ما كان من خصوصياته، يشهد بعدله قول عائشة أنها :"كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ لَا يُفَضِّلُ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْقَسْمِ مِنْ مُكْثِهِ عِنْدَنَا، وَكَانَ قَلَّ يَوْمٌ إِلَّا وَهُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعًا فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى الَّتِي هُوَ يَوْمُهَا فَيَبِيتَ عِنْدَهَا". فخشيت سودة أن يطلقها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصارحتْه بما في نفسها لكي تحمل من فوق كاهله مخافة ومظنة التقصير في حقها : "يارسول الله، لا تطلقني وأمسكني واجعل يومي لعائشة"، وذلك لغرض نبيل أخروي، من حقها أن تتمسك به: "أود أن أحشر في زمرة أزواجك".

أحبتها عائشة، واحترمتها وتمنت أن تكون مثلها: "مَا رَأَيْتُ امْرَأَةً أَحَبّ إِلَيّ أَنْ أَكُونَ فِي مِسْلَاخِهَا [صبرها وهديها وصلاحها] مِنْ سَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ مِنْ امْرَأَةٍ فِيهَا حِدّةٌ"، وقصدت عائشة من الحدة: قوة النفس وجودة القريحة، ولم ترد عائشة عيب سودة بذلك بل وصفتها.

حج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنسائه عام حجة الوداع، ثم قال: ’’هذه الحجة ثم ظهور الحصر’’، أي الجلوس في البيوت، وكان كل نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يَحْجُجْنَ إلا سودة بنت زمعة، وزينب بنت جحش، ولا يقدح في هذا أن عائشة خالفت أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم تكن بصنيعها هذا أقل وفاءً من سودة وزينب ـ عليهن جميعهن رضوان الله تعالى ـ ولكن الْعُذْر عَنْ عَائِشَة أَنَّهَا تَأَوَّلَتْ الْحَدِيث الْمَذْكُور كَمَا تَأَوَّلَهُ غَيْرهَا مِنْ صَوَاحِبَاتهَا عَلَى أَنَّ الْمُرَاد بِذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَجِب عَلَيْهِنَّ غَيْر تِلْكَ الْحَجَّة، وَتَأَيَّدَ ذَلِكَ عِنْدهَا بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :’’لَكِنَّ أَفْضَل الْجِهَاد الْحَجّ وَالْعُمْرَة’’، وَكَانَّ عُمَر ـ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ ـ مُتَوَقِّفًا فِي تفسير ذَلِكَ ثُمَّ ظَهَرَ لَهُ الْجَوَاز فَأَذِنَ لَهُنَّ، وَتَبِعَهُ عَلَى ذَلِكَ الصَّحَابَة مِنْ غَيْر نَكِير.

كان إعراض سودة عن الخروج من بيتها، امتثالاً ووفاءً وتأول منها يدل على مدى حزنها على وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم تزل كذلك حتى

توفيت ـ رضيّ الله عنها ـ في آخر زمن عمر بن الخطاب، ويقال إنها توفيت بالمدينة المنورة في شوال سنة أربعة وخمسون، وفي خلافة معاوية.

(١) السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ابن لؤي، وهو أخو سهيل بن عمرو وسليط بن عمرو وحاطب بن عمرو وهم يلتقون في النسب مع النبي صلى الله عليه وسلم عند لؤي بن غالب، كذا قال ابن عبد البر في الاستيعاب، وابن سعد في الطبقات، وابن حجر في الإصابة. وهو من مهاجرة الحبشة، هاجر إليها ومعه امرأته سودة بنت زمعة، وتوفي هناك، قاله موسى بن عقبة وأبو معشر، والزبير. وقال ابن إسحاق والواقدي: رجع السكران إلى مكة فمات بها قبل الهجرة إلى المدينة..وهو الأصح والأرجح عند البلاذري وغيره .. وهو ما أخذنا به خلافًا لمن قال أنه تنصر ومات بالحبشة ـ المؤلف ـ

(٢) قال الأرناؤوط : ولم نقف على تراجم أبناء سودة ولا على أسمائهم.

(٣) مسند الإمام أحمد، رقم الحديث (٢٨٠٧) ، والطبراني في الكبير. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٥٢٣).

الفصل التاسع

الصديقة الحبيبة زوج الحبيب

و

بنت الحبيب

مثلما رأت السيدة سودة بنت زمعة رسول الله في منامها قبل زواجها منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت الرؤيا بشارة لها باقترانها منه، رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ السيدة عائشة ثلاث ليال، عاشت هذه الرؤى حبيسة صدره لم يحدث عنها أحد حتى صديقه أبا بكر والد الفتاة، ولكنه صارح عائشة نفسها بعدها بعدة سنوات، بعد أن أصبحت الرؤيا واقعًا؛ فقال لها صلى الله عليه وسلم : ''أُرِيتُكِ فِى الْمَنَامِ ثَلاَثَ لَيَالٍ جَاءَنِى بِكِ الْمَلَكُ فِى سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ فَيَقُولُ هَذِهِ امْرَأَتُكَ . فَأَكْشِفُ عَنْ وَجْهِكِ فَإِذَا أَنْتِ هِىَ فَأَقُولُ إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمْضِهِ''.

لم يخبر الرسول ـ صلى الله عليها وسلم ـ عائشة بأنه رأها بل أُريها، وهذا لقطع الطريق على من يتصورون أنه ـ ربما ـ رأها يقظة فتمناها، فظهرت له في منامه، وتكمن دلالة "أريها" في أن الملك أتى بها في سَرَقَةٍ [قطعة جيدة من الحرير] لم تكن ظاهرة للرسول ـ صلى الله عليها وسلم ـ وإنما أخبره الملك بأن تلك التي يلفها الحرير ستكون زوجًا لك، ولم يعرف الرسول من هيّ حتى كشف بيده عن وجهها ''فَإِذَا أَنْتِ هِىَ'' والخطاب لعائشة، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: ''إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمْضِهِ'' أي: إن كان ربنا قدّر ذلك فسيكون ما قدّر سبحانه وتعالى، وهذا ليس شكًا منه صلى الله عليه وسلم، وقد فسر هذا القول أبلغ تفسير الْقَاضِي عياض حين قالَ : "إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الرُّؤْيَا قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَقِيلَ تَخْلِيصُ أَحْلَامه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْأَضْغَاث فَمَعْنَاهَا إِنْ كَانَتْ رُؤْيَا حَقّ. إِنْ كَانَتْ بَعْدَ النُّبُوَّة فَلَهَا ثَلَاثَةُ مَعَانٍ: أَحَدُهَا أَنَّ الْمُرَاد إِنْ تَكُنْ الرُّؤْيَا عَلَى وَجْهِهَا وَظَاهِرِهَا لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَعْبِيرٍ وَتَفْسِيرٍ فَسَيُمْضِيهِ اللَّه تَعَالَى وَيُنَجِّزُهُ، فَالشَّكُّ عَائِدٌ إِلَى أَنَّهَا رُؤْيَا عَلَى ظَاهِرِهَا أَمْ تَحْتَاجُ إِلَى تَعْبِيرٍ وَصَرْفٍ عَلَى ظَاهِرِهَا. الثَّانِي أَنَّ الْمُرَاد إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الزَّوْجَة فِي الدُّنْيَا يُمْضِهَا اللَّه، فَالشَّكّ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ فِي الدُّنْيَا أَمْ فِي الْجَنَّة. الثَّالِثُ أَنَّهُ لَمْ يَشُكَّ، وَلَكِنْ أَخْبَرَ عَلَى التَّحْقِيق، وَأَتَى بِصُورَةِ الشَّكّ كَمَا

قالَ: أأنْتِ أمْ أُمّ سَالِمِ؟ وَهُوَ نَوْع مِنْ الْبَدِيع عِنْد أهْل الْبَلَاغَة يُسَمُّونَهُ تَجَاهُل الْعَارِف، وَسَمَّاهُ بَعْضُهُمْ مَزْج الشَّكّ بِالْيَقِينِ"(١).

دخلت عائشة حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد وفاة السيدة خديجة، وذلك عندما فاتحته خولة بنت حكيم امرأةعثمان بن مظعون قائلة: يا رسول الله ألا تزوج؟، قال: ''من؟''، قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا، قال : ''فمن البكر؟''، قالت : ابنة أحب خلق الله عز وجل إليك عائشة بنت أبي بكر.

أذِن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لخولة أن تبدأ مشاورات زواجه من الثيب وقد كانت سودة بنت زمعة، والبكر عائشة ــ وهي موضع حديثنا ـ فدخلت خولة بيت أبي بكر فقالت: يا أم رومان ماذا أدخل الله عز وجل عليكم من الخير والبركة؟، قالت:وما ذاك؟، قالت: أرسلني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخطب عليه عائشة ، قالت: انتظري أبا بكر حتى يأتي، فجاء أبو بكر فقالت: يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟، قال:وما ذاك؟، قالت: أرسلني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخطب عليه عائشة ، قال: وهل تصلح له إنما هي ابنة أخيه؟!، فرجعت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكرت له ذلك، قال:''ارجعي إليه فقولي له أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام وابنتك تصلح لي''، فرجعتُ فذكرتُ ذلك له قال: انتظري، وخرج، قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه فوالله ما وعد موعدًا قط فأخلفه لأبي بكر، فدخل أبو بكر على مطعم بن عدي وعنده امرأته أم الفتى، فقالت: يَا ابْنَ أبي قُحَافَةَ! لَعَلَّكَ مُصْبٍ صَاحِبَنَا [تقصد ابنها جبير]، مُدْخِلُهُ فِي دِينِكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ إِنْ تَزَوَّجَ إِلَيْكَ؟!، قال أبو بكر للمطعم بن عدي: ماتقول هذه؟!، قال: إنها تقول كذلك، فخرج من عنده وقد أذهب الله عز وجل مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ عِدَتِهِ الَّتِي وَعَدَهُ، فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان أبو بكر الصديق المؤمن بالإسلام، والمصدق بما أنزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو نفسه أبو بكر العالم بالأعراف العربية علمه بأنسابها وشعرها، تمامًا مثلما يخبرها الرسول العربي القرشي، ولهذا فلابد أن تراعى تلك التقاليد بأن ينتقل طالب الزواج إلى بيت العروس، أما في

غير هذه فقد كان الصديق أول من يلبى نداء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ، كما كان عليه أن يعود إلى من طلب ابنته من قبل، ولك أن تعلم لو أن مطعمًا أنفذ وعده، لاعتذر الصديق لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي كان سيتقبل الأمر بدوره برحابة صدر، وسماحة نفس؛ فهو من أكثر العارفين بعاداتهم وتقاليدهم، ومثلما كان قادرًا على الاعتذار في تلك أما كان يستطيع الاعتراض على فارق السن بين ابنته وصديقه، أو أن يعترض على أن النبي كان متزوجاً آنذاك، لكن الصديق لم يعترض لا في هذه ولا في تلك، لأن هذا كان مألوفاً وشائعاً في مجتمعهم وبيئتهم.

والسؤال.. فهل كان أبو بكر فقيرًا أو معوزًا ليزوج ابنته الصغيرة مبكرًا، وممن يكبرها؟! .. الوقائع تشهد بأنه كان تاجرًا محسوبًا من أغنياء مكة المعروفين والمعدودين، بل كان من وجهاء قريش وأشرافهم وأحد رؤسائهم، ذلك أن الشرف في قريش قد انتهى قبل ظهور الإسلام إلى عشرة رهط من عشرة أبطن، وأبو بكر الصديق من بني تيم كان معدودًا من هذا الرهط، إذ آل إليه أمر الديات والمغارم، فكان إذا حمل شيئًا فسأل فيه قريشًا صدقوه، وامضوا حمالة من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه.

يتبقى إذن أن أبا بكر كان يريد التخلص من بناته مبكرًا بتزويجهن، لكن الواقع والتاريخ يكذّبان هذا الطرح، إذ كانت قبيلة بني تميم من القبائل العربية التي تميزت بحسن معاملتها للمرأة، كما أن بيت الصديق كان من أشد بيوت هذه القبائل محبة للنساء وإكرامهن، وتعليمهن حتى القراءة والكتابة، كما تعلمت عائشة كل هذا في صغرها.

كما يتبقى أن يعلم من لايعلم أن أبا بكر لم يصاهر إلا من هو كفء لمصاهرته، ويليق بابنته، إنه جبير بن مطعم بن عدي، ومن هو مطعم هذا؟ .. إنه مُطعِم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي شيخ قريش في زمانه، وسيِّدٌ من ساداتهم، ورئيس بني نوفل في الجاهليَّة، وقائدهم في حرب الفِجار.

أذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة فهاجر وأبو بكر وقد تركا عائلاتيهما بمكة، فلما استقرا بالمدينة بعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ زيد بن

حارثة وأبا رافع، بينما بعث أبو بكرعبد الله بن أريقط وقد كتب إلى عبدالله ابنه أن يحمل معه أم رومان وأم أبي بكر وعائشة وأسماء.

نزل آل النبي - صلى الله عليه وسلم - عنده، وهو يومئذٍ يبني المسجد وبيوته، فأدخل سودة بنت زمعة أحد تلك البيوت، وكان يكون عندها، فقال له أبو بكر: ما يمنعك أن تبنى بأهلك؟.. فبنى بها صلى الله عليه وسلم.

إذن لم يبادر الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى التعجيل بالدخول على عائشة، وإنما الذى طلب هذا أبوها، الذي كان يراها مناسبة وصالحة ومهيأة لأن يبنى بها الرسول صلى الله عليه وسلم.

لم تُتْرَك عائشة طيلة سنوات خطبتها هملاً، بل كانت فترة إعداد لها على قدر طاقتها حتى تصبح الزوج اللائق للنبى - صلى الله عليه وسلم - كان قدوتها ومعلمها آنذاك والدها المشهود له بأنه أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى، وأعرفهم بالسنة المطهرة، النسابة، الفصيح فى الخطابة، الماهر بتأويل الرؤى.

مثلما ورثت عائشة عن أبي بكر صفاته فى الجمال؛ فقد كان قسيمًا وسيمًا، فكانت - رضيّ الله عنها - جميلة، قسيمة، بيضاء البشرة، حمراء الشعر، طويلة بعض الشىء، ورثت عنه كذلك، البديهة الحاضرة، والذكاء الحاد، بالإضافة إلى قدرتها التى لا تبارى على التحصيل، والذاكرة الجيدة التى أبانت عن نفسها في الإحاطة بكل ما يدور حولها.

تأهلت عائشة بهذا الإعداد، وما جبلت عليه من الطباع، والصفات التي ورثتها لأن تكون - بحق - التلميذة النبوية النجيبة في بيت زوجها ومعلمها الأكبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي حفظت عنه الكثير والكثير بالتلقي الطاهر المباشر، وشهود نزول الوحي في حجرتها المباركة، الأمر الذي أتاح لها بدالة القرب الحياتي والقلبي من النبي - صلى الله عليه وسلم - نقل السنة الفعلية عنه، بل وسؤاله فيما يستشكل عليها فهمه، والاستفسار عما استعجم عليها معرفته، فأضاف لها كل هذا فهم عميق للكتاب الكريم والسنة المطهرة، أكسبها ملكة لا تبارى فى النقد، والتأويل، والاستنباط، مما أجلسها هذا بعد وفاته - صلى الله عليه وسلم - مجلس العالمة، المحدثة،

الفقيهة، المفسرة، المفتية، المجتهدة، المستنبطة، حتى غدت حجرتها جامعة للعلوم الإسلامية، تقصدها نساء المؤمنين، كما يقصدها الصحابة الكرام رضوان الله عليها وعليهم جميعًا.

نعم .. كانت أمنا السيدة عائشة - رضى الله عنها - بحق بركة على المسلمين، ولما لا وما نزلت آية التيمم إلا بسببٍ يتصل بها، وذلك حين أعارتها أختها أسماء قلادة، فضاعت منها، فأرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعض أصحابه ليبحثوا عنها، فأدركتهم الصلاة ولم يكن عندهم ماءٌ فصلّوا بغير وضوء، فلما أتوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - شكوا إليه ما كان من أمر صلاتهم فأنزل الله آية التيمم، فتيمموا، فقال أسيد بن الحضير لعائشة: "جزاكِ الله خيرًا، فوالله ما نزل بك أمر قط إلا جعل الله لكِ منه مخرجًا، وجعل للمسلمين فيه بركة"، ودخل أبو بكر عليها كأنه يستسمحها: "إنك لمباركة نزلت فيك رخصة"، بعدما عاتبها سابقًا : "حبست رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟"، وقال ما شاء له أن يقول، وهو يطعن بيده في خاصرتها، ولا يمنعها من التحرك إلا مكان رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على فخذها، وما أن بعثوا البعير الذي كانت عليه عاشة حتى وجدوا العقد تحته.

شهدت السيدة خديجة - رضيّ الله عنها - الفترة التأسيسية للدعوة الإسلامية في مرحلتها المكية، وهيأ الله تعالى لعائشة أن تشهد بواكير الدولة الإسلامية الفتية في مرحلتها التأسيسية بالمدينة، ومثلما كانت خديجة حب الرسول الأكبر في مكة، كانت عائشة حب الرسول الأكبر في المدينة، يشهد لهذا الحب ما رواه عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَعْمَلَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ. قَالَ: فَأَتَيْتُهُ؛ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: "عَائِشَةُ"، قُلْتُ: مِنْ الرِّجَالِ؟ قَالَ: "أَبُوهَا"(٢).

وهل هناك أبلغ من هذا الحوار الودود الذي دار بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين زوجه عائشة - رضي الله عنها - التي نقلته لنا حين قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا

كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى". قالَتْ: فَقُلْتُ وَمِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ قالَ: "أَمَّا إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً؛ فَإِنَّكِ تَقُولِينَ: لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتِ غَضْبَى قُلْتِ: لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ". قالَتْ: قُلْتُ أَجَلْ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ(٣).

ثم يشهد بهذا أعظم شهادة ماروراه ابن عساكر عن السيدة عائشة - رضي الله عنها - أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لها: "أما ترضين أن تكوني زوجتي في الدنيا و الآخرة؟"، قلت: بلى، قال: "فأنتِ زوجتي في الدنيا والآخرة"(٤).

ولئن اختار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ابنته فاطمة - رضي الله عنها - لينقل لها أنه مودعها حيث الرفيق الأعلى، إلا أنه لحبه الكبير لعائشة اختار - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُمَرَّضَ فِيْ بَيْتِهَا، ليموت بَيْنَ سَحْرِهَا وَنَحْرِهَا، ثم يكون دَفْنُهُ فِيْ بَيْتِهَا بِبُقْعَةٍ هِيَ أَفْضَل بقاعِ الْأَرْض بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ (٥)، وقد كان ذلك حين كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "أَيْنَ أَنَا الْيَوْمَ؟ أَيْنَ أَنَا غَدًا؟" اسْتِبْطَاءً لِيَوْمِ عَائِشَةَ(٦).

عاشت - رضى الله عنها - بعد انتقال زوجها الحبيب - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى جوار ربه قريبًا من خمسين سنة، تحفها في رحلتها تلك ذكرياتها الجميلة معه التي ما فتئت تتذكرها، وتذكرها عندما يسألها أحدهم أو إحداهن، ومنها ، قَالَتْ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالأُثَيلِ عِنْدَ الأَرَاكِ، قَالَتْ : فَذَهَبْتُ لِحَاجَتِي، فَدَخَلْتُ فِي خِلالِ الأَرَاكِ، فَبَيْنَا أَنَا كَذَلِكَ إِذَا نَحْنُ بِشَخْصِ رَجُلٍ يَتَخَلَّلُ الأَرَاكَ عَلَى بَعِيرٍ، فَذَهَبْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْبَلَ حَتَّى نَزَلَ عِنْدِي، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ حَاجَتِي، قَالَ : "تَعَالَيْ أُسَابِقْكِ"، فَشَدَدْتُ دِرْعِي عَلَى بَطْنِي، ثُمَّ خَطَطْنَا خَطًّا فَعُجْتُ عَلَيْهِ فَاسْتَبَقْنَا، فَسَبَقَنِي، فَقَالَ: "هَذِهِ مَكَانُ ذِي الْمَجَازِ". وَكَانَ جَاءَ يَوْمًا وَنَحْنُ بِذِي الْمَجَازِ، وَأَنَا جَارِيَةٌ قَدْ بَعَثَنِي أَبِي بِشَيْءٍ، فَقَالَ :"أَعْطِنِيهِ"، فَأَبَيْتُ، فَسَعَيْتُ وَسَعَى عَلَى أَثَرِي فَلَمْ يُدْرِكْنِي".

وكيف لها أن تنسى وقوفه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على باب حجرتها ليسترها بردائه وهيّ تنظر من بين أذنه وعاتقه إلى لعب الأحباش يلعبون بالحراب في المسجد(٧)، وهم من وفدوا مسلمين مع جعفر بن أبي طالب

من الحبشة آنذاك، وكيف لها أن تنسى فعل الصحابة وهم يتحرون اليوم الذي يكون فيه النبي ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عندها دون سائر الأيّام ليقدّموا هداياهم وعطاياهم، لعلمهم بمكانة عائشة منه.

لم تخلو ذكريات السيدة عائشة من المحن العاصفات، وأشدها محنة (الإفك)، وهى المحنة المعروفة المشهورة الثابتة في عشر آيات من سورة النور، وفي الأحاديث الصحاح، وردت في خبر صحيح مشهور، أغنى اشتهاره عن ذكره، وسنورده مختصرًا: "لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائشة معه في غزوة بني المصطلق، وقفل ودنا من المدينة آذن ليلة بالرحيل، قامت ـ رضيّ الله عنها ـ حين آذنوا بالرحيل فمشت حتى جاوزت الجيش، فلما فرغت من شأنها أقبلت إلى الرحل فلمست صدرها فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمسته فحبسها ابتغاؤه، فوجدته وانصرفت، وكانت شابة قليلة اللحم، فرفع الرجال هودجها ولم يشعروا بزوالها منه؛ فلما لم تجد أحدًا اضطجعت في مكانها رجاء أن يفتقدوها فيرجعوا إليها، فنامت في الموضع ولم يوقظها إلا قول صفوان بن المعطل: "إنا لله وإنا إليه راجعون"؛ وذلك أنه كان قد تخلف وراء الجيش لحفظ الساقة. وقيل: إنها استيقظت لاسترجاعه، ونزل عن ناقته وتنحى عنها حتى ركبت، وأخذ يقودها حتى بلغ بها الجيش في نحر الظهيرة؛ فوقع أهل الإفك في مقالتهم، وكان الذي يجتمع إليه فيه ويستوشيه ويشعله عبدالله بن أبي بن سلول المنافق، وهو الذي رأى صفوان آخذًا بزمام ناقة عائشة فقال: "والله ما نجت منه ولا نجا منها"، وقال: "امرأة نبيكم باتت مع رجل". وكان من قالته حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش".

يقول صاحب الظلال عن تلك المحنة :(لقد كانت معركة خاضها رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك. وخاضها الإسلام، معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التي خاضها رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وخرج منها منتصرًا كاظمًا لآلامه الكبار، محتفظًا بوقار نفسه وعظمة قلبه وجميل صبره. فلم تؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله، والآلام التي تناوشه لعلها أعظم الآلام التي مرت به

في حياتـه، والخطر على الإسلام من تلك الفريـة من أشد الأخطـار التـي تعرض لها في تاريخه).

لم تنس السيدة عائشة مواقف غيرتـها الشـديدة على رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ ـ من فرط حبها لـه، وكـان تبريرها لـه : "ومـا لـي لا يغار مثلـي على مثلـك؟"، ولكنهـا بسـبب الغيـرة تلك وقعت منهـا أمـورًا كثيـرة، غفرها لها ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ من مثلـها ذلك الذي رواه البخـاري في صحيحه، أنـه فـي يومٍ من الأيّام كـان النبـي ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ ـ عند عائشة، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بوعاء فيـه طعام، فقامـت عائشـة ـ رضـي الله عنـها ـ إلى الوعـاء فكسرته، فجعل النبـي صلى الله عليـه وسلم يجمع الطعام وهو يقول: ’’غارت أمكم’’.

كما تتذكر كيف غفر لها ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ ـ ولكن بعد أن عاتبها بل هاجمها مهاجمة شديدة حين تجاوزت بغيرتها منطقة "خديجة"؛ إذ ظنت لفرط حبه لها أن أولى أزواجه بوفاتها صـارت فـي ذاكرتـه ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ ـ نسيًا منسيا، الأمر الذي طمأنها هيّ نفسـها على مدى وفـاء زوجها لها حتى وأن قضت قبلـه، فلن يسمح لمن تـأتي بعدها أن تتناولـها بسوء، وهذا لم يكـن غريبًـا على أخلاق سيد الخَلق والخُلق، فقد بعثـه الله تعـالى ليكمل ويتمم مكارم الأخلاق، كما عُرِّفَ عنه ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ الوفـاء لكل من قدم لـه معروفًـا حتـى قبل تكليفـه بالرسـالة، فكيـف لا يكـون وفيًـا لزوجة عاشرها السنوات الطوال، ورأى منـها الذريـة التـي أقرت عينيـه من البنين والبنـات؟!!

وتذكر كتب السيرة أن السيدة عائشـة التـي كانـت الزوجـة الأثيـرة عنده ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وختم حياته في بيتهـا، لم تجرؤ بعد هذا أن تـذكر السيدة خديجة أبدًا.

أما الذي لم يغفره رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ ـ لعائشـة مـن أمـر غيرتـها فهيّ ما تحكيه قائلة: (لَمَّا كَانَتْ لَيْلَتِي الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا عِنْدِي، انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ، وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ، فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْـهِ، وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِـهِ، فَاضْطَجَعَ، فَلَمْ يَلْبَـثْ إِلَّـا رَيْثَمَـا ظَنَّ أَنْ قَدْ

رَقَدْتُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رُوَيْدًا، وَانْتَعَلَ رُوَيْدًا، وَفَتَحَ الْبَابَ فَخَرَجَ، ثُمَّ أَجَافَهُ [أغلقه] رُوَيْدًا، فَجَعَلْتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي، وَاخْتَمَرْتُ [لبستُ خماري]، وَتَقَنَّعْتُ إِزَارِي، ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى إِثْرِهِ، حَتَّى جَاءَ الْبَقِيعَ فَقَامَ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْحَرَفَ فَانْحَرَفْتُ، فَأَسْرَعَ فَأَسْرَعْتُ، فَهَرْوَلَ فَهَرْوَلْتُ، فَأَحْضَرَ[فركض] فَأَحْضَرْتُ، فَسَبَقْتُهُ فَدَخَلْتُ، فَلَيْسَ إِلَّا أَنْ اضْطَجَعْتُ، فَدَخَلَ، فَقَالَ: "مَا لَكِ يَا عَائِشُ، حَشْيَا رَابِيَةً؟" [حشيا رابية: هو مرض يسبّب ارتفاع صوت النفس مع تسارعه]، قَالَتْ: قُلْتُ: لَا شَيْءَ . قَالَ: "لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ". قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، فَأَخْبَرْتُهُ . قَالَ : "فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي؟"، قُلْتُ: نَعَمْ. فَلَهَدَنِي فِي صَدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعَتْنِي [اللهد :الدفع بجميع الكف في الصدر]، ثُمَّ قَالَ: "أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ؟" [الحيف: الظلم]، قَالَتْ: مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ، نَعَمْ، قَالَ: "فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ، فَنَادَانِي، فَأَخْفَاهُ مِنْكِ، فَأَجَبْتُهُ، فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي"[الوحشة: الخوف من الوحدة]، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ . قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: "قُولِي : السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ"(٨) .

كانت ـ رضي الله عنها ـ ذكية، واعية بأحوال زوجها، لم تُرد أن ينتهي الموقف بينها وبينه بغضب، فغيرت الموقف من المعاتبة بين زوجين إلى استفسار من طالبة علم إلى أستاذها، إذ كان الثابت من فعلها أنها لم تكن تترك رسول الله يغضب منها مدة من الزمن حتى تتحين الوقت الذي تصفو فيه نفسه ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وتطيب فتطلب منه علمًا أو دعاء. فسألته كيف تدعو لأهل البقيع؟، فكان من أدبه ورحمته ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أن أجابها ولم ينهرها ـ كما يفعل بعض الرجال الغشوم في عصرنا بدعوى الكرامة ـ إيثارًا منه لتواصل المودة بينهما.

عن السيدة عائشة أنها قالت : لما رأيت من النبي صلى الله عليه وسلّم طيب نفس قلت : يا رسول الله، ادع الله لي، قال : "اللهمّ أغْفِرْ لِعَائِشَةَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهَا وَمَا تَأَخَّرَ، وَمَا أَسَرَّتْ وَمَا أَعْلَنَتْ". فضحكت عائشة حتى

سقط رأسها في حجرها من الضحك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ''أيَسُرُّكِ دُعَائِي؟''، فقالت: وما لي لا يسرني دعاؤك ؟! فقال : ''والله إنَّها لَدَعْوَتِي لأمَّتِي في كُلِّ صَلاةٍ''.

نشأت - رضي الله عنها - في بيت كرم، وتزوجت أكرم أهل الأرض جميعًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فصارت مشهورة بالكرم، والجود، والسخاء يشهد بهذا ما ذكره عروة بن الزبير قال: "لقد رأيت عائشة - رضي الله عنها - تقسم سبعين ألفا، وإنها لترفع جيب درعها. وعنه أيضًا فيما يرويه أبيه قال : "بعث معاوية - رضي الله عنه - إلى عائشة - رضي الله عنها - بمائة ألف، فوالله ما غابت الشمس عن ذلك اليوم حتى فرقتها، قالت مولاة لها: لو اشتريت لنا من الدراهم بدرهم لحما، فقالت: لو قلت قبل أن أفرقها لفعلت".

عانق الزهد في الدنيا وعلائقها ومباهجها الزائلة، ذلك الكرم في إنفاق الذهب والفضة، هكذا علم الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أزواجه وبناته، أن ما عند الله خير وأبقى، ومنهن عائشة - رضى الله عنها وعنهن - التي زهدت في الدنيا التى خيم عليها المُلك العضوض، وسقط فيها خلفاء الرسول الواحد تلو الآخر شهيدًا، فماذا تبقى لها إلا الاشتياق إلى من رحلوا وأغلاهم وأعلاهم عندها الزوج والحبيب - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فكانت تُوصِي بأن تدفن مع أزواجه فى البقيع، وتقول مناجية ربها: "يا ليتني كنتُ شجرة. يا ليتني كنتُ حجرًا. يا ليتني كنتُ مدرة. ياليتنى كنتُ نسيًا منسيًا".

كان حالها مع القرآن الكريم القراءة بالخشوع حتى البكاء، ويبلغ أشده إذا قرأت: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ فتبكي حتى تبل خمارها، ثم ما لبثت أن أدركتها الوفاة - رضي الله عنها - سنة سبع وخمسين أو ثمان وخمسين للهجرة النبوية، ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان بعد وِتْر تلك الليلة، فدفنوها بالبقيع، بعد أن صلى عليها أبو هريرة، وكان يومئذ خليفة مروان على المدينة المنورة في أيام معاوية بن أبي سفيان، وهيّ في سن الخامسة أو السادسة والستين من عمرها، وأمَرَتْ أنْ تُدْفَنَ مِنْ لَيْلَتِهَا؛ ليشيعها المهاجرون والأنصار في موكب حزين اعتصر القلوب و العيون.

ولئن طوى الزمن صفحة السيدة عائشة ـ رضيّ الله عنها ـ بقضاء الله وقدره مثلها في ذلك مثل كل البشر، إلا أن صفحتها في قلوب من أحبوها لم تزل مفتوحة موصولة بها ومعها، يستعيدون سيرتها مع سيرة نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويستذكرونها عِلمًا في مجالس العلم ومحافل الأدب، كما يتدارسونها فقهًا وحديثًا، وشعرًا، ورأيًا لماحًا، وقولاً نفاذًا في كل علم ... رضيّ الله عن أمنا الباقية بقاء الدين في الدنيا وأرضاها وسائر أمهات المؤمنين.

(١) ، كِتَاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَاب فِي فَضْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، حديث رقم (٤٤٦٨). المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ) دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعةالثانية، ١٣٩٢

(٢) سنن الترمذي، كتاب المناقب، بَاب مِنْ فَضْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حديث رقم (٣٨٢٠)، وقَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٣) صحيح مسلم، كِتَاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَاب فِي فَضْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، حديث رقم (٤٤٦٩).

(٤)الألباني: السلسلة الصحيحة ، ص ٢٢٥٥ .

(٥) انظر: الْإِجَابَةُ لِإِيْرَادِ مَا اسْتَدْرَكَتْهُ عَائِشَةُ عَلَى الصَّحَابَةِ (٥٤/١).

(٦) صحيح مسلم، كِتَاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَاب فِي فَضْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، حديث رقم (٤٤٧٣) .

(٧) صحيح البخارى : كتاب الصلاة باب أصحاب الحراب في المسجد ، 123 : 1 ،
و ج ٧ : ٤٨ كتاب النكاح باب نظر المرأة إلى الحبش ونحوهم من غير ريبة
، صحيح مسلم : كتاب صلاة العيدين باب (٤) باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه.

(٨) " رواه مسلم .وفي رواية الإمام أحمد : " فلهزني في ظهري لهزة فأوجعتني".

الفصل العاشر

الصوامة القوامة .. حارسة القرآن

مثلما شهدت السنة الثامنة عشر قبل الهجرة مولد فاطمة بنت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاء لها أن تشهد أيضًا ميلاد حفصة بنت عمر بن الخطاب من زوجه زينب بنت مظعون، إذ ولدتا قبل البعثة المحمدية بخمس سنوات وقريش تبني البيت، وإذا كانت الزهراء أصغر أخوتها، كانت حفصة أكبرهم.

ما كادت تبلغ حفصة سن الشباب حتى تزوجت من أحد السابقين إلى الإسلام خُنيس بن حُذافة خُنيس بن حذافة بن قيس بن سعد بن سهم القرشي السهمي؛ فقد أسلم قبل دخول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ دار الأرقم، ومن الذين هاجروا إلى الحبشة، ثم رجع فهاجر بحفصة زوجه إلى المدينة.

شهد خنيس غزوتا بدر وأحد، وأصيب في الأخيرة بجراحات ثخينات لم يلبث بعدها إلا قليلا حتى فاضت روحه سنة ثلاث للهجرة، فصلى عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم دفن بالبقيع بجوار قبر عثمان بن مظعون ـ رضى الله عنهما ـ مخلّفا وراءه حفصة وحيدة فلم تنجب له.

رق قلب عمر الأب لحال ابنته الشابة ذات العشرين ربيعًا أو دونها بقليل وهى تعود إلى داره حزينة، كسيرة القلب، وحيدة، يجول بخاطره أسى على حالها، يتردد صداه في صمت كبركان يوشك أن ينفجر به لسانه؛ إذ لم تكن حفصة مطمعًا للرجال لنصيبها القليل من الجمال، مما يقلل فرص زواجها ثانيةً، كما أن المسلمين بالمدينة ـ آنذاك ـ مازالوا يشكلون مجتمعًا صغيرًا.

بعد تفكير عميق اهتدى عمر إلى تزويج ابنته بنفسه، فماذا عليه لو ذهب يلتمس لها زوجًا من أصحابه من المهاجرين؟!، وماذا عليه لو بدأ بصنو روحه، وحبيبه بعد حبيبه - صلى الله عليه وسلم - أبا بكر فليذهب إليه .. نعم هو يكبرحفصة، ولكن متى كان لفارق السن اعتبارًا في المجتمع العربي، فالرجال يظلون أقوياء حتى قبيل موتهم، كما أن غالبيتهم من الذين يعمرون السنين الطوال.

خرج عمر من عند الصديق وشرارات الغضب تتطاير من عينيه، فلم يكن يظن أن جواب أبو بكر عليه سيكون السكوت، ولو تكلم بالرفض متعللاً حتى بأسباب واهية لربما خفف هذا على الفاروق، وهون عليه، غير أن عمر القوي الشديد عزعليه أن يعود لابنته وحبيبته والحزن يعلو قسمات وجهه، ومن المؤكد أن حفصة ستلاحظ هذا وربما سألته السبب وألحت فذكر لها السبب، فيضاعف هذا حزنها.

يمم وجهته شطر صاحبه عثمان بن عفان عارضًا عليه ما سبق أن عرضه على أبي بكر، غير أن موقف عثمان لم يكن بالأحسن من موقف الصديق؛ إذ تكلم ولكن كلامه زاد غيظ عمرغيظًا، وحنقًا، ومرارةً لمّا رفض قائلاً الرفض إذ قال له : "قد بدا لي أن لا أتزوج في يومي هذا".

طار صواب الأب المكلوم، وأصابه الحزن على ابنته أكثر، ولم يجد غير باب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورحابه، فحط عنده رحاله، والضيق والكرب والغضب يعلوه، والرسول - صلى الله عليه وسلم - يعرفه، فسأله، فأجابه الفاروق دون مواربة، فعاجله - صلى الله عليه وسلم - بالدواء الشافي الذي استل به السخيمة من قلبه المتقد نارًا، ويطفىء نار الغضب من نفسه، ويذهب الحزن على ما أصاب ابنته، ويطرد ما يلاقيه من فزع على مصيرها، فقال له صلى الله عليه وسلم: "يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة".

عَزَ على أبي بكر أن يترك صديقه الصدوق عمر وقد وجد عليه، وربما أغلق باب قلبه على ضيق منه، وأشد الطعنات إيلامًا هيّ التي تأتيك من أكثر الناس قربةً ومودة، وما كان هذا ليخفى على أبي بكر الخبير بنفوس

الناس وبعمر أخبر، فما أن تم زواج حفصة من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بادر الصدِّيقُ الفاروقَ الكلام بمودة وحنو كعهدهما : "لعلّك وَجَدْتَ علَيّ حين عرضتَ علَيّ حفصة، فلم أُرجع إليك شيئًا؟، فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضتَ علَيّ إلاّ أنّي كنتُ علمتُ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو تركها صلى الله عليه وسلم لقبلتُها"(١).

لم يكن ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعيدًا عما يشغل أصحابه، بل يدري الأسباب التي تدخل السرور على قلوبهم، كما يدري الأشياء التي تكدر صفو أحوالهم، ولهذا كان يعلم بما يئن منه بن الخطاب، وفاتح فيه أبا بكر، وربما لو تمهل عمر في عرض حفصة على الصحابيين الجليلين لبادر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخطبتها منه، غير أن قلب الرسول لم يكن قد برأ بعد من وفاة ابنته رقية، وحزينًا من بقاء أختها أم كلثوم دون زواج، فكأنما أراد الله بسعي عمر أن يذهب الكدر عن صفوه وصفو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معًا بزواج كريمتيهما متتابعتين.

يسجل التاريخ دخول ثالثة الزوجات حفصة بنت عمر البيت النبوي في شعبان من السنة الثالثة من الهجرة (٢)، فأحسنت سودة كما أحسنت عائشة استقبالها، فهيَّ مثلهما قرشية، مكية، مهاجرة، غير غريبة عنهما في هذا المجتمع المدنى الصغير، فكانت سودة لعائشة وحفصة بمثابة الأم الرؤوم، كما كانت حفصة الأخت الكبرى لعائشة، بينما تظل لعائشة الحظوة في قلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكونها أصغرهما، وأجملهما، ولذلك لم يشهد بيت النبوة في تلك الأثناء ما يكدر صفو الزوجات ولا صفو حياة زوجهن، بل تبارين في إدخال السرور على قلبه المهموم بتثبيت دعائم الدولة الإسلامية في المدينة، غير البعيد من كيد اليهود، وتدبير المنافقين، وعداء رؤوس الشرك فى مكة.

لا تخلو الحياة مما يكدر صفوها بسبب نزغات النفس البشرية، وما كان المجتمع ولا البيت النبوي مثاليًا، طوباويًا، بل هو بيت يسكنه نساء من البشر وإن كن تزوجن من نبي فهو أيضًا من البشر، أرسله الله ليقتدي به البشر فيما يفعل أو يقول، والغيرة من أخص الطبائع البشرية وأكثر

مظاهرها وتجلياتها عند النساء، وبالتالي لم تنج منها حفصة؛ فغارت من سودة كما غارت من عائشة، كما غارت من نساء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم اللواتي قدمنّ بعدها، وكان في طبع حفصة حدة طالما حذرها منها والدها عمر من مخاطبة الرسول بها مخافة أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، مذكرًا إياها أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما تزوجها إلا إكرامًا لأبيها عمر، ولولاه لطلقها.

خالفت حفصة يومًا ما أمرها به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن تكتمه من خبر وجود مارية أم ابنه معه في بيتها، فأفشت السر، فطلقها فما أن علم عمر بذلك الخطب الجلل الذي طالما حذر ابنته من الوقوع فيه حتى حثى التراب على رأسه، قائلاً: "ما يعبأ الله بعمر وابنته بعد اليوم"، غير أن رحمة الله أدركت عمر، فأرسل جِبْريلُ للنبي صلى الله عليه وسلم : "رَاجِعْ حَفْصَةَ؛ فَإِنّها صَوّامَةٌ قوّامَةٌ، وَإِنّهَا زَوْجَتُكَ فِي الْجَنّةِ" (٣).

أيُّ شرفٍ هذا الذي ناله عمر وابنته في تلك الليلة، حين شهد الله تعالى لحفصة ـ رضي الله عنها ـ من فوق سبع سماوات بحسن عبادتها، بل أن مكانها في الجنة بنفس درجتها في الدنيا، زوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم أن أزواجه من بعده سيحملن مهمة شاقة وهيّ تعليم وتفقيه المسلمين فيما فاتهم من أمور دينهم في بيت النبوة، فحرص على تعليمهن، أو إكمال تعليمهن، فقد كانت حفصة مثل عائشة من القليلات في المجتمع المكي اللواتي أجدنّ الكتابة والقراءة، يؤكد هذا ماروته الشفاء بنت عبد الله حين قالت: دخل علَيّ رسول الله وأنا عند حفصة، فقال لي: ’’ألا تُعَلِّمِينَ هَذِهِ رُقيَةَ النّمْلَةِ، كَمَا عَلّمْتِيهَا الْكِتَابَةَ؟’’ (٤).

ذلك أن الشفاء كانت ترقي بالجاهلية، فقدمت بعد هجرتها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وقالت: "يا رسول الله إني قد كنت أرقي برقىً في الجاهلية، فقد أردتُ أن أعرضها عليك، فقال:’’فاعرضيها’’، فعرضتها عليه". يأتي هذا في إطار أمر مجتمعي كان عليه العرب قبل الإسلام يؤكده

ما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الرحمن بن عوف ابن مالك الأشجعي، قال : كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟، فقال: ''اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس في الرقى ما لم يكن فيه شرك''(٥).

عاشت حفصة ـ رضي الله عنها ـ في كنف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ترتوي العلم من النبع النبوي الزكي، وتشهد نزول الآي الكريمات من السماء مع أمين السماء، فتسمعها بكرًا طازجًا من أمين الأرض ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتنضم إلى ركب التلميذات في المدرسة المحمدية مثلها مثل باقي أمهات المؤمنين ـ رضوان الله عليهن ـ تسأله عندما تجهل، فيخبرها فتعلم، ولكنها تستزيد الفهم بالسؤال بعد الإجابة للاستيضاح وليس لرد المقالة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولعل في هذا ما يعطي للكافة درسًا عمليًا في آداب المناظرة والتلقي والمحاجة بالبرهان، وصبر العالم على تلميذه في الإجابة بالبرهان الأقوى، وأن الإسلام ليضع للعقل مكانة عظمى في تشريعه وعقيدته، ويضع للمرأة مكانة كبرى في استعمال حقها في النقاش، وأن القهر الفكري مرفوض في دين الله ناهيك عن كافة أنواع القهر في المجتمع كله.

حدث أن سَمِعْت صفية رضي الله عنها رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: ''يَأْتِي جَيْشٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِق يُرِيدُونَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ خُسِفَ بِهِمْ فَرَجَعَ مَنْ كَانَ أَمَامَهُمْ لِيَنْظُرَ مَا فَعَلَ الْقَوْمُ فَيُصِيبَهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ''، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُسْتَكْرَهًا؟، قَالَ: ''يُصِيبُهُمْ كُلَّهُمْ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ كُلَّ امْرِئٍ عَلَى نِيَّتِهِ''(٦).

عاشت السيدة حفصة بعد رحيل الزوج الحبيب ـ صلى الله عليه وسلم ـ تنقل العلم الشريف إلى المسلمين كما عاصرته في بيت النبوة وما نقلته عن أبيها فروت ستين حديثًا، ولما عاصرت الخلافة الراشدة، والاهتمام البالغ بجمع القرآن الكريم في صحف بقيت هذه الصحف عِنْدَ أَبِى بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ من بعده ثُمَّ أودعوها عِنْدَهَا لعدم تعيين خليفة من بعد أبيها، ولكونها القارئة الحافظة لكتاب الله تعالى.

كما كانت ـ رضي الله عنها ـ المشيرة على أبيها بعد أن صار خليفة للمسلمين؛ إذ كان ـ رضي الله عنه ـ يستشيرها في كثير من الأمور التي تتعلق بحياة النبي البيتية، كما أشارت عليه قبيل وفاته أن لا يترك الأمر شورى في إختيار من يخلفه، مخافة الفرقة والاختلاف وكان إجتهاد منها له محله من الاعتبار.

لم تبرح حفصة الصيام والقيام وقراءة القرآن كلداتها من أزواج النبي الطاهرات ـ رضوان الله عليهن جميعًا ـ، غير أنها كانت تحتفظ بصحف القرآن الكريم التي ما فتئت تحافظ عليها، وتستبقيها ولاتعطيها لأحد ولو كان عامل المدينة (٧).

توفيت ـ رضي الله عنها ـ بعد أن بلغت عقدها الستين في ظلال الدولة الأموية (٨) فصلى عليها مروان بن الحكم عامل المدينة في زمن معاوية.. لتنتقل صحف القرآن الكريم من بيتها إلى مروان بعدما سألها من ابن عمر فأرسلها له.. إذ لا ضرورة من استبقائها بعد وفاة الحارسة عليها الحافظة لما فيها رضي الله عنها.

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ١٨٤/١١، والسمط الثمين ٨٣.
(٢) تاريخ الطبري:٩/٣.
(٣) طبقات ابن سعد ٨٤/٨، والاستيعاب لابن عبد البر ٢٦٩/٤، والمستدرك للحاكم ١٥/٤.
(٤) أخرجه أبو داود كتاب الطب باب في الرقى رقم:٣٨٦٩ورجال إسناده رجال صحيح إلا إبراهيم بن مهدي وهو ثقة،وأخرجه أحمد في مسنده (٣٧٢/٦) والحاكم في المستدرك ٥٧/٤ وقال صحيح.
(٥) [أخرجه الإمام مسلم في صحيحه – كتاب السلام (٦٤) – برقم (٢٢٠٠) ، وأبو داوود في سننه – كتاب الطب (١٨) – برقم ٣٨٨٦].
(٦) رواه الإمام أحمد.
(٧) [المعجم الكبير للطبراني ٢٨/١٧ حديث ١٨٨٣١].
(٨) في سنة وفاتها خلاف بين من يقول سنة ٤١هـ ، ومن يقول سنة ٤٥هـ ، وترجح الدكتورة عائشة عبد الرحمن سنة وفاتها ٤٧هـ . أنظر : تراجم سيدات بيت النبوة الطبعة الأولى، القاهرة دار الريان للتراث ١٩٨٧، ص٣١٤، والطبقات والاستيعاب والإصابة، وعيون الأثر.

الفصل الحادي عشر

أمنا زينب .. أم المساكين

كضوء الفجر الوليد الهارب من ظلمة الليل الراحل، دخلت بيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكآخر شعاع من الشمس حين يحتويها شفق المغيب، كان خروجها من بيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، إنها المقبلة المدبرة معًا، والقادمة الراحلة معًا :السيدة زينب بنت خزيمة الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية، أم المساكين في الجاهلية، وفي الاسلام، اتسع قلبها لكل المساكين قبل ظهور الإسلام وبعده؛ إذ كان قلبها ـ رضي الله عنها ـ كالواحة التي يستظل به من أعوزته الحاجة، ويهرع إليه من أكلته الفاقة، وهيّ المعطاءة لا تمنع مالها عن أحد، لا طمعًا في شهرة، ولا حبًا في سمعة، فلصدقها في العطاء بلا مَنٍ ولا ابتغاء مديح، توجوها على القلوب في الجاهلية كما في الاسلام بلقب :"أم المساكين".

سبق زينب في الانضمام للعيش تحت سقف البيت النبوي عائشة البكر الوحيد حين تزوجها ـ صلى الله عليه وسلم ـ، كما سبقها من أزواج الرسول ممن كنّ أزواجًا لشهداء الصحابة، مثل: سودة بنت زمعة، وحفصة بنت عمر التي لم يكد يدخل بها حتى ضم إليها زينب التي فارقها زوجها الشهيد القرشي ومن أوائل المهاجرين عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف الذي قتل يوم بدر.

دخلت زينب البيت النبوي في رمضان في السنة الثالثة من الهجرة المباركة، في زواج شكلي، هاديء، لم يحس بوجودها أحد، لا فى حياتها ولا بعد مماتها؛ إذ كان عمر زواجها من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قصير مُختَلفٌ في مدته بين الثلاثة إلى الثمانية أشهر، لذا فلم يكن هناك مايروى عن حياتها، كما لم تطلها ألسنة المنافقين، أو الحاقدين على رسول

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ولا انتبهت إليها بعد مماتها أقلام المستشرقين المسمومة إلا من حيث احصاؤهم لها في عدد من دخل بهنّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ استكثارًا للطعن في نبوته، كعهدهم الدائم في إيراد الشبهات السقيمة للتشويش والتنقيص.

يشهد لها كل من تناول سيرتها ـ رضي الله عنها ـ بالطيبة والكرم، لذا فقد كرمها الله الكريم ـ تعالى ـ بزواجها من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كرمها بكرامةٍ أخرى تختص بها وحدها، لم تنلها حتى أحب أزواجه إليه السيدة خديجة، بأن صلى عليها ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلاة الجنازة التي لم تكن قد شُرِعَتْ في زمن خديجة، وشرعها الله بعد ذلك في السنة الأولى من الهجرة لتكون السيدة زينب هيّ الزوج الوحيد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي يصلي عليها صلاة الجنازة عند موتها في ربيع الآخر سنة أربع هجرية عن عمر ناهز الثلاثين عامًا(١).

متعها الله تعالى بأشهر قلائل في جوار خير خلقه عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هيّ بالعمر كله، وأحسن ختامها؛ إذ ماتت وهيّ زوج خير العالمين، وسيد المرسلين، وخاتم النبيين، وماتت عنه وهو راضٍ عنها، لتكون بذلك ثاني امرأة من أزواجه بعد خديجة فراقًا له فى حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورضي الله عن أمنا أم المساكين، وعن سائر أمهاتنا أمهات المؤمنين.

(١) كما ذكر "الواقدي" ونقل "ابن حجر" في الإصابة.

الفصل الثاني عشر

السيدة أم سلمة

أول المهاجرات وآخر الراحلات

يتحير قارىء سيرتها من أين يبدأ؛ فكل فصلٍ من فصول حياتها يستحق التأمل والإشادة؟.. أيبدأ من اللحظة الفارقة بين الكفر والإيمان حين أعلنت اسلامها وهجرتها الأولى مع زوجها عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ابن عمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأخوه من الرضاعة إلى الحبشة فرارًا بدينهما، لتبدأ رحلة المعاناة في الغربة، والعيشة الصعبة، وهيّ بنت سيّد من سادات قريشٍ المعدودين والمشهورين بالكرم وشدّة السخاء حتى لُقّبوه: "زادُ الراكب"؛ إذ كان يمنع من يرافقه في سفره من التزوّد لرحلته، ويكفيه هو مؤونة ذلك؟!

أم يبدأ معها من بداية هجرتها وزوجها إلى المدينة واقتتال قومها بنو المغيرة مع قوم زوجها بنو عبد الأسد، فهؤلاء يمنعون ابنتهم من السفر مع زوجها، وهؤلاء يصرون على الاحتفاظ بابنها لأنه ابن ابنهم، فيتجاذبون الولد بينهم حتى خلعوا يده، ليفوز به بنو عبد الأسد ويرحلوا، لتبقى وحيدة تعاني فراق الزوج الراحل بعيدًا عنها، والشوق المضني إلى الولد القريب منها والمحرومة من رؤياه؟!

أم يبدأ معها من حيث انطلاقها إلى المدينة وابنها برفقتها بعدما رأف أهل زوجها بحالها بعد عام تقريبًا؛ فكانت بذلك أول امرأة تدخل المدينة مهاجرة لله ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - وقد هيأ الله لها سادن الكعبة وحاجبها عثمان بن طلحة الذي أصر على مرافقتها وهو لم يزل بعد على شركه لكن أبت عليه نخوته وأرومته إلا يتركها وابنها في مهب الريح حتى تصل إلى زوجها، ثم استشهاد أبو سلمة بعد شهورمن إصابته فى غزوة أحد بجرح عميق(١)، ليفارقها وحيدة حولها أربعة من أولاده وهم: برة، وسلمة، وعمر، ودرة؟!

ينتهي بوفاة أبي سلمة ـ رضي الله عنها ـ القسم الأول من حياة أم المؤمنين أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشية المخزومية، ليبدأ القسم الثاني من حياتها بسؤال كبير منها: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ : ''مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إلا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا''، قَالَتْ : فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أبي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

وتأتيها الإجابة بعد أن استرجعت من مصيبتها برسول يأتيها من عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة يخطبها له، فقالت متعللة: "إِنَّ لِي بُنَيَّةً، وَأَنَا غَيُورٌ"، فيأتيها جواب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطمئنها في حنوٍ وحسم : ''أَمَّا ابْنَتُهَا فَنَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُغْنِيَهَا عَنَّا، وَأَمَّا الْغَيْرَةُ فَأَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَذْهَبَ بِالْغَيْرَةِ''(٢). فقالت: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيرًا منه رسولَ الله(٣).

والحديث عن أم سلمة متسعٌ كالبحر.. مستحيل أن تبلغ سواحله؛ فقد حباها الله قدرًا كبيرًا من الحكمة ورجاحة العقل، يبدوان في سديد رأيها إذا استشيرت، وتتبدى حكمتها أكثر حين تنتج هذه الحكمة آثارها في الأزمات العميقة بل العاصفة كتلك التي بلغت من هولها هول وصف الرسول لها ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قول لم يكد يصادفه قارىء سيرته حين يصرح بهلاك المسلمين، وذلك حين صحبته ـ رضيّ الله عنها ـ في شهر ذي القعدة من العام السادس الهجري في رحلته إلى مكة المكرمة معتمرًا،ثم منعته قريش وأصحابه من دخول مكة، فعقد ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلح الحديبية معهم، هذا الصلح الذى لم يرضَ عنه بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لظنهم أنه يبخسهم حقهم، ورأوا في قبوله قبول الدنية على دينهم، وهنا أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم: ''قوموا فانحروا واحلقوا وحلّوا''، فلم يجبه أحد إلى ذلك، فرددها ثلاث مرات فلم يفعلوا.. فدخل على أم سلمة وهو شديد الغضب، فقالت: ما شأنك يا رسول الله؟، قال: ''هلك

المسلمون،أمرتهم فلم يمتثلوا"، فقالت: "يا رسول الله، لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح، ورجوعهم بغير فتح". ثم أشارت عليه أن يخرج ولا يكلم منهم أحدًا، وينحر بُدنَهُ ويحلق رأسه، فخرج ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يكلم أحدًا حتى قام فنحر بُدنَهُ ، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الصحابة ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا(٤).

لعل من أهم الحكم البالغة في تعدد أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أن لكل منهنّ دور أديتّه بمنتهى المهارة والجسارة والإخلاص لله ـ تعالى ـ ولرسوله، والمتتبع لسيرتهن من السيدة الأولى من أزواجه ودورها في مساندة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند بداية تأسيس هذا الدين وغرسه في بيئة مكة وما حولها، ثم مهمة من تلاها من أزواجه ـ رضوان الله عليهنَ ـ عند تأسيس دولة الإسلام وإرساء قواعدها في المدينة، والجهاد لنشرها في العالمين، ثم هذه المهمة الصعبة بالغة الجسامة التي تقوم بها أم سلمة في حماية بيضة الإسلام من الهلاك وحماية خير أجناد الأرض، الذين بلغوا الألف وربعمائة رجل، من غضبة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ممن الممكن أن تسترضيه بمشاركته غضبه عليهم، وهنا تكمن الحكمة الثانية من حكم تعدد أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهيّ الحكمة التعليمية التي تتلقاها المرأة المسلمة عبر العصور والأجيال حين تسترشد بهذا الصنيع في حماية بيتها وزوجها عندما تستل سخيمة نفسه، ولا تساعد في إشعال أوار غضبه.. ولو لم تفعل ذلك بحصافة رأيها فما الذي كان سيؤول إليه تاريخ الإسلام والمسلمين؟!

أذهبَ اللهُ عن السيدة أم سلمة غيرتها بفضل دعاء النبي لها، ففرّغ قلبها من سفاسف الأمور، ولذا فقد كان لها القدر والمكانة عند رسول الله ـ صلى الله عليها وسلم ـ إذ كان يبتديء بها عند دخوله على نسائه، ذلك فيما ترويه السيدة عائشة :"كان رسول الله إذا صلّى العصر دخل على نسائه واحدة واحدة، يبدأ بأمّ سلمة ـ رضيَ الله عنها ـ لأنها أكبرهنَ، وكان يختم بي"(٥).

كانت ـ رضى الله عنها ـ جميلةً خُلقًا وخِلقةً، مدرسة كبيرة في شتى المناحي؛ فهيً المحدثة، المفتية، الفقيهة، السديدة والمصيبة في الرأي والمشورة، الصابرة، الزوجة الصالحة، الأم الطيبة، الحازمة، القائمة بأمر وتربية أولادها، المتتلمذة في جامعة النبوة.

عاشت السيدة أم سلمة حتى بلغت التسعين من عمرها (٦) وكانت قد أوصت أن يصلي عليها سعيد بن زيد خشية أن يصلي عليها مروان بن الحكم غير أنه مات قبلها،وقد انتقلت إلى جوار ربها تعالى في زمن يزيد بن معاوية سنة اثنتين وستين هجرية وهو الأرجح إذ عاشت في العام الذي سبق وفاتها حزينة على مقتل الحسين سبط الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودفنت ـ رضيّ الله عنها ـ بالبقيع ولم يُصلِ عليه أبا هريرة كما تذكر بعد المصادر إذ مات قبلها .. فكانت بذلك آخر الراحلات من أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورضيّ الله عنها وعن سائر أمهاتنا المؤمنين.

(١)ابن الأثير: أسد الغابة ١٩٠/٣.
(٢)صحيح مسلم ٢ : ٦٣١/ ٩١٨.
(٣) ابن كثير: السيرة النبوية ١٧٥/٣.
(٤)ابن كثير: السيرة النبوية ٣٣٤/٣، ٣٣٥.
(٥)الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ١٧٠/١١.
(٦)ابن حجر: تهذيب التهذيب ٤٨٣/١٢.

الفصل الثالث عشر

السيدة زينب : أول اللاحقات بالنبي صلى الله عليه وسلم

يختلط ترتيب بعض المواقف التاريخية في السيرة النبوية على بعض من يقرأونها، ويتجلى هذا الخلط في ترتيب حادثة الإفك وزواج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من السيدة زينب بنت جحش، وربما كان عذرهم في هذا أن حادثة الإفك تتضمنها غالبًا سيرة السيدة عائشة وهيّ الأسبق من السيدة زينب من حيث ترتيب أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ إذ تزوج الرسول الأخيرة في ذي القعدة من العام الخامس الهجري، بينما وقعت حادثة الإفك في شعبان من العام السادس الهجري.

تأتي هذه المقدمة تأصيلاً لما قد يقع فيه الظن من أن أول مواجهة للبيت النبوى مع أراجيف وكيد المنافقين بالمدينة كانت إبان حادثة الإفك، وهو ما يصبح ـ بعد ما تقدم ـ مغلوطًا، فقد فتح زواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من السيدة زينب بنت جحش على الرسول والإسلام والمسلمين بوابة ضخمة من التشكيك، واللمز، ودس المنافقين ربما ما يوازي حادثة الإفك وأكثر؛ إذ انحصرت الأخيرة في التشكيك في مسلك زوج تنتسب لنبي وإن تركت آثارها في المجتمع الإسلامي الوليد، بينما كان زواجه من زينب حدثًا زلزل قواعد البنيان الإجتماعي للمجتمع العربي المستقر على عاداته وتقاليده كعادة التبني المتجذرة في الواقع بجغرافيته والممتدة في تاريخه، والمتوارثة في الوعي الجمعي عند الكافة، بحيث كان القول بإبطالها يشكل صدمة لأنه لم يتتبع التدرج التشريعي كما في تحريم الخمر، فكان بمثابة خط مسار جديد لم يألفوه، ومحو مسار قديم محفور بل منحوت في جدران عقولهم .

إن الذين يتناولون قصة زواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ باعتبارها شبهة يجب الرد عليها، أو منقصة للخلق النبوي الكريم عياذا بالله، يتناسون أن زينب كانت قريبته يعرفها ويراها وتعرفه جيدًا قبل زواجها من زيد، الذي خطبها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ له، وتململت ورفضت، كما رفض أخوها عبدالله؛ إذ قالت زينب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : "لستُ بناكحته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ''بلى فانكحيه''، قالت: يارسول الله أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ

وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾، فقالت زينب: قد رضيته لي يارسول الله مُنكحًا؟، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعم"، قالت: إذًا لا أعصي رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنكحتهُ نفسي"(١).

والواقع يشهد أنه لا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا زيد أيضًا كانت لهما أيُ رغبةٍ في الزواج من زينب، بل معظم زيجات زيد كانت من اختيار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وليراجع من شاء قصص تزويج الرسول له من أم كلثوم بنت عقبة، وأم أيمن بركة الحبشية، ولهذا فلم يكن زيد يعلم عن أمر زواجه من زينب شيئًا، وليس أدل على هذا من حديث زينب نفسها حين خطبها عدّة من قريش فأرسلت أختها حمنة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستشيره، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :"أين هي ممن يُعلّمها كتاب ربّها وسنّة نبيها ؟"، قالت حمنة: ومن هو يا رسول الله؟، قال :"زيد بن حارثة"، فغضبت حمنة غضبًا شديدًا، وقالت: يا رسول الله! أتزوج ابنة عمّتك مولاك؟!". بل أن المهر الذى ساقه زيد بن حارثة إلى بني جحش وهو عشرة دنانير وستين درهمًا، ودرعًا وخمارًا وملحفة وإزارًا، وخمسين مُدًا من الطعام، وعشرة أمداد من التمر كان من عطاء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياه.

دخل زيد بزينب، ليعيشا معًا قرابة العام وبعض العام، كثرت في رحلة الحياة الزوجية القصيرة المنغصات بين الزوجين، وانفرد زيد ببث مواجعه وشكاواه من استعلاء زينب عليه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ذلك لما تحمله في نفسها من نظرة عربية تجعل لعراقة النسب مكانًا ومكانة، فهى زينب بنت جحش بن رياب بن يعمر بن مرة بن كثير بن غنم بن دوران بن أسد بن خزيمة، الناشئة فى بيت شرفٍ ونسب، بينما زوجها زيد غلامًا معتوقًا وهيّ سيدة أبناء عبد شمس، الأفضل منه حسبًا ونسبًا.

ما كان أهون على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينزل على رغبة زيد في تطليقها ولكنه كان يأمره بالتمهل وأن يمسك عليه زوجه، مع كون

الآيات التي نزلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تئن الجبال من حملها إذ فيها يخبر الله ـ تعالى ـ رسوله بأن زينب ستكون له زوجة بعد طلاقها من ربيبه زيد، وليس عليه أن يخفي هذا الأمر الإلهي لأن الله مُبديه.

لم يكن أمر زواج المتبني من زوجة متبنيه عند العرب بالأمر الهين أو إذا شئنا الدقة أمر يوصف بالخروج عن الأعراف والتقاليد العربية المستقرة؛ إذ كان التبني معروفاً عندهم، وكان من تبنى غير ولده ينسب إليه ويرثه ويخلو بزوجته وبناته، ويحرم على المتبنى زوجة متبناه، وعادة التبني وإن لم يكن يقرها جيران العرب من اليهود بالمدينة لرفض توراتهم وشريعتهم لها، لكنها كانت شائعة بين اليونانيين والرومانيين وغيرهم من الشعوب آنذاك، ولم تحرمه المسيحية كديانة، ولجأ إليه العرب كحاجة مجتمعية وفطرية في حب الأولاد كحالة اليأس من الإنجاب والاستعانة بهم ساعة الحرب، والتجارة وغيرها.

إذن فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لن يهدم عادة عربية مجتمعية متجذرة وحسب، بل سيأتي أمرًا عندهم منكور وهو زواجه من مطلقة ابنه بالتبني، وهذا ماتنتظره ألسنة المنافقين والمشركين واليهود ليذيعوا به ويؤلبوا به العرب عليه من المدينة وخارجها، أن رسول المسلمين أتى شيئًا إدا سيهد قواعد هذا الدين هدا.

لما رأى الله ـ تعالى ـ من حال رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عاتبه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾(٢).

عن أنس بن مالك قالَ: لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ زَيْنَبَ قالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِزَيْدٍ: "فَاذْكُرْهَا عَلَيَّ". قالَ: فَانْطَلَقَ زَيْدٌ حَتَّى أَتَاهَا وَهْيَ تُخَمِّرُ عَجِينَهَا قالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي حَتَّى مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ذَكَرَهَا فَوَلَّيْتُهَا ظَهْرِي وَنَكَصْتُ عَلَى

عَقِبِي فقُلْتُ: يَا زَيْنَبُ أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَذْكُرُكِ. قالَتْ: مَا أَنَا بِصَانِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أُوَامِرَ رَبِّي. فقامَتْ إِلَى مَسْجِدِهَا وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَدَخَلَ عَلَيْهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ"(٣).

أيكون ربيب النبى أشد حياءً من النبى نفسه الذي علمه ورباه؟! مالهم كيف يحكمون؟، وقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأشد حياءً من العذراء في خدرها، وهو الذى أمر أتباعه بغض البصر فى أحاديث مشهورة :"يَا عَلِيٌّ لَا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ"(٤) و"العينان تزنيان وزناهما النظر"(٥)، فيولى زيد ظهره لزينب بينما عندما يأتى رسول الله ليزور زيد ابنه فلم يجده ووجد زوجه فنظر إليها فأعجبه حسنها!!

رسول الله الحيي حتى في منامه ألا يكون حييًا في يقظته؟!.. رسول الله الحيي مع أصحابه ألا يكون بالأحرى حييًا مع ربيبه ومتبناه؟!

حدثنا سعيد بن عفير حدثني الليث حدثني عقيل عن ابن شهاب قال: أخبرني سعيد بن المسيب أنّ أبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قالَ بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إِذْ قالَ: "بَيْنَا أنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الْجَنّةِ فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضّأُ إِلَى جَانِبِ قصْرٍ فقُلْتُ لِمَنْ هَذَا الْقصْرُ فقالُوا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطّابِ فذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ فوَلّيْتُ مُدْبِرًا"، فبَكَى عُمَرُ بن الخطاب ثم قال: أَعَلَيْكَ بأبي أنت وأمي يَا رَسُولَ اللّهِ أَغَارُ "(٦).

لقد كانت زينب ابنة عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمامه ويراها فلم يكن هناك حجابًا بعد، ويعلم أنها حسناء وضيئة فما الذي زاد عليها في عام، وهل يخالف النبى ـ حاشَ لله ـ ما يأمر به أتباعه من المؤمنين، فيأمرهم بالغض وينظر؟! .. فالذى يُروى في ذلك لم يثبت من طريق صحيح، والأنبياء أعظم شأنا، وأعف نفسًا، وأكرم أخلاقًا، وأعلى منزلةً وشرفًا من أن يحصل منهم شيء من ذلك(٧) ، وقد اجترأ بعض المفسرين في تفسير هذه الآية، ونَسَبَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يليق به، ويستحيل عليه، إذ قد عَصَمَه الله منه، ونزَّهه عن مثله، أو مُسْتَخِفٍّ بحرمته، والذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء

الراسخين أن ذلك القول الشنيع ليس بصحيح، ولا يليق بذوي المروءات، فأحرى بخير البريات(٨).

ضم البيت النبوي الزوجات الخمس كلٌ في حجرتها نسوة من البشر يحملن أخلاق البشر من نوازع ومخاوف، ومثلما تغار الزوجة السابقة من اللاحقة هكذا تحسبت السيدة عائشة من قدوم السيدة زينب - رضي الله عنهما - لجمالها ونسبها فأعلنت عن ذلك: " فَأَخَذَنِي مَا قَرُبَ وَمَا بَعُدَ لِمَا يَبْلُغُنَا مِنْ جَمَالِهَا، وَأُخْرَى هِيَ أَعْظَمُ الأُمُورِ وَأَشْرَفُهَا مَا صُنِعَ لَهَا، زَوَّجَهَا اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ، وَقُلْتُ: هِيَ تَفْخَرُ عَلَيْنَا بِهَذَا "(٩)، وصدق قول عائشة وكان هذا الزواج السماوي موضع مفاخرة زينب ومباهاتها بين لداتها :"زوّجكُنّ أهاليكنّ، وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سموات" (١٠) وكان أكثر تلك المباهاة ما يدور ما بين عائشة وزينب وحضرت طرفًا منه أم سلمة وروته لابنتها زينب حين كانت أم سلمة تتذكر بنت جحش وتترحم عليها، فكانت مما نقلته قول زينب بنت جحش لعائشة : "إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَنَا كَأَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِنَّهُنَّ زَوَّجَهُنَّ بِالْمُهُورِ وَزَوَّجَهُنَّ الأَوْلِيَاءُ، وَزَوَّجَنِي اللَّهُ رَسُولَهُ، وَأَنْزَلَ فِي الْكِتَابِ يَقْرَأُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ لا يُبَدَّلُ وَلا يُغَيَّرُ" فتثبت عائشة لزينب أنها ليست وحدها المذكورة في كتاب الله: "أَنَا الَّذِي نَزَلَ عُذْرِي فِي كِتَابِ اللَّهِ".

ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد بينهما - رضيّ الله عنهما - فقد تلاه مواقف، ولقد ذكرت في موضع سابق أن البيت النبوي لم يكن بيتًا طوباويًا مقدسًا، بل كان بيتًا بشريًا خالصًا، ولو أراده الله مقدسًا لكان ولكن الغاية من نشر ما فيه هو تعليم المسلمين والاقتداء بما يدور فيه من مثل أحداث تلك الغيرة الفطرية المركوزة في الطبيعة البشرية، وكيف تعامل الرسول - صلى الله عليه وسلم - في تهذيب آثارها لأنه علم أنها أشد ما تكون في جبلة النساء وخاصة الضرائر، ولكن كان الفارق الأخلاقي والإيماني في التعامل بين الأزواج الصحابيات، أمهات المؤمنين، ربيبات البيت النبوي، وتلامذة المدرسة المحمدية لم يكن البغض أو الكره أو العداوة، أو إيقاع الضرر بينهن، ويتبدى ذلك حين وقعت حادثة الإفك في العام السادس الهجري وكانت لوقعها ثقل عنيف على البيت النبوي، والمجتمع الإسلامي في المدينة، فماذا كان موقف زينب بنت جحش من عائشة؟.. أثنت عليها،

وذلك حين طلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأيها في تلكم الحادثة، فقالت: "يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلا خيرًا"، وفي المقابل لم تكن تحكي عنها عائشة ولا تذكرها إلا بكل الخير: "فأرسل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم وهي التي كانت تساميني [تفاخرني] منهن في المنزلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أر امرأة قط خيرًا في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدّق به وتقرّب به إلى الله تعالى ما عدا سوْرة من حِدّة كانت فيها، تُسرع منها الفيئة"(١١)، وما تقصده عائشة من سورة زينب وسرعة فيئها هو إثبات كمال الأوصاف فيها مع سرعة الغضب والعودة عنها سريعًا دون الإصرار عليه وهو ما لايعد نقيصة فيها.

ولم تكن هذه كل مناقب أمنا زينب التي ذكرتها عنها أمنا عائشة ـ رضيّ الله عنهما ـ فحينما ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن أول من تلحق به من أزواجه الطاهرات أطولهن يدًا، وكانت زينب، عزت عائشة هذا إلى أن زينب "كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا وَتَصَدَّقُ"(١٢) و "كانت امرأة صناعة اليد فكانت تدبغ وتخرز وتتصدق في سبيل الله عز وجل"؛ إذ "كانت تغزل الغزل وتعطيه سرايا النبي – صلى الله عليه وسلم – يخيطون به ويستعينون به في مغازيهم"(١٣) .

عاشت بعد وفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما عاشت في حياته على التعبد، والتصدق على الأيتام، وأهل الأرحام، حيث كانت توزع فيئها الذي يبلغ اثنى عشر ألف درهمًا عليهم، ولم تفرح به، وما ظنت أن كل هذا الفيء يخصها، بل حسبتهم يطلبون منها تقسيمه، ولمّا علمت أنه لها، وزعته كما ذكرنا، ثم رفعت أكفها بالدعاء لربها أواهةً منيبة: "اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا"(١٤) فبلغ عمر فقال: "هذه امرأة يُراد بها خير". فوقف عليها وأرسل بالسلام وقال: "بلغني ما فرَّقت"، فأرسل بألف درهم تستبقيها! أي لنفقتها اليومية في البيت، فسلكت به ذلك المسلك أي فرَّقتها أيضًا(١٥).

واستجاب الله حر دعائها، فلم تكد تبلغ الخمسين أو فوقها بثلاث من السنة العشرين من الهجرة في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب حتى وافتها المنية فصَلَّى عُمَرُ عَلَيها، ودُفِنتْ بالبقيع.

قالت عائشة تنعيها :"لقد ذهبت حميدة، متعبدة، مفزع اليتامى والأرامل(١٦)**".**

عن عثمان بن عبدالله الجحشي قال: "مَا تَرَكَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ دِينَارًا، وَلا دِرْهَمًا، كَانَتْ تَتَصَدَّقُ بِكُلِّ مَا قدَرَتْ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ مَأْوَى الْمَسَاكِينِ، وَتَرَكَتْ مَنْزِلِهَا، فَبَاعُوهُ مِنَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ حِينَ هُدِمَ الْمَسْجِدُ، بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَم" (١٧)**.**

رحم الله أمنا زينب - رضيّ الله عنها - الحميدة، المتعبدة، الأواهة، المتصدقة، النافعة، الصانعة، مفزع اليتامى، وواصلة الأرحام، الزاهدة، المشتاقة للقاء ربها.

(١) تفسير ابن كثير ج: ٣ ص:٤٩٠١٩٠.
(٢) سورة الأحزاب: (٣٧).
(٣)رواه مسلم (النكاح،٢٥٦٧).
(٤) قال الألباني حديث حسن رواه أحمد وغيره.
(٥)أخرجه البخاري ومسلم وأحمد من طريق ابن عباس

(٦) صحيح البخاري ["كتاب التعبير" ، "باب القصر في المنام" (٦٦٢٠)].

(٧)الشيخ عبد العزيز بن باز ، الشيخ عبد الرزاق عفيفي ، الشيخ عبد الله بن غديان ، الشيخ عبد الله بن قعود فتاوى إسلامية " (١٨ / ١٣٧ ـ١٤١).

(٨)أبو العباس القرطبي في "المفهم" (٤٠٦/١).

(٩)الطبقات الكبرى لابن سعد رقم الحديث: ٩٩١٦.

(١٠)أخرجه البخاري من حديث أنس، كتاب التوحيد (٦٩٨٤) ، روى مسلم (١٧٧) عن عائشة رضي الله عنها مثل قول أنس رضي الله عنه.

(١١) متفق عليه . تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٦١ ، الإستيعاب ٤ / ١٨٥٠ ، وأسد الغابة ٧ / ١٢٦ .
(١٢) صحيح مسلم (٢٤٥٢).
(١٣) المعجم الأوسط للطبراني(٦٤٤٥).
(١٤)ابن سعد في الطبقات (٣٠٠/٣).
(١٥)**رواه ابن سعد في الطبقات** (١١٠/٨).
(١٦)الإصابة: (٦٧٠/٧).
(١٧) (١١٤/٨) الطبقات الكبرى.

الفصل الرابع عشر

أم المؤمنين الخزاعية المصطلقية:

جويرية بنت الحارث

يشغل الأفاكون أذهان الناس بما يشيعون من إفكهم حول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزواجه المتعدد، ويصورونه كرجل لا هم له إلا الانتقال من فراش امرأة إلى امرأة أخرى .. وقد كذبوا ..

لم يكد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأنس بزينب بنت جحش آخر أزواجه في العام الخامس الهجرى، حتى أتت الأحداث عاصفة تباعًا، فمع انتصاف نفس العام داهم الأحزاب المدينة وحاصروها، ليعيش أهلها أيامًا قاسية، تتلوها أحداث حصار يهود بني قريظة.

ومع بواكير العام السادس يغزو الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بني لحيان في ربيع الأول أو جمادى الأولى مع مائتين من أصحابه ثم يتبعها غزوة ذى قرد، ولم يمرالشهر أو بعضه، حتى يبلغه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن بنى المصطلق- وهم حيٌ من خزاعة - يجمعون الجموع لقتاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقيادة زعيمهم الحارث بن أبى ضرار.

لم يكن غزو بني المصطلق(١) في خطط الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل دُفع إليه دفعًا لمّا علم بخروج القوم عليه، ولم يكن يعرف سيد المصطلقيين الحارث بن ضرار، ولا يعلم بالتالي إن كان له ابنة، ويبقى أن هذه الغزوة على قدر هوان أمرها العسكري، بقدر جليل شأنها من نواحي أخرى عديدة.

بدأ القتال وانتهى بنصر المسلمين وسيقت نساء الخزاعيين سبايا كشأن المهزوم في المعارك، ومنهن ابنة زعيمهم جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن جذيمة الخزاعية المصطلقية، وكانت متزوجة من ابن عم لها يقال له مسافع بن صفوان، الذي قُتل أثناء هذه الغزوة، فكانت من نصيب ثابت بن قيس فكاتبها على مبلغ من المال ثمنًا لعتقها، فذهبت جويرية لتجمع ثمن حريتها من الأسر وهى السيدة فى قومها، فكيف تقاد لتكون سبيًا لرجل لم تعرف عنه شيئًا، وفي سعيها لجمع مال المكاتبة سمعت الكثيرعن قائد جيش المسلمين،

وخلقه، وكرمه، ونسبه، ولمّا لم تفلح في سعيها، حادثتها نفسها بالذهاب إليه، وعرض مسألتها عليه، لعلها تجد عنده حلاً .

وقفت جويرية الأسيرة ذات العشرين ربيعًا أمام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حضور زوجه عائشة، تعرض مشكلتها لا لتعرض نفسها رغم ملامحها الجميلة، التى تبهر لب كل ذي عقل ونظر، فقالت: " يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، فوقعتُ في السهم لثابت بن قيس بن الشماس ـ أو لابن عمٍّ له ـ فكاتبتُه على نفسي، فجئتُك أستعينُك على كتابتي. قال: ''فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟'' قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: ''أقضِي عَنْكِ كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ''. قالت: نعم يا رسول الله. قال: ''قَدْ فَعَلْتُ''(٢).

قد يحدث أحدٌ نفسه بأن جويرية لم يكن أمامها خيار في أن ترفض فقبلت، وهذا اتهام لخلق الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ولو لم يكن ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم أنه وقع منها مثل ما وقع في نفسه ماعرض هذا عليها، وربما كان سرعة قبولها مرده تلك الرؤيا التي رأت فيها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل قدومه بثلاث ليالٍ، كأنَّ القمر أقبل يسير من يثرب حتى وقع في حجرها، و كرهتُ أن تخبر بها أحدًا من الناس، حتى قدِم رسول الله، تقول جويرية: " فلمَّا سُبينَا رجوتُ الرؤيا، فلمَّا أعتقني وتزوَّجني، والله ما كلَّمته في قومي حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم، وما شعرتُ إلاَّ بجارية من بنات عمِّي تخبرني الخبر، فحَمِدت الله"(٣). ثم أن جويرية اختارت، وذلك فيما رواه ابن سعد في الطبقات أنه لما وقعت جويرية بنت الحارث في السبي، جاء أبوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنَّ ابْنَتِي لا يُسْبَى مِثْلُهَا، فَأَنَا أَكْرَمُ مِنْ ذَاكَ فَخَلِّ سَبِيلَهَا، قالَ :''أَرَأَيْتَ إِنْ خَيَّرْنَاهَا، أَلَيْسَ قَدْ أَحْسَنَّا؟''، قالَ : بَلَى، وَأَدَّيْتَ مَا عَلَيْكَ، قَالَ : فَأَتَاهَا أَبُوهَا، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ خَيَّرَكِ فَلا تَفْضَحِينَا، فَقَالَتْ : فَإِنِّي قَدِ اخْتَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حين نظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جويرية باعتبار كونها أسيرة، ولو كانت حرة ما فعل، ولهذا ذهبت مخاوف عائشة الفقيهة بأحكام

الدين حين قالت:"وَكَانَتْ امْرَأَةً حُلْوَةً مُلَاحَةً [حسنة المنظر حسنة المنطق] لَـا يَرَاهَـا أَحَدٌ إِلَّـا أَخَذَتْ بِنَفْسِـهِ". فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم لتستعينه في كِتابتها، قالت عائشة: "فَوَاللَّـهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا عَلَى بَابِ حُجْرَتِي فَكَرِهْتُهَا وَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَرَى مِنْهَا مَا رَأَيْتُ"، إذن فلو كانت جويرية حرة لاطمأنت عائشة نفسًا من أن يملأ الرسول عينه منها، إلا أن تتجه نيته إلى نكاحها.

قال السهيلى: "وأما نظره عليه السلام لجويرية حتى عرف من حسنها ما عرف، فإنما كان ذلك لأنها امرأة مملوكة، ولو كانت حرة ما ملأ عينه منها .. وجائز أن يكون نظر إليها لأنه أراد نكاحها .. وقد ثبت عنه ـ عليه السلام ـ الرخصة في النظر إلى المرأة عند إرادة نكاحها"(٤).

لم يدخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجويرية إلا بعد أن أسلمت، وأصدقها، وخطبها من والدها الذي افتداها؛ إذ لمّا أنصرف ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الغزوة ومعه جويرية دفع بها كوديعةٍ إلى رجل من الأنصار، وأمره بالاحتفاظ بها حتى قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة. فأقبل أبوها الحارث بن أبي ضرار بفداءها فأسلم وأسلم معه ابنان وناس من قومه، ودُفِعَتْ إليه ابنته جويرية فأسلمت، وخطبها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أبيها فزوجه إياها (٥).

دائمًا ما نبحث عن السبب وراء كل زيجة من زيجاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وترتاح نفوسنا كثيرًا حين يتزوج الأرمل والأكبر منه سنًا، أويقترن بأزواج التي استشهد رجالهن فى الحرب، ونقبل أن يتزوج الأقل جمالاً، ونأتي بالسبب السياسي، والسبب الاجتماعي وراء اقترانه من هذه أو تلك، وكأنه حرامٌ عليه أن يختار لنفسه، أو يهز طبيعته البشرية جمال امرأة، وهو حق مكفول لأقل رجل فى أمته.

وقد أحسن الشهيد سيد قطب (٦) ، بعد أن استعرض قصص أمهات المؤمنين حين قال : (وهكذا ترى أن لكل زوجة من أزواجه صلى الله عليه وسلم قصة وسببًا في زواجه منها. وهن فيمن عدا زينب بنت جحش،

وجويرية بنت الحارث، لم يكن شواب ولا ممن يرغب فيهن الرجال لجمال كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ هي أحب نسائه إليه. وحتى هاتان اللتان عرف عنهما الجمال والشباب كان هناك عامل نفسي وإنساني آخر - إلى جانب جاذبيتهن - ولست أحاول أن أنفي عنصر الجاذبية الذي لحظته عائشة في جويرية مثلا، ولا عنصر الجمال الذي عرفت به زينب فلا حاجة أبدًا إلى نفي مثل هذه العناصر الإنسانية من حياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليست هذه العناصر موضع اتهام يدفعه الأنصار عن نبيهم . إذا حلا لأعدائه أن يتهموه! فقد اختير ليكون إنسانًا. ولكن إنسانًا رفيعا. وهكذا كان. وهكذا كانت دوافعه في حياته وفي أزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على اختلاف الدوافع والأسباب).

كانت جويرية ـ رضى الله عنها ـ بركة على قومها بزواجها المبارك من سيد الخلق ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما الجديد في هذا؟.. فقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ بركة على كل من عرفه واتصل به في كل مراحل حياته، مثلما هو بركة على كل من آمن به إلى يوم الدين، قالت عائشة: "وَخَرَجَ الْخَبَرُ إِلَى النَّاسِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ فَقَالَ النَّاسُ أَصْهَارُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَرْسَلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ قَالَتْ فَلَقَدْ أَعْتَقَ بِتَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ فَمَا أَعْلَمُ امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا" (٧).

وبرغم قلة ما نقلته كتب الحديث من مروياتها، إلا أنه اشتهر عنها أنها كانت صوامة، ذكارة لله كثيرًا، تحلت بالصبر، وطول التعبد لله عز وجل، وليس أدل على هذا من الحديث الذي رواه ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: ''مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟''، قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: ''لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ''(٨).

وهذا الحديث الذي كانت فيه أمنا جويرية بركة علينا كما كانت بركة على قومها بطول عبادتها التي استخرجت مثل هذه الكلمات الطيبات - الخفيفات على اللسان، الثقيلات في الميزان، الحبيبات إلى الرحمن - من الفم النبوي الشريف، والتي لم نزل نرددها وسترددها الأفواه الطاهرة من أمة الحبيب - صلى الله عليه وسلم - إلى يوم الدين.

توفيت أمنا أم المؤمنين جُويرية في المدينة سنة خمسين، وقيل فى شهر ربيع الأول سنة ست وخمسين للهجرة وهي يومئذ ابنة خمس وستين سنة في إمارة معاوية، ودفنت بالبقيع، فصلى عليها مروان بن الحكم وهو يومئذٍ والي المدينة، فرضي الله عنها، وعن أمهات المؤمنين أجمعين.

(١)وقت الغزوة فيه خلاف بين أهل العلم على أقوال فقيل سنة ست قاله ابن اسحاق وابن جرير وابن حزم وابن عبدالبر وابن العربي وابن الأثير وابن خلدون.وقيل في شعبان سنة أربع وقال به ابن حزم أيضا وموسى ابن عقبه والبخاري وابن قتيبة والنووي وغيرهم.والقول الثالث ـ وهو أرجح ـ أنها في سنة خمس وممن قال به ابن القيم واسن سعد والبلاذري والذهبي وابن حجر وابن كثير وعامة المعاصرين. انظر فقه السيرة ٣٣٤،وصحيح السيرة ٢٤٥ وما بعدها.

(٢) حسن، رواه: أبو داود، وأحمد، وابن جرير، وأبو يعلى، والحاكم، والبيهقي.

(٣)أخرجه الحاكم من طريق الواقدي عن حزَام بن هشام عن أبيه نحوه، والواقدي عن عروة

(٤) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، السهيلي ص١٩،١٨.

(٥) سيرة ابن هشام ٢٤٦ / ٤.

(٦) في ظلال القرآن ص٣٤٩٥.

(٧) حسن، رواه: أبو داود، وأحمد، وابن جرير، وأبو يعلى، والحاكم، والبيهقي.

(٨) رواه مسلم ،كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التسبيح أول النهار وعند النوم (١١٥١ح ٢٧٢٦).

الفصل الخامس عشر

أم المؤمنين صفية "الهارونية"

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد عودته من الحديبية نحو الشهر وبعض الشهر ، بعد أن وقع مع قريش صلحًا أحد أهم بنوده أن لاتقوم الحرب بين الطرفين عشر سنين، فوجد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بثاقب فكره أن هذه الهدنة مناسبة تمامًا لكي يهاجم القوى التي لم تزل تشكل خطرًا على الإسلام والمسلمين، ويمثل تلك القوى يهود خيبر والقبائل الضاربة حولهم كبني غطفان.

لم يكن هذا التفكير من جانب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تفكيرًا عدوانيًا، وحبًا في سفك الدماء، وقتال المسالمين من الناس دون جريرة، أو لأنه أراد قتال يهود خيبر لكونهم يهود يخالفونه العقيدة، وتأديب كفارغطفان لأنهم لم يتبعوا الدين الجديد، إنما كان ذلك التفكير نتيجة لسبب أكبر أدى إلى هذه النتيجة، ألا وهو تآمر يهود خيبر مع بعض زعماء بني النضير لجمع القبائل العربية المختلفة لحرب المسلمين في المدينة المنورة، فيما عُرف بغزوة الأحزاب، باذلين المال لهم لاجتثاث شأفة المسلمين عن بكرة أبيهم، وتدبير المحاولة تلو الأخرى بالتضامن مع المنافقين لإغتيال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يطفئوا بذلك نور الإسلام إلى الأبد.

إذن فلم يكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبيتاً النية لغزو خيبر لأنه علم أن بينهم بنت سيد القوم امرأة جميلة تُدعى "صفية" هو أحق بها من زوجها، فالرسول حتى بعد أن نصره الله بفضله على خيبر لم يكن يعرف من هيّ صفية، بدلالة إنه لما أُسِرَت، وجُمِعَ السبي جاء دِحْيَةُ بن خليفة الكلبي، فقال: يا نبي الله، أعطني جارية من السبي. فقال: ''اذهَبْ فخُذْ جَاريَةً''. فأخذ صفيّة بنت حيي، فجاء رجل إلى النبي فقال: يا نبي الله، أعطيتَ دِحْيَةَ

صفية بنت حيي سيّدَةَ قريظة وبني النضير، لا تصلح إلاّ لك. قال: ''ادْعُوهُ بِهَا''. فجاء بها، فلمّا نظر إليها النبي قال: ''خُذْ جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ غَيْرَهَا''(١).

وكانت - رضي الله عنها- عروسًا حديثة عهد بالدخول، فأمر النبي بلالاً أن يذهب بها في رحلة، فمرّ بها وسط القتلى، فكره ذلك رسول الله، وقال: ''أَذَهَبَتِ الرّحْمَةُ مِنْكَ يَا بِلالُ؟''. وعرض عليها رسول الله الإسلام فأسلمتْ، فاصطفاها لنفسه، وأعتقها وجعل عتقها صداقها.

لم تكن صفية بعيدة عن الأحداث التي تمر بها قبيلتها ولا تلك التي تدور حولها، ولما لا فهى صفيّة بنت حُيَيّ بن أخطب بن شعبة بن ثعلبة بن عبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب بن النضير بن النحام بن تحوم من بني إسرائيل من سبط هارون بن عمران، وأمُّها بَرّة بنت سموءل، سيدة بني قريظة والنضير، أبوها حيي بن أخطب زعيم اليهود، وعالم من علمائهم، كان على عِلْمٍ بأن محمدًا نبيٌّ مرسل من قِبَلِ الله منذ قدومه إلى المدينة، لكن أخذته الأنفة والعصبية لكون محمدًا من العرب ،وقد علمت صفية بيقين أن هذا الذي ظهر ببلاد العرب هو النبي الحق الذي بشرت به الكتب السماوية، وذلك فيما ترويه قائلةً : "لم يكن أحد من ولد أبي وعمِّي أحبّ إليهما منِّي، لم ألقهما في ولد لهما قطُّ أهشّ إليهما إلاّ أخذاني دونه، فلمّا قدم رسول الله قُباء - قرية بني عمرو بن عوف- غدا إليه أبي وعمِّي أبو ياسر بن أخطب مغلِّسين، فوالله ما جاءانا إلاّ مع مغيب الشمس، فجاءانا فاترين، كسلانين، ساقطين، يمشيان الهوينى، فهششتُ إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظر إليّ واحدٌ منهما، فسمعت عمِّي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم، والله! قال: تعرفه بنَعْتِهِ وَصِفَتِهِ؟ قال: نعم والله. قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بَقِيتُ"(٢).

ويؤكد هذا إجابتها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين سألها بعد دخوله عليها لما رأى بأعلى عينها خضرة فقال: ''ما هذه

الخضرة؟ " قالت: كان رأسي في حجر بن أبي الحقيق ـ تعني زوجها، أي وهي عروس ـ وأنا نائمة، فرأيتُ كأن القمر وقع في حجري، فأخبرته بذلك، فلطمني وقال: تتمني ملك يثرب"(٣)،تمامًا مثلما رأت جويرية بنت الحارث. وصفية في قصتها تتشابه في بعض تفاصيلها مع قصة جويرية.

هل تستطيع العروس الشابة ذات السبعة عشر ربيعًا أن تنسى ما حل بأبيها وزوجها وقومها سريعًا؟.. وهل يقبل المبعوث رحمة للعالمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتمم زواجه منها وهي على هذه الحال من الحزن، والنفسية المتداعية، وكونها مازالت على يهوديتها، ويقبل أن يساكنها دون أن تعتد من زوجها السابق؟! .. تروي صفية أحداث ذلك اللقاء العاصف منها، ورد الفعل الحنون من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ :"انتهيت إلى رسول الله وما من الناس أحد أكره إليّ منه قتل أبي وزوجي وقومي، فقال: يا صفية أما إني أعتذر إليك مما صنعت بقومك، إنهم قالوا لي كذا وكذا، وقالوا فيّ كذا وكذا، وفي رواية: "إن قومك صنعوا كذا وكذا، وما زال يعتذر إليّ حتى ذهب ذلك من نفسي، فما قمت من مقعدي ومن الناس أحد أحب إليّ منه"، بل قالت عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيضًا : "ما رأيتُ قط أحسن خلقًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم"(٤).

أعرس بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ما طهرت من الحيض في قبة وذلك إعمالاً لقوله صلى الله عليه وسلم :"ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها"(٥)، ولهذا فقد دفعها لأم سليم لتصلح من شأنها، وبات تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري رضي الله تعالى متوشحًا سيفه يحرسه ويطوف بتلك القبة حتى أصبح رسول الله، فرأى مكان أبي أيوب، فقال: "مالك يا أبا أيوب؟"، قال: يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة، قتلت أباها وزوجها وقومها وهي حديثة عهد بكفر، فبت أحفظك، فقال: "اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني".

لم يُكره الرسول صلى الله عليه وسلم أحدًا على الدخول في دين الإسلام وذلك كما علمه وأمره ربه عز وجل ،إلا أن يكون عن قناعة منه، ولذا فقد سأل ـ صلى الله عليه وسلم ـ صفية عن ذلك، قائلاً لها: "اختاري، فإن اخترتِ الإسلام أمسكتُك لنفسي [أي: تزوّجتك]، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقكِ فتلحقي بقومك"، فقالت: "يا رسول الله، لقد هويتُ الإسلام وصدقتُ بك قبل أن تدعوني، حيث صرتُ إلى رحلك وما لي في اليهودية أرب، وما لي فيها والد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام، فالله ورسوله أحب إليّ من العتق وأن أرجع إلى قومي"(٦).

ماذا أحكي عن أمنا صفية ـ رضي الله عنها ـ التي اختارت الاسلام والرسول قبل أن ترى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما يدل على رجحان عقلها؟ .. أم أحكي عن صدقها، وحلمها؟، أم عن كرمها، وشجاعتها؟ ..أما إذا بدأت بصدقها فقد شهد لها به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك حين سأل عائشة التى دخلت متنقبة على صفية لتراها بعد أن قدمت المدينة ونزلت في بيت الحارثة بن النعمان وتحدث نساء الأنصار عن جمالها ، فلما خرجت خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أثرها، فقال : "كيف رأيتِ يا عائشة"، قالت : رأيتُ يهودية، فقال :"لا تقولي ذلك.. فإنها أسلمت وحسن إسلامها"، كما شهد لها ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصدقها ثانية وهو في مرضه الأخير، وذلك حين قالت: والله يا نبي الله لوددتُ أن الذي بكَ بي. فغمزها أزواجه فأبصرهنَّ، فقال:" مَضْمَضْنَ " ، قلن: من أي شيء؟، قال: "من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة"(٧).

إذن فقد شهد لها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصدق إيمانها ، وصدق عاطفتها نحوه ، أما ما يشهد بصدق صفية وحلمها معًا فهو موقفها مع جاريتها التي أتت أمير المؤمنين عمر لتشي بها عنده، فقالت: إن صفية تحب السبت وتصل اليهود، فبعث إليها فسألها عن ذلك، فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة وأما اليهود فإن لي فيهم رحمًا فأنا أصلها. ثم قالت للجارية: ما حملك على هذا؟، قالت: الشيطان، قالت: إذهبي فأنت حرة(٨).

أما تلك العاطفة الجميلة النبيلة الصادقة التي نشأت بين صفية وزوجها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يكاد المرء يخطئها حين يتلمسها فى أكثر من موضع، بل يكاد يجزم أنه يحس بدفء تلك المشاعر حين يقرأها، وذلك حين دخل عليها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا : نحن أكرم على رسول الله منها نحن أزواجه وبنات عمه، فذكرت له ذلك، فقال:''ألا قلت وكيف تكونان خيرًا مني وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى''(٩).. أي أن الرسول لا يهدأ خاطرها وحسب بل ينصرها على بنات أحب الناس إليه الصديق والفاروق، بل ويلقنها ما تقوله لهما إذا ما كررا قوليهما .. بل تشهد بسمو تلك العاطفة الحارة في نصرته لصفية على زينب بنت جحش بنت عمته إلى الحد الذى يقاطعها ما يقارب الثلاثة أشهر وذلك حين حج ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنسائه، فبرك بصفية جملها فبكت وجاء رسول الله لما أخبروه، فجعل يمسح دموعها بيده، وهى تبكي، وهو ينهاها فنزل رسول الله بالناس، فلما كان عند الرَّوَاح، قال لزينب بنت جحش: ''أفْقِري [أى: أعطى] أُخْتَكِ صفية جَمَلاً'' ـ و كانت من أكثرنسائه ظهرًا ـ فقالت: أنَا أُفْقِرُ يَهُودِيَّتَكَ. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع ذلك منها، فهجرها، فلم يُكلِّمْها حتى قدم مكة وأيام مِنى من سفره حتى رجع إلى المدينة والمحرَّم وصفر، فلم يأتها ولم يقسم لها، فأيسَتْ منه، فلمَّا كان شهر ربيع الأول دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأت ظلَّه، فقالت: إن هذا الظلَّ ظلُّ رجل، وما يدخل علَيَّ النبي صلى الله وسلم، فلما رأته قالت : رسول الله، ما أدري ما أصنع حين دخلتَ علَيَّ. وكانت لها جارية تخبِّئها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت: فلانة لكَ(١٠).

وفي حديث متصل بنفس الواقعة السابقة أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمّا أخذ يكفكف دمع صفية عندما برك جملها ولم تنتهِ فزجرها وانتهرها وأمر الناس بالنزول فنزلوا ولم يكن ينوى نزولاً، وخشيتْ على رسول الله أن يكون قد غضب عليها، وقد كان هذا يومها من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتركته لعائشة راجية منها أن تجعله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليرضى عنها .. وذلك لمحبتها له، وخوفها من غضبه عليها.

وتحكي الأيام شجاعتها وشهامتها حين وقفت ترد بنفسها الثوار عن عثمان بن عفان أمير المؤمنين إلى أن أصابوا بغلتها، ولم تكف برغم هذا عن مؤازرته حين وضعتْ خشبًا من منزلها إلى منزله لتنقل عليه الماء والطعام إليه بعد أن حاصروه ومنعوه عنه(١١).

تحكي كتب السيرة عن كرم وسخاوة نفس أمنا صفية حين أهدت الزهراء فاطمة بنت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعض أخواتها من أمهات المؤمنين حلقات من ذهب كانت لها، وما أرادت أن تترك الدنيا ولها فيها أو منها شيء فتصدقت بثمن دارها قبيل وفاتها، فهكذا تعلمت من زهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ الزاهد القادر(١٢).

أما الحكمة الكامنة في زواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من صفية غير جمالها، كونه أراد أن يرسي في أتباعه من المؤمنين مباديء الرحمة، وقيم التسامح؛ فصفية التي أتت من بيت نبوة، وعلم، ودين سماوي سابق، لما تكشفت لها الحقائق عفت، وصفحت، وتسامت عن الأحقاد، فسهل التواصل بينها وبين نبي آخر الزمان، كما أن الأصل فى الإسلام أن يتزوج الرجل المرأة لدينها، فإذا كانت ذات جمال وخلق كان ذلك نعمة كبيرة، ولا يعد هذا مطعنًا في شخص وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

توفيت ـ رضي الله عنها ـ في رمضان سنة خمسين من الهجرة ـ في خلافة معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنهما ـ ودفنت بالبقيع بجوار أمهات المؤمنين، رضوان اللّه عليهن أجمعين.

(١) البخاري: أبواب الصلاة في الثياب، باب ما يذكر في الفخذ (٣٦٤).

(٢)ابن إسحاق في السيرة والبيهقي في "دلائل النبوة ".

(٣)ابن القيم: زاد المعاد ٢٩١/٣، والمباركفوري: الرحيق المختوم ص٣٢٥.

(٤)أنظر الطبراني في المعجم الأوسط وأبو يعلى في مصنفه.

(٥) حديث مرفوع ، السنن الكبرى للبيهقي.

(٦)الطبقات الكبرى ١٢٣ / ٧.

(٧)ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣١٣/٢، وابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٧٤١/٧، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٣٥/٢.

(٨) ابن عبد البر، في الاستيعاب في معرفة الأصحاب ص٩١٧.

(٩)رواه الترمذي بسند صحيح (التاج الجامع ٣٨٥ / ٣).

(١٠)الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ٦٧/٩.

(١١)ابن سعد: الطبقات الكبرى ١٢٨/٨، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٣٧/٢.

(١٢)الطبقات الكبرى ١٢٧ / ٧، الإصابة ٣٤٧ / ٤.

الفصل السادس عشر

أم حبيبة زوج الحبيب
صلى الله عليه وسلم

لم تكن بنت أبي سفيان؛ صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأمويَّة، بعيدة عن أحداث مكة وما يدور فيها عن ظهور نبي يدعو لدين جديد، بل كانت مهيأة لذلك تمامًا؛ فزوجها عبيد الله بن جحش الأسدي كان من الذين ينكرون وثنية قومه، وخرج عليهم من قبل حين اتخذ المسيحية دينًا، كما أنه ابن عمة نبي ذلك الدين الجديد، وليس ببعيدٍ عنها والدها رأس الكفر الذي يشن على محمد بن عبدالله الحرب الضروس من أجل اثناءه عن دعوته تلك التى فرقت قومهم، وجرأت العبيد عليهم، وتهدد مكة كلها وما حولها بتجارتها وآلهتها ومكانتهابين العرب وغيرهم.

خاطرت حين أسلمت رملة مع زوجها في دار الأرقم بن أبي الأرقم فقد كان الذي سينتظرها من غضب عليها شديد نظرًا لمكانتها ومكانة أبيها، فلم يكن بدًا بعد اشتداد الأذى إلا الهجرة.. هاجرتْ رملة التي أصبحت كنيتها(أمٌّ حبيبة) مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية وهى حامل فولدت ابنتها "حبيبة" هناك، تاركةً خلفها رغد العيش، والعزة والمنعة، لتخرج إلى بلاد لا تعرف عنها شيئًا، يفصل البحر بينها وبين موطنها وهيَّ التى لم تعتد ركوبه، راضية بكل هذا في سبيل دينها، الذي رأت كل تضحياتها في سبيله تهون.

لم تصفو الأيام لها في غربتها؛ فزوجها تتبدل أحواله أمامها إلى السوء، وتحذره مغبة الخاتمة، ولكنه يتمادى وينهرها مكذبًا صدق إحساسها فيما ترى، إلى أن خلدت للنوم ذات ليلة فتهاجمها رؤيا أفزعتها رأت فيها كأن عبيد الله بن جحش بأسوأ صورةٍ وأشوهه، ففزعت، وقالت تحدث نفسها: (تغيَّرَتْ والله حالهُ).

ما كاد الصبح يعلن عن دخول الحبشة في يومٍ جديد من أيام الله حتى

فاجأها عبيد الله بما لم تتوقعه، فكل ما حسبته من أمره فقط هو تغير في أخلاقه لايمكن أن يقوده أبدًا إلى ترك عقيدته، فقال يخاطبها: يا أمَّ حبيبة، إني نظرت في الدين فلم أرَ دينًا خيرًا من النصرانيَّة، وكنتُ قد دِنْتُ بها ثم دخلت في دين محمد، ثم رجعت في النصرانيَّة، فقالت وهيّ تنتفض من هول ماسمعت : "والله ما خِيرَ لكَ"(١)، ولكي تثنيه عن عزمه أخبرته برؤياها التي رأتها، فلم يحفلْ بها، حتى مات أخيرًا بعد أن انصرف في أيامه التى سبقت حتفه مقيمًا على الخمر يملأ بها جوفه ليل نهار، ومن قالوا أنه مات دون أن يفارق دينه (٢).

هكذا انتهى الحال بأم حبيبة امرأة تركت وطنها لبلدٍ جديد عليها، وفارقت دين آبائها لدين جديد عليها أيضًا، تواجه الدنيا وحيدة بلا زوج، وأهل تدرك تمامًا مدى ما ستلاقي منهم من شماتة وسخرية إذا ما عادت وتلاقت الوجوه، وكيف لها أن تعود؟.. إنها في موقف صعب .. صعب جدًا؛ فقد أصبحت في المنطقة الخطر بحيث لا تستطيع أن تتقدم خطوة أو تتأخر مثلها، فمن ذا الذي سينقذها من تلك المحنة القاسية التي لم تحسب لها حسابًا من قبل؟

لم يكن ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعيدًا عنها آنذاك، فقد كان وهو يهاجر إلى المدينة التي أراد أن يتخذها موطنًا جديدًا بديلاً للمسلمين، يتحسس أخبار أتباعه بمكة وأيضًا بالحبشة، فما كادت تنقضي عدتها حتى بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمر بن أمية الضمري بكتابٍ إلى النجاشي فى المحرم من العام السابع الهجري ليخطب عليه أم حبيبة.

رأت أمُّ حبيبة في منامها كأنَّ آتيًا يقول: يا أمَّ المؤمنين. ففزِعْتُ فأوَّلتها أن رسول الله يتزوَّجها، ولم تشعر إلاَّ برسول النجاشي على بابها يستأذن، فإذا جارية له يقال لها أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهنه، فدخلَتْ علَيها، قائلةً: إن المَلِكَ يقول لكِ: إن رسول الله كتب إلَيَّ أن أُزَوِّجَكِه،فقالت لها أم حبيبة: بشَّرَكِ الله بخير، فقالت لها أبرهة: يقول لك الملك وكِّلي مَنْ يُزَوِّجك.

أرسلتْ أم حبيبة من فورها إلى خالدَ بن سعيد بن العاص، فوكَّلَتْه ،

وأعطتْ أبرهة سواريْن من فضة وخَدَمتَين [خلخالين] كانتا في رجليها، وخواتيم فضة كانت في أصابع رجليها سرورًا بما بشَّرتها به.

فلمَّا كان العشيّ أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومَنْ هناك مِن المسلمين فحضروا، فخطب النجاشي فقال: الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد أنْ لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وأنه الذي بشَّر به عيسى بن مريم؛ أمَّا بعد: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلَيَّ أن أزوجه أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبتُ إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أصدقتُها أربعمائة دينار. ثم سكب الدنانير بين يدي القوم. ثم قام خالد بن سعيد متكلمًا، فقال: الحمد لله، أحمده وأستعينه وأستنصره، وأشهد أنْ لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحقِّ؛ ليُظهره على الدين كله، ولو كره المشركون. أمَّا بعد، فقد أجبتُ إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوَّجته أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ودفع الدنانير إلى خالد بن سعيد بن العاص فقبضها باعتبار وكيل الزوجة، ثم أرادوا أن يقوموا فقال: اجلسوا؛ فإن سُنَّة الأنبياء إذا تزوَّجوا أن يُؤكل طعامٌ على التزويج. فدعا بطعام وأكلوا، ثم تفرَّقوا.

لم يتزوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا المُحسنات من النساء المحبات للتصدق، وهكذا كانت أم حبيبة فما أن وصل إليها المال حتى أرسلت إلى أبرهة التي بشرتها، فقالت لها: "إنِّي كنتُ أعطيتُك ما أعطيتُك يومئذٍ ولا مال بيدي، فهذه خمسون مثقالاً، فخُذيها فاستعيني بها. فأبتْ أبرهة وأخرجتْ حُقًّا فيه كل ما كانت أعطته لها أم حبيبة فردته لها، وقالت: عزم عليَّ الملك أن لا أرْزَأكِ شيئًا [أى لا أنقص من مالك شيئًا]، وأنا التي أقوم على ثيابه ودهنه، وقد اتبعتُ دين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلمتُ لله عزوجل، فحاجتي إليك أن تقرئي على رسول الله صلى الله عليه وسلم مني السلام، وتُعلميه أنِّي قد اتَّبعتُ دينه. قالت: ثم لطفتْ بي وكانت التي جَهَّزتني، وكانت كلَّما دخلت علَيَّ تقول: لا تنسَيْ حاجتي إليك".

عادت أم المؤمنين رملة مع الذين عادوا مع جعفر بن أبي طالب، عقب

فتح النبي لخيبر، ومعها هدايا زوجات النجاشى من العُودِ، ووَرَسٍ، وعنبر وزبَّادٍ الكثير، فقدِمْتُ بذلك كلِّه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وأخبرته بأمر خطبتها وما فعلَتْ بها أبرهة، فتبسَّم، وأقرأته منها السلام، فقال: "وَعَلَيْهَا السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، ثم أنزلها - صلى الله عليه وسلم - إحدى حجراته بجوار زوجاته الأخريات، واحتفل نساء المدينة بدخول أم حبيبة بنت سفيان بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أولَم خالها عثمان بن عفان وليمة حافلة نحر فيها الذبائح، وأطعم الناس اللحم.

وصل نبأ زواج النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى بطائح مكة وديارها، فخرج أبو سفيان مبتهجًا معجبا بصنيع محمد قائلاً : "هذا الفحل لا يجدع أنفه" .. فهو زواج أضفى على محمد كل إكبار وإجلال بعد أن كان معرضًا للسخرية لما فعله ابن عمته من الارتداد، وكان أكبر الإجلال ما شعرت به هذه الزوجة الأبية .. فقد كان زواج نخوة .. وزواج كياسة .. وزواج حماية لسمعة الدعوة، زواج تم ''على بياض'' في أرض بعيدة، ولا أحد يدري هل يكتب للغائب العودة مع سائر الغائبين، أم يكون اللقاء في رحاب الله يوم يبعثون، زواج يمكن أن يقال في بواعثه أي شيء إلا أنه زواج شهوة، أو قضاء نزوة .. هذا مجمل ما حكم به الدكتور نظمي لوقا(٣)، المسيحي العقيدة، وهيّ في مجملها شهادة لايحتاجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بل يحتاجها كل من يرجفون حول السيرة النبوية المطهرة.

وبعد زواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ظلَّتْ مخلصةً له ولدينه ولبيته؛ فيُروى أنَّ أبا سفيان بن حرب والدها قد جاء من مكة إلى المدينة طالبًا أن يَمُدَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - هدنة الحرب التي عُقدت في الحديبية، فلم يقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاء إلى ابنته أمِّ حبيبة، فأراد أن يجلس على فراش رسول الله – صلى الله عليه وسلم - فطوته دونه، فقال: يا بُنَيَّة، أرغبت بهذا الفراش عني، أو بي عنه؟ قالت: بل هو فراش رسول الله وأنت امرؤ مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا بُنَيَّة، لقد أصابك بعدي شرٌّ. فقالت: بل هداني الله للإسلام، وأنت - يا أبتِ - سيِّد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام، وأنت تعبد حجرًا لا يسمع ولا يبصر؟! فقام

من عندها .. غير أنها فرحت أيما فرح بعد ذلك في فتح مكة حين أعلن أبو سفيان اسلامه، وجعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيته أمانًا لمن دخله.

تبقى سيرة أمنا أم حبيبة ـ رضوان الله عليها ـ سيرة مجدولة بكل عناصر التضحية، والجهاد، والايثار، والغدر، والوفاء، والحب، والذي يفرح من النصارى بارتداد عبيد الله بن جحش ـ إن صحت ـ فعليه أن يتعظ ويغتم بسيرة إيمان ملك من ملوك الحبشة بالإسلام، ومن يفرح بكره وحرب بعض قريش للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيهم بعض أهله، عليه أن يتأمل حب جارية النجاشي له.

تمضي الحياة على عجل وما أسرع الأيام كما يقولون .. ويتوفى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتعيش بعده بسنوات أم حبيبة التي تحس ببوادر الرحيل للحاق به، فأرسلت إلى عائشة ـ رضي الله عنهما ـ لتستسمحها قائلة: "قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لي ولكِ ما كان من ذلك"، فتجاوبها عائشة بنفس الأخلاق المحمدية التى ورثاها: "غفر الله لكِ ذلك كله، وتجاوز وحلَّلكِ من ذلك"، فقالت أم حبيبة: "سررتني سرَّك الله". ثم أرسلت إلى أمِّ سلمة، فقالت لها مثل ذلك .. ثم غادرت الحياة مرضيًا عنها وعن سائر أزواج النبى الطاهرات .. أمهات المؤمنين، في سنة أربعٍ وأربعين من الهجرة في خلافة أخيها معاوية بن أبى سفيان، على أصح الأقوال ..

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢٢١)، طبقات ابن سعد (٨/٩٧).

(٢) أن قصة ردة عبيد الله بن جحش لم تثبت حيث لم تُروَ بسند صحيح متصل، بل أن الروايات الصحيحة في زواجه - صلى الله عليه وسلم - بأم حبيبة لم تذكر ردة زوجها السابق، أنظر كتاب: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، ص٣٨ ـ ٤٣.

(٣) نظمي لوقا: كتاب:محمد في حياته الخاصة، ص١٠٣.

الفصل السابع عشر

آخر أمهات المؤمنين وأتقاهن

أهلَّ ذو القعدة من العام السابع الهجري على المسلمين وهم في شوق لقدومه السعيد، ولما لا فقد جاء بعد عام مضى على توقيع صلح الحديبية بين المسلمين ومشركي مكة، وفيه نص بأن يعود المسلمون في عام قابل ويدخلوا مكة ليمكثوا بها ثلاثة أيام لايزيدون عليها، فهاهو الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأمر أصحابه بالاعتمار ممن شهد معه الحديبية فكان تعدادهم ألفين رجل بدون النساء والصبيان وممن استشهدوا، وساق ستين بدنة، كما تقلد سلاحه مخافة الغدر من قريش.

كان هذا المشهد فى المدينة أما في مكة فقد خرج المشركون إلى جبل قُعَيقْعَان يرقبون دخول المسلمين يتقدم موكبهم المهيب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ راكبًا ناقته القصواء وعبدالله بن رواحة بين يديه يقول الشعرمتوشحًا سيفه :

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله   خلوا فكل الخير في رسوله

أخذ الانبهار بمرأى ومسمع ولب وقلب بَرَّة بنت الحارث بن حَزْن الهلالية، وهي تشاهد عن قرب الرجل الذي سبقتها أختها لأمها زينب بنت خزيمة بالزواج منه، وأمنية الاقتران به تتردد في جنبات فؤادها ينقلها لسانها دعوات دامعات صادقات تمر فوق رأس ذلك الطاهر الطائف بالكعبة ملبيًا ثم تصعد إلى رب السماء حارة ساخنة أسخن وأحر من حر مكة.

تهرع بَرَّة عجلى إلى بيت أختها لأبويها أم الفضل لبابة الكبرى لتحكي لها جلال ما شهدت، ثم تسِرُّ إليها على استحياء برغبتها الكامنة العارمة، فتشفق عليها أختها التي هرعت هيّ الأخرى إلى زوجها وعم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ العباس بن عبد المطلب الذي خف للقائه بالجحفة ودار بينهما مادار من حديث عن بَرَّة وعن سنوات عمرها السادسة

والعشـرين، وعـن فراقهـا مـن زوجهـا الأول مسـعود بـن عمـرو بـن عميـر الثقفي الذي تزوجها في الجاهلية، ثم ترملها من أبي رهم بن عبد العزي العامري.

لم تكن بَرَّة بالغريبة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهيَّ وثلاث من أخواتها من قال فيهن: ''الأخوات المؤمنات''، وذلك فيما رواه ابن عباس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قالَ :''الأَخَوَاتُ مُؤْمِنَاتٌ : مَيْمُونَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَأُخْتُهَا أُمُّ الْفَضْلِ بِنْتُ الْحَارِثِ، وَأُخْتُهَا سَلْمَى بِنْتُ الْحَارِثِ امْرَأَةُ حَمْزَةِ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ أُخْتُهُنَّ لأُمِّهِنَّ''(١)، كما أن أختها لأمها السيدة زينب بنت خزيمة ـ رضيّ الله عنها ـ ضمها بيت النبوة زوجًا كريمًا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فوافق على زواجه منها، وأصدقها(٢)، وكان قد بعث ابن عمه جعفرًا- زوج أختها لأمها أسماء بنت عميس- يخطبها، فلما جاءها الخاطب بالبشرى - وكانت على بعير- قالت: البعير وماعليه لرسول اللّه، وجعلت العباس وليها في أمر الزواج(٣).

كـان بعيرهـا هديـة منهـا لرسـول الله ـ صلـى الله عليـه وسلـم ـ الذي حقق أمنيتها، وهي التي تعلم أنه إنما أنعم عليها بمثل هذه الزيجة رغم نصيبها الفقيـر مـن الجمـال، وعمرهـا الـذي شـارف علـى الـدخول فـي مـدار العقـد الثلاثينـي، مـن دواعـي البـر وحسـن الصلـة وإكـرام عشـيرتها الـذين آزروه ونصـروه، غيـر أنـها لـم تكـن من الواهبـات أنفسـهن لرسـول الله ـ صلـى الله عليه وسلم ـ ؛ فالواهبة لا تقبض مهرًا، بينما أمهرها صلى الله عليه وسلم أربعمائـة درهـم، وقيـل بخمسـمائة درهـم، والمحفـوظ أنـه لـم يـدخل بأحـد مـن الواهبات، وإنما هي فقد دخل بها صلى الله عليه وسلم.

شارفت الأيام الثلاثة على الانتهاء ولم تكد عين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقلبه يشبعان من مكة موطنه خير أرض الله وأحب بلاد الله إلى الله الذى شهد ميلاده، وشب فيه صبيًا، وتزوج فيه وأنجب، ونزلت عليه الرسالة في قمة من قمم جباله الشاهقات الشوامخ، وضم ترابه رفات زوجه الأولى وبعض بنيه، فكيف بالله تكفيه سويعات من عمر الزمن هيّ بمثابة قطرات لا تروي ظمأ هذا المهاجر عن دياره قرابة السبعة أعوام، ولم يكن هذا حاله وحده بل حال أصحابه، وهو الذي يدرك مدى حبهم أيضًا مثله

لمكة ولبيتها الحرام، فلم يجد إلا مناسبة زواجه من بَرَّة ليعرس بها بين أهلها، عسى أن تطول مدة الإقامة ويلتقى القرشيون والمسلمون فتكون مدعاة لكسر الحاجز النفسي بين الجانبين، ومحاولة للتقارب، وفرصة للمهاجرين في ري ظمأ شوقهم للوطن والأهل، غير أن حُوَيْطِبًا بْنُ عَبْدِ الْعُزَّي أتى النبي فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، فقالُوا لَهُ: إنَّهُ قدِ انْقَضَى أجَلُكَ فاخْرُجْ عَنَّا، فقال لهم صلى الله عليه وسلم فى مودة :''وَمَا عَلَيْكُمْ لَوْ تَرَكْتُمُونِي، فَأعْرَسْتُ بَيْنَ أظْهُرِكُمْ، فَصَنَعْتُ لَكُمْ طعَامًا فَحَضَرْتُمُوهُ؟''، ولكنهم ردوا في غلظة وجفوة: لاَ حَاجَةَ لَنَا فِي طعَامِكَ، فَاخْرُجْ عَنَّا(٤).

كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ كريم الأخلاق، وفيًا لعهوده ومواثيقه، فلم يشأ أن يخالفهم، فخَرَجَ بمن معه، ولم يشأ أيضًا أن يجعل العروس تنتظر حتى يصل إلى دياره بالمدينة، فأمر أصحابه فنزلوا بسَرِفٍ على بعد عشرة أميال من مكة أو أقل، فأعرس بميمونة وهو الاسم الذى اختاره لها ـ صلى الله عليه وسلم ـ تيمنًا بدخوله مكة معتمرًا بعد غيبة سنوات عنها.

عاشت ميمونة في بيت النبوة أجمل أيام عمرها في عبادة، وعلم، وتقى، وجهاد؛ فقد نقلت ـ رضى الله عنها ـ في غزوة تبوك الماء والزاد، وشاركت في إسعاف الجرحى، وتضميد جراحهم، حتى أصابها يومئذٍ سهم من سهام الكفار، أما العلم فيشهد لها أنها كانت من الحافظات المكثرات لرواية الحديث النبوي الشريف فقد روت ستًا وسبعين حديثًا ولم يسبقها في ذلك من أمهات المؤمنين سوى عائشة وأم سلمة مما أهْلَهَا أن تنقل سنة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد وفاته للصحابة والتابعين، أما تقواها فتشهد لها بها السيدة عائشة ـ رضى الله عنهما ـ حين قالت : "أمَا إنَّهَا كَانَتْ مِنْ أتْقانَا للهِ، وَأوْصَلِنَا لِلرَّحِمِ"(٥).

أحبت أمنا ميمونة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حبًا عميقًا هادئًا؛ إذ كانت كأختها الراحلة زينب بنت خزيمة، لم تسبب له عنتًا ولا مشقة، ولم تفتعل خصومات ولو يسيرة مع لداتها من أمهات المؤمنين، بل كانت تحب له ما يحبه هو، ويبدو هذا بجلاء حين اشتد به المرض وهو في بيتها،

فاستأذنتها عائشة في أن تنقله إلى بيتها ليُمرّض عندها، فأذنت لها لعلمها بموقعها عنده، ولرغبته فى ذلك، كذلك يتجلى حبها له - صلى الله عليه وسلم - في كونها لاتحب مالا يحبه - صلى الله عليه وسلم - من الأطعمة، مثل عزوفه عن أكل الضب لأنه لم يكن بأرض قومه، ومع أنه لم يحرمه إلا أنها قالت: "لا آكل من طعام لم يأكل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم"(٦).

بادل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ميمونة نفس مشاعرها إلى حد الغيرة عليها، وذلك حين قدم شابًا يُدعى زياد في وفد بني هلال فدخل منزلها لأنها كانت خالته من أختها غُرّة بنت الحارث، فدخل - صلى الله عليه وسلم - فرآه عندها فغضب ورجع، فاستمهلته قائلة: يا رسول الله! هذا ابن أختي، فدعاه فوضع يده على رأسه ثم حدرها على طرف أنفه، فكان بنو هلال يقولون ما زلنا نعرف البركة في وجه زياد(٧) .

تمر الأيام كعادتها سريعة، وهكذا كان شأنها مع السيدة ميمونة في البيت النبوي وإن كانت ثلاث سنوات، غير أنها كانت أوفر نصيبًا من أختها زينب التي لم تنعم بالعيش فيه سوى ثلاثة أشهر، كما أنها عاشت بعد الرسول زمنًا نفعت فيه الإسلام والمسلمين، وما أن أظلها العام الواحد والخمسين للهجرة حتى أحست بحنين جارف إلى مكة موطنها، وموطن البيت المعمور، وموطن زواجها من الرسول - صلى الله عليه وسلم - فشدت الرحال للحج وهيّ في العقد الثامن من عمرها، وشعرت بعدها بدنو الأجل فقالت لمن حولها: "أخرجوني من مكة فإني لا أموت بها إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني أن لا أموت بمكة". فحملوها حتى أتوا بها سرف إلى الشجرة التي بنى بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحتها في موضع القبة فماتت، وصلى عليها ابن عباس ودخل قبرها معه يزيد بن الأصم وعبد الله بن شداد وهم بنو أخواتها، وعبيد الله الخولاني وكان يتيمًا في حجرها (٨) ، واختلفوا في سنة وفاتها، فقيل سنة إحدى وستين. وقيل: سنة ست وستين. وقال أبو عمر: توفيت بسرف سنة ست وستين وكان لها يوم توفيت ثمانون أو إحدى وثمانون سنة (٩).

رحم الله أمنا ميمونة بنت الحارث، آخرأزواجه صلى الله عليه وسلم ، وأول من ماتت منهن في نفس موضع عرسها، حنينًا ووفاءً ونبوءة من زوجها - صلى الله عليه وسلم -، رحم الله .. ثانية الراحلات خارج بقيع المدينة لتلحق بالسيدة خديجة قريبًا منها بمكة لتكون إحداهنّ بالحجون والأخرى بسرف، فتكون مكة بهذا قد ضمت إلى مكانتها مكانةً أخرى وشرف، حيث ضم ترابها رفات أول أزواجه - صلى الله عليه وسلم - وآخرهن .. رضوان الله عليهن جميعًا.

(١) رواه النسائي في سننه الكبرى- [المستدرك (٣٢/٤-٣٣)وصححه الحاكم ووافقه الهبى ، وقال الألبـانى صـحيح ، كمـا فـى صـحيح الجـامع الصـغير (٢٧٦٣) ، وسلسـلة الأحاديـث الصـحيحة (١٧٦٤).
(٢) ابن كثير : السيرة النبوية ٣/٤٣٩.
(٣) عيون الأثر - (ج ٢ / ص ٣٩٢).
(٤) الحكم في المستدرك (٦٧٩٦) صحيح.
(٥) السير ٢/٢٤٤ وسنده صحيح.
(٦) حسنه الألباني في الصحيحة[٤١١/٥].
(٧) ابن كثير: البداية والنهاية(١٠٨/٥).
(٨) رواه أبو يعلى ح (٧١١٠)، والبخاري في التاريخ الكبير ح (٣٧٩). قال الهيثمي: "رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح" مجمع الزوائد (٤٠١/٩).
(٩)الطبقات ١٤٠ / ٧.

الفصل الثامن عشر

أم إبراهيم :

مصرية فى بيت النبــوة

رجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، ولم يتمكن وكذلك أصحابه من أداء العمرة، غير أنه عقد مع قريش صلحًا أهم بنوده: وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

جعل الله هذا الصلح فتحًا لما فيه من المصلحة التي أظهرها الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتي غابت عن بعض أصحابه : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾(١)، وعلمها الآخرون ومنهم ابن مسعود ـ رضى الله عنه وعنهم ـ حين كان يخاطب أصحابه : "إنكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية" (٢)، نعم .. كان فتحًا جديدًا في مجال الدعوة إلي الإسلام؛ إذ فرّغ الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليهود خيبر من جهة، ولمراسلة الملوك والأمراء لدعوتهم لدخول دين الله طواعية واختيارًا، فأرسل إلى كسرى ملك فارس، والنجاشي ملك الحبشة، وهرقل ملك الروم، وإلى المقوقس عظيم مصر.

كانت سفارة مصر من نصيب حاطب بن أبي بلتعة أحد فرسان قريش وشعرائها في الجاهلية، ومن الذين أسلموا مبكرًا، ولذا فقد شهد بدرًا وأحد والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث كان من الرماة الموصوفين، فضلاً عن اتصافه بالعلم والحكمة، وحسن السمت، وكانت هذه خلق وصفات كل من أرسلهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ سفراء

عنـه، فلمـا قـدم حاطبًـا مصـر، نـزل الأسكندرية حاضـرة الملـك، ومقـر إقامـة المقـوقس جُرَيْج بـن مَتّـي، فسلمه الرسـالة التـي حملـه إياهـا رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فأخذها وهو يخاطب حاطبًا: ما يمنـع محمدًا إن كـان نبيًـا أن يـدعو علـيّ فيهلكنـي؟ ، فأجابـه حاطـب: مـامنع عيسـى بـن مـريم أن يدعو على من أبى عليه أن يفعل به كذا وكذا؟.

دار بـين الـرجلين حـديث وسـجال كانـت نـهايتـه تـأثر المقـوقس بمـا فـي الرسـالة، كمـا تـأثر بمنطـق حاطـب، فوضـع الكتـاب فـي حُقٍ مـن عـاج وخـتم عليه، واستدعي كاتبًا يكتب العربيـة فـأملى عليـه: "لمحمـد بـن عبـد الله مـن المقوقس عظيم القبط، سلام عليك.. أمـا بعـد، فقـد قـرأتُ كتابـك وفـهمتُ مـا ذكرتْ وما تدعو اليه، وقد علمتُ أن نبيًا قد بقي، وكنتُ أظن أنـه يخـرج مـن الشـام. وقـد أكرمـت رسـولك، وبعثـتُ إليـك بجـاريتين لـهمـا مكـان فـي القـبط عظيم، وبكسوةٍ، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام"(٣).

أخذ حاطب طريق العودة إلى مدينة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ركب يضم مارية بنت شمعون، وأختها سيرين، وعبد خصـيٌّ يُدْعَى مـأبور، وألْف مثقال ذهب، وعشرون ثوبًا ليّنًا من نسيج مصر، وبغلة شـهباء تُسـمَّى دلدل، وبعض من عسل، وبعض المسك، وبعض أعواد البخور.

لـم تكـن مصـر هـيّ "مصـر الفرعونيـة" التـي خـرج منـها موسـى شـابًا، ودخلها عيسى رضيعًا، بل هيّ مصر التي دانت مؤخرًا بالمسيحية، وكانـت تحت الولاية الرومانية، فعرفت معنى النبوة، والدين السماوي، وأخبـار نبـي آخر الزمان، بل أن ماريـة التـي ولـدت بقريـة تُدعىَ (حَفن) تقـع علـى شـرق النيل في صعيد مصر، وقضت فيها طفولتها، ثم انتقلت مع أختها سيرين إلى قصر المقوقس بالإسكندرية، كانـت تعلـم ذلـك مـن البشـارات المبثوثـة بكتـب ديانتـهـا، مثلمـا علمـت أنـهـا تسـير فـي ركـب المصـريات السـابقات عليـهـا واللـواتي تـزوجنّ بأنبيـاء وتـأتي فـي مقـدمتهن السـيدة هـاجر وكانـت مثلـهـا سليلة ملوك.

كما لم تكن أخبار ظهور نبي بمكة بالحدث الذي يخفى على المصريين، فقد ساهمت الطرق البريـة عبـر جزيـرة سينـاء فـي إقامـة علاقـات تجاريـة وثيقـة بين غرب الجزيرة العربية وشمالها الغربـي وبـين وادي النيـل (مصـر)، كمـا

كان تجار قريش يأتون إلى مصر حاملين بضائع الشرق من اللبان والبخور والتوابل والفضة والحرير فيبيعون فيها بضائعهم، ويشترون منها الثياب الغالية، أو ما يعرف بالقباطي والمشغولات والزجاج، بالإضافة إلى أنواع الطعام المختلفة وخصوصًا القمح والذرة، وكان طريق القوافل أشهر الطرق البرية من مصر إلى الجزيرة والعكس، وبخلاف الطرق البرية، كان هناك طريق بحري يربط الجزيرة بمصر مباشرة حيث ترسو المراكب البسيطة الصنع في ميناء القلزم [السويس اليوم]على شاطيء البحر الأحمر .

كان الطريق طويلاً ويكفي ويزيد لأن يسرد حاطبًا على الأختين قصة الإسلام ، ونبيه الكريم، وذلك حتى يزيل أسباب الوحشة من نفوسهن خاصة وأنهما قادمتان على بلدٍ لا يعلمنّ عن جغرافيتها ـ ربما ـ إلا أنها حارة، فلما أحس منهما حاطبًا ارتياحًا وانشراحًا عرض عليهما الإسلام فأسلمتا لتوهما.

وصل الركب إلى المدينة ونزلت منه مارية شابة اجتمع في وجهها الجمال الشرقي الفطري الناضر إذ كان أبوها مصريًا، والجمال الرومي المُشرب بالحمرة والبياض فقد ولدتْ لأم رومية، سارت مارية أولى خطواتها تأخذ العين طلتها، فقد كانت بحق جميلة جعدة [أي جَعْدةُ الشعر ومرادُهُ أنه ليس بالسَبطٍ وهو المنبسطُ المسترسل الذي لا تَكسُّرَ فيه ولا بجعدٍ] فنزلت من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكانة طيبة، فأمر بإنزالها وأختها سيرين على أم سليم الغميصاء بنت ملحان في أول الأمر، ثم مالبث أن وهب سيرين لشاعره حسان بن ثابت، ليحتفظ بمارية في بيت لحارثة بن النعمان الأنصاري القريب من بيت عائشة.

والذين يبحثون عن الحكمة النبوية في تسري الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمارية، بحثوا ربما عن جمالها وليس هذا هو كل السبب، فقد نسوا أنه ـ ربما ـ آنس في نفسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحذو حذو جده خليل الرحمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ عندما تسرى بمصرية هي السيدة هاجر أم اسماعيل وجدة العرب العدنانيين، وقد كان أشبه الناس به ـ عليهما الصلاة والسلام ـ . وكأن التاريخ يحدثنا أن سنة إبراهيم سنة جارية استقرت في نهاية المطاف عند النبي الخاتم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، أو كأنه يقول أن حركة المقدمة تستقيم مع حركة الخاتمة(٤).

كانت حياة مارية قواسم مشتركة مع سيدات بيت النبوة، فقد أنجبت الولد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلما أنجبت له السيدة خديجة ـ رضى الله عنهما ـ، وقاست معه مرارة فقد الولد كما قاستها خديجة من قبل، بل كانت قسوة مرارة الفقد عليها أشد، فقد كان ابنها، وحيدها، وكانت غريبة، فكان أنيسها، وعاشت معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ السنوات القليلات المتبقيات من عمره كما عاشتها السيدة ميمونة بنت الحارث ـ رضوان الله عليهما ـ، وعاشت مرارة الإفك كما عاشتها السيدة عائشة ـ رضوان الله عليهما ـ؛ فقد اتهموها في ابن عمها مأبور وقد كان رفيقها في رحلة الخروج من مصر، وكان يجلب لها الماء بالعالية، وكان مجبوبًا [مقطوع الذكر]، وكأن الطبيعة البشرية من قبل عهد النبوة وأثناءها وبعدها طبيعة لاتعرف الاعتبار؛ فلم يكن زمن خوضهم في عرض عائشة، ونزول آيات براءتها غير بعيد. ومثلما غارت سارة من هاجر فنقلها نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى مكة، غارت عائشة من مارية فحوّلها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى العالية بضواحي المدينة وكان يذهب إليها هناك.

يقولون أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يكثر من التردد عليها، والبقاء عندها، وربما كان هذا منه دفعًا للوحشة عنها، وعدم إحساسها بالغربة عن الأهل والديار، وربما يقينه بأن العمر لن يمتد به لتأنس إليه، وتشبع منه كالسابقات عليها من أزواجه.

لم تكد تقبل الأيام على مارية بعد أن أصبحت أم ولد، فصارت بولادته حرة، حتى هرولت الأحزان تترى عليها؛ فقد تُوُفِّيَ وحيدها إِبْرَاهِيمُ ابْنُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وهو ابْنَ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : ''ادْفِنُوهُ بِالْبَقِيعِ، فَإِنَّ لَهُ مُرْضِعًا تُتِمُّ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ''(٥) ،وكأن وفاة إبراهيم قد جلبت كل أيام الحزن البعيدة على كل أولاده وبناته، وكأن القلب الكبير قد أنهكته سنوات الدعوة والأحزان فتاق إلى الرفيق الأعلى ليتوفي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد سنة واحدة من وفاة ابنه، فقد كان المصاب الجلل الذي هز المدينة بمن فيها، ويهد مارية، ويهدم الدنيا فوق رأسها، لتقضي السنوات الخمس المتبقيات من رحلة الحياة بين رؤية

أختها، وهي كل ما تبقى لها من أهل، وزيارتها لتأنس برفيق العمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ تارة، والاستروواح بالقرب من ابنها بالبقيع تارة أخرى.

لم تعمِّر السيدة مارية طويلاً بعد وفاة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ حيث توفيت مرضيًا عنها من الله ورسوله سنة ست عشرة من الهجرة، وصلى عليها عمر بن الخطاب، ودفنت بالبقيع بجانب ابنها وأمهات المؤمنين.

رحم الله خاتمة المصريات في الطور الأخير من ختم النبوات، فكما ماتت هاجر المصرية ودفنت بمكة، شاءت إرادة الله أن يكون قبر ماريا المصرية في المدينة .. ماتت مارية ولها في كل عنق مصرى ومصرية دين إلى أن يبعث الله الأرض ومن عليها، فبسببها أوصى رسوله المسلمين في نبوءة ستتحقق في عهد عمر بن الخطاب، بقيادة عمرو بن العاص سنة ٢١هـ، حين قال صلى الله عليه وسلم :''إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا''. أَوْ قَالَ: ''ذِمَّةً وَصِهْرًا فَإِذَا رَأَيْتَ رَجُلَيْنِ يَخْتَصِمَانِ فِيهَا فِي مَوْضِعِ لَبِنَةٍ فَاخْرُجْ مِنْهَا''(٦).

وإجلالاً وتكريمًا للسيدة مارية القبطية التي أنزل الله صدر سورة التحريم بسببها، ومات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو راضٍ عنها، اهتم الصحابة ـ رضيّ الله عنهم ـ بعد الفتح الإسلامي لمصر بالقرية التي نشأت فيها السيدة ماريا القبطية، فأعفاها معاوية من الخراج وأرسل إليها الصحابي عبادة بن الصامت ليبحث عن بيتها فيها ويبني مسجدًا مكانه، فاهتم الصحابي الجليل بذلك الأمر وبنى المسجد، وشاع اسمه مسجد الشيخ عبادة نسبة إلى الصحابي الجليل عبادة الصامت ـ رضيّ الله عنه ـ وعن أم إبراهيم وعن سائر أزواج النبي الطاهرات.

(١)سورة الفتح:١.
(٢) تفسير ابن كثير،ج٤،ص٢٠٨.
(٣) شرح المواهب(٣/٣٤٨)، وزار المعاد (٦٩١-٣/٦٩٢).
(٤) سعيد أيوب:زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، ص١١٣.
(٥) رواه عبد الرزاق(١٤٠١٤) ورواه مسلم بمعناه.
(٦) مسلم (٦٦٥٨).

الفصل التاسع عشر

ريحانة النضرية القرظية

كان قدر ريحانة زيد بن عمرو بن خنافة بن سمعون بن زيد مع الإسلام تحيا به في أخريات أيامها وتموت عليه؛ فقد ساق الله لها النور ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث مرابع دارها وهيّ قائمة بين قومها.

شاء قدر الله ألا ترحل ريحانة مع أهلها من بني النضير في العام الرابع من الهجرة امتثالاً لأمره صلى الله عليه وسلم لهم : ''اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشرًا، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه''(١) وذلك نتيجة غدرهم به، وهمهم بقتله وهو مسالمهم وفي ديارهم، فقد كانت آنذاك متزوجة رجلاً من بني قريظة يقال له الحكم. فنسبها بعض الرواة إلى قريظة(٢).

لم يستسلم النضريون فقد ذهبوا يؤلبون العرب على المسلمين وطافوا في القبائل أمثال بني فزارة وبني مرة وبني أسد وأشجع وسليم وعرضوا عليهم مقترحهم في غزو المدينة، وافقتهم قريش وبنى غطفان، فتشجعوا ومضوا صوب المدينة المنورة في عشرة آلاف مقاتل وأسندت القيادة إلى أبي سفيان بن حرب.

ومثلما غدر بنو النضير، خان القرظيون العهد مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانضموا إلى الأحزاب في حربهم ضد المسلمين التى انتهت بعودته ـ صلى الله عليه وسلم ـ منتصرًا إلى المدينة، ولكنه لم يكد يدخل بيت أم سلمة ليغتسل إذ جاءه جبريل ظهرًا يحمل له خبر ربه بزلزلة حصون الخونة من بني قريظة وقذف الرعب فى قلوبهم(٣).

فرض النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حصارًا على حصون بني قريظة، مما حدا بزعيمهم كعب بن أسد أن يعرض عليهم عرضًا : "يا معشر يهود

قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثًا: فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هي؟، قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه؛ فو الله لقد تبين لكم أنه لنبيٌ مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدًا، ولا نستبدل به غيره!!

قال: فإذا أبيتم على هذه، فهلُمّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلِتي السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن تطهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟!، قال: فإن أبيتم عليّ هذه فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمدٌ وأصحابه قد أمنونا فيها فأنزلوا لعلنا نصيب من محمدٍ وأصحابه غرة، قالوا: نفسد سبتنا علينا ونحدث فيه ما لم يحدثه من كان قبلنا، إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ!"(٤).

وكان لعنادهم ورفضهم هذا أن أنزل الله فيهم حكمه، فسُبيت الذريّة، وقُتِل المقاتلة، وأُجليَ الباقون عن الديار، أما ريحانة فقد وقعت أسيرة في السبي، وكانت باهرة الجمال، تأخذ العين حين مرآها، ولا تعدم البصيرة أن ترى فيها ذكاءً وحصافة، وفوق كل هذا وفاء تبدت مظاهره حين علمت بمقتل زوجها أن قالت : لن أتزوج أحداً بعده.

لم يتزوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا مسلمة، وإن كانت على غير الدين عرض عليها الإسلام، وخيرها، فما عهد عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أكره أحد على الدخول في دين الإسلام، فلما عرضوها عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عرض عليها الإسلام فأبت، فأرسل بها إلى بيت أم المنذر سلمى بنت قيس قائلاً لها : ''أخبريني إن حاضت حيضة واحدة''، ذلك أن المسبيات في الجهاد تستبرأ أرحامهن بحيضة واحدة، يُعلَم بها خلو أرحامهن من الحمل.

أما سر ارسالها إلى بيت أم المنذر ـ الخزرجية النجارية المصلية للقبلتين و

المحافظة على البيعتين ـ أنها كانت إحدى خالاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وكثيرًا ما كان يخصها بالزيارة، ويأكل عندها، ويشير إلى أنّ طعامها ذو بركة ونفع، وقد اشتهر بيتها ـ رضي الله عنها ـ عند أهل المدينة بكثرة التمر والرطب.

مرّت الأيام بريحانة قرابة الشهر ولم تزل في بيت أم المنذر تجتر ذكريات الأيام التي مرت بها منذ جلاء قومها، وما نزل بقوم زوجها، فأدركت أن هذا أقل ما يستحقونه نتيجة غدرهم وخيانتهم للعهود والمواثيق، وربما لو أذعن القرظيون لزعيمهم كعب بن أسد وتابعوا محمد بن عبدالله على دينه وأسلموا لله بعد ما علموا وأيقنوا أنه الرسول المبشر به في كتبهم، لربما عاش زوجها وظلت عزيزة في بيتها وبين قومها ؟!.

أحست ريحانة أنها كقومها لزمتها الحجة بعدما علمت أنه رسول الله الحق بحق، إذن فلما لاتؤمن به، وتصحح خطأ وخطيئة قومها؟!..خاصةً وأن ما رأته من حال سلمى وصويحباتها من المسلمات من طهارة، وصلاة، ومحبة لبعضهن البعض، وحسن معاشرتهن لأزواجهن، وتوقير وتعظيم المسلمين لشخص رسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحبهم له بمحبة تفوق الوصف إلى حد الفداء بوالديهم وأنفسهم وأولادهم من أجله، كل هذا جعلها تعيد تقييم الأمور، وكيف فاتها وهى المشهور عنها رجاحة العقل والفطنة، كيف نجاها الله من الجلاء مع قومها واستبقاها فى بنى قريظة مع زوجها، حتى حاصرها المسلمون إلا أن الله قد أراد لها الخير، ذلك الخير الذي فطن إليه من بقي من أهلها أحياء فأسلموا؟!.. أفتظل هيّ على عنادها كشأن اليهود حتى تخسر دنياها وآخرتها؟!

وبينما هيّ على حالها تلك إذ فاجأها الحيض، فبادرت وأخبرت أم المنذر لعلمها بأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينتظر الخبر، وقد صدق حدسها، إذ جاء مع أم المنذر.. ويدور حوارًا بينها وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تصفه فتقول : "دَخَلَ عَلَيّ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ، فَتَنَحّيْتُ مِنْهُ حَيَاءً ، فَدَعَانِي ، فَأَجْلَسَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ : ''إن اخْتَرْتِ اللّهَ وَرَسُولَهُ اخْتَارَكِ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِنَفْسِهِ''، فَقُلْتُ: إنّي أَخْتَارُ

اللّــهَ وَرَسُـولَهُ فَلَمّـا أَسْـلَمْتُ أَعْتَقَنِــي رَسُـولُ اللّــهِ صَـلّى اللّــهُ عَلَيْــهِ وَسَـلّمَ وَتَزَوّجَنِـي وَأَصْدَقَنِي اثْنَتَـيْ عَشْـرَةَ أُوقِيّـةً، وَنَشّـا كَمَـا كَـانَ يُصْدِقُ نِسَـاءَهُ، وَأَعْرَسَ بِـي فِـي بَيْـتِ أُمّ الْمُنْذِرِ، وَكَـانَ يَقْسِـمُ لِـي كَمَـا كَـانَ يَقْسِـمُ لِنِسَـائِهِ، وَضُرِبَ عَلَيّ الْحِجَابُ"(٥).

قال ابن سعد: هذا مـا روي لنـا فـي عتقهـا وتزويجهـا. وهو أثبت الأقاويل عندنـا. وهو الأمر عنـد أهل العلـم. وقد سمعت من يـروي أنهـا كانـت عنـد رسول الله صلى الله عليه وسلم لـم يعتقهـا. وكـان يطأهـا بملك اليمـين، ومن ذلك مـا روي عن أيوب بن بشير. أن رسـول الله صلـى الله عليـه وسلم قـال لهـا: "إِنْ أَحْبَبْـتِ أَنْ أُعْتِقَـكِ وَأَتَزَوّجَـكِ فَعَلْـتُ، وَإِنْ أَحْبَبْـتِ أَنْ تَكُـونِي فِـي مِلْكِي"، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللّهِ، أَكُونُ فِي مِلْكِكَ أَخَفّ عَلَيّ وَعَلَيْكَ. فَكَانَتْ فِي مِلْكِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، يَطَؤُهَا حَتّى مَاتَتْ(٦).

هكذا دارت أقوال أهل العلم بين أن ريحانـة كانت زوجًا للنبى ـ صلى الله عليـه وسلم ـ أو ملـك يمين، والقول الأخير أرجحهمـا وعليـه دار أكثرهم. والأمر الذى لاشك فيه أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحبها كما أحبته؛ فقد كـان يمكث عنـدها كثيرًا، ولا يرد لهـا طلبًـا، ولا تسـأله شيئًا إلا أجابهـا إليه، وهو منشرح الصدر.

وأما قول الناصحون لريحانة لمـا رأوا من حـال الرسول معها:" لـو كنت سألت رسول الله صلى الله عليـه وسلم فـي بنـي قريظـة لأعتقهم، فقالت: لـم يخل بي حتى فرق السبى". فلا أعتقد أن الرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ كان سيجيبها إلـى مطلبهـا إذا طلبت، خاصـةً وأن اليهود حينمـا رضوا بحكم سعد بن معاذ الذي حكم به، أجابه ـ صلى الله عليـه وسلم ـ من فوره: "لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ"(٧)، فكيـف كـان سيرجع عن حكم الله مرضاة لامرأةٍ أيًا ما كانت، أريحانته فاطمة بنت محمد أهون عنده من ريحانـة بنت زيد، وذلك كما جاء في حديث المخزومية،عن عائشة رضـي الله عنـها: أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقـالوا: من يكلـم فيهـا رسـول الله صلـى الله عليـه وسلم؟ فقـالوا: مـن يجتـرئ عليـه إلا أسـامة بـن زيـد حـب رسـول الله صلى الله عليـه وسلم. فكلمـه أسـامة، فقـال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : ''أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟''، ثم قام فاختطب،ثم قال : ''إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها''(٨).

أحبت ريحانة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حبًا شديدًا تبدو آثاره في غيرتها الشديدة عليه، وكان ذلك يغضبه، فطلقها ـ بحسب من رأى من أهل العلم أنهما تزوجا ـ ثم عاد إليها بعد انقطاع يسير، لما علمه مما تعانيه من وحدة، وشوق إليه، فرق قلبه لها، وعاودا المسير من جديد.

مع إطلالة السنة العاشرة من الهجرة وفي شهر ذي القعدة أعلن المنادي بأمر من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه حاج هذه السنة، وقد َرغّبَ رسول الله أزواجه جميعهن، وأقاربه، وأصحابه في الخروج معه للحج، فحج معه أزواجه كلهنّ ـ رضي الله عنهنّ ـ وبينهن ريحانة التي أكملت عامها الخامس في كنف البيت النبوي.

ما أن وطيء العائدون من الحج أرض المدينة حتى دق المرض أوصال ريحانة، فظن من حولها أنه ربما من مشقة السفر ولن تلبث أن تبرأ منه، أو ربما أتعبها وأزعجها قول الرسول لهنّ : ''إنما هى هذه الحجة ثم الزمن ظهور الحصر''(٩)، فوقر في نفسها أنه ينعي نفسه إليهن، غير أنها وهيّ تستعرض تاريخها من اليهودية إلى الإسلام، وفرحتها بما منّ الله به عليها بنعمة الإسلام، وختم لها بحجة مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، لهيّ أيام بالعمر كله، فأحست بحب الله لها إذ ساق لها النور في ركاب رسول الله يتقدمه رسول السماء جبريل، لينتشلها من وهدة الكفر حيث نور الإيمان .. نظرتْ إلى السماء حامدةً لله شاكرة، لتتابعها روحها بالصعود إلى جوار ربها رضى الله عنها وأرضاها .

حزن الرسول صلى الله عليه وسلم لموتها حزنًا شديدًا، وترك لأم المنذر مهمة تجهيزها ففعلت وقلبها يتفطر حزنًا على صحابية جليلة لازمتها بيتها

وهى الآن تغادرها حيث البقيع لتلحق بزينب بنت خزيمة وتدفن بجوارها، فيودعها الرسول والصحابة في موكب مهيب.

(١) ابن هشام ١٩١/٢.

(٢) الطبقات الكبرى ١٢٩ / ٨، الإصابة ٨٨ / ٨.

(٣) صحيح مسلم (١٧٦٩)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٦٧).

(٤) سيرة ابن هشام ٣ /٢٣٠.

(٥) الطبقات الكبرى ١٢٩ / ٨، الإصابة ٨٨ / ٨.

(٦) الطبقات ١٣٠ / ٨، الإصابة ٨٨ / ٨.

(٧)حديث صحيح أخرجه الأموي في مغازيه وأصله في الصحيحين من غير الزيادة الأخيرة من فوق سبع سماوات ،وقال الألباني : "صحيح بدون قوله: فوق سبع سموات، كذلك هو فيالصحيحين والمسند ، وأما هذه الزيادة فتفرد بها محمد بن صالح التمار.

(٨) متفق عليه.

(٩) بتحقيق الألباني: صحيح، (٧٠٠٨) صحيح الجامع.

شرفٌ لا ندعيه .. وتهمة لا ننكرها

أجهد علماء المسلمين أنفسهم في البحث عن مشروعية تعدد الزوجات في الإسلام، وخاصة التعدد الذي اختص الله به رسوله - صلى الله عليه وسلم -، فراحوا يفتشون في الديانات والحضارات السابقة على الإسلام، وعن الأنبياء الذين عددوا عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، وكأن الإسلام كدين، ومحمد بن عبدالله رسول العالمين في موضع اتهام، ووجب عليهم الدفاع عنهما، واثبات براءتهما من ذلك الفعل المشين.

ينسى من يقومون بهذا - ومقصدهم نبيل على كل حال - أن الإسلام كدين جاء ختامًا لرسالات السماء، فليس هناك دين سيأتي بعده، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو ختام عصر النبوات، فلا نبي بعده، وبالتالي فليس هناك كتاب سماوي بعد القرآن الكريم، وبداهةً ليس هناك تشريعات جديدة بعد شرع الله الذي أنزله الله - عز وجل - على نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم.

لهذا فقد جاء النبى - صلى الله عليه وسلم - ممثلاً للطاقة البشرية كلها، يتمثلها في كل حالاتها، لتستمد منه الأجيال القادمة - على اختلاف ألوانها، وجنسياتها، وجغرافيتها، وألسنتها ـ الدروس، والقدوة،والمثل، والحلول لمشاكلها، فرغم ما ذكرناه من اختلاف إلا أن الطبيعة البشرية لا تكاد تختلف في الميول والغرائز، وغيرهما..

ضرب رسول الله المثل للشاب الذي يتزوج ممن هى أسن منه، وأغنى، وكيف يتقي الله فيها وفي مالها، وقد تجسد هذا في قصة زواجه - صلى الله عليه وسلم - من السيدة خديجة - رضيّ الله عنها -، كما ضرب المثل فى زواج الرجل الكبير سنًا ممن تصغره، وكيف يكون لينًا في معاملتها، يعلمها دون تأنيب أو تعنيف، وقد تجلى هذا في زواجه - صلى الله عليه وسلم - من

السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ، ثم ضرب المثل للرجل الذي يفقد زوجه أم أولاده وقد تركت خلفها من يحتاجون أو يحتجن لرعاية الأم كفاطمة وأم كلثوم، وهو المضطلع بعبء الرسالة الثقيل، وكيف لم يخطب لنفسه حتى جاءته من تخطب له، ليختار من تكبره ولاتماثله وربما لم تَتُقْ نفسه إليها مؤثِرًا بنتيه عليه، فيختارها أرمل لشهيد في سبيل الله، ليُعلِّمَ ـ صلى الله عليه وسلم ـ من يأتي بعده من الرجال كيف تكون معاملة وتربية الرجل الذي يتزوج امرأة ذات عيال لعيالها فيتقي الله في تربيتهم والإحسان إليهم كأنهم أولاده، فكان مثالاً ـ صلى الله عليه وسلم ـ للإخلاص والتفاني حين كان زوجًا لزوجة واحدة، وأضاف إلى تلك الصفات العدل، والرحمة، والتسامح لمن عدد الزوجات، فيعدل بينهنّ في القسمة والنفقة والبسمة، ويرحم ضعفهن البشري في غيرتهن، ويسامح حدتهن، ومكايدهن بينهن، ثم يضرب المثل في بشريته ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي طالما تفاخر بها ولم يتبرأ منها، فيحركه نزوع نفسه نحو الجمال، فيتزوج الجميلات، ليعلّمَ من يأتي بعده أن الجمال نعمة على صاحبته طالما تحلتْ بقيم الدين، وفضائل الأخلاق، والأصل الكريم، وليس الجمال هدفًا في ذاته، كما تجلى ذلك في زواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جويرية، وزينب بنت جحش ـ رضوان الله عنهما ـ .

وهكذا ترى أن لكل زوجة من أزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قصة وسببًا في زواجه منها. وهنّ فيما عدا زينب بنت جحش، وجويرية بنت الحارث، لم يكن شواب ولا ممن يرغب فيهن الرجال لجمال كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ هي أحب نسائه إليه. وحتى هاتان اللتان عرف عنهما الجمال والشباب كان هناك عامل نفسي وإنساني آخر ـ إلى جانب جاذبيتهن ـ ولست أحاول أن أنفي عنصر الجاذبية الذي لحظته عائشة في جويرية مثلاً، ولا عنصر الجمال الذي عرفت به زينب فلا حاجة أبدًا إلى نفي مثل هذه العناصر الإنسانية من حياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليست هذه العناصر موضع اتهام يدفعه الأنصار عن نبيهم. إذا حلا لأعدائه أن يتهموه! فقد اختير ليكون إنسانًا، ولكن إنسانا رفيعا ــ وهكذا كان ــ وهكذا كانت دوافعه في حياته وفي أزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على اختلاف الدوافع والأسباب(١).

كانت عظمة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حياته داخل جدران بيته مع أسرته كما كانت خارج بيته، لقد صدق فولتير(٢) حين قال في كلمته المشهورة :(إن الرجل لايكون عظيمًا في داخل بيته، ولابطلاً في أسرته... وذلك لأن المعايشين له يرقبونه عن قرب، ويعلمون تصرفاته الظاهرة، ويسمعون ويتسمعون لدواخله الباطنة، فلا يشهدون له لا بالإعجاز ولا البطولة)، إلا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويشهد بهذا باسورت سميث (٣) : (إن ماقيل عن العظماء في مباذلهم لايصح ـ على الأقل ـ في محمد رسول الإسلام.. فلم يمتحن رسول من الرسل أصحابه كما أمتحن محمد أصحابه، فأول من آمن به أهله: زوجته وغلامه وبن أخيه، وأعظم الناس لايأذن لزوجة واحدة بأن تحدث الناس عن أحواله، فما بالك برجلٍ له تسع زوجات، ولم يصدر اليهنّ أمرًا ديكتاتوريًا كهذا بل أذن لهنّ بأن يحدثن أصحابه لا بكل الأحوال المعروفة نهارًا فقط، بل بالمخبوء عنهم تلفه خلوات الليل).

وقد عرض علماء الحديث كل ما يتعلق بالنبي صحيحًا أم سقيمًا، حقًا أو باطلاً، ونقلوا إلى المسلمين جيلاً بعد جيل كل أحوال رسولهم، مما يظن الذين يثيرون الشبهات حولها أنهم قد وقعوا على كنزٍ دفين، ليخرجوا من مخبوئاته على أحايينٍ من الزمن ما يظنون أنه يلوث سمعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غمزٍ له في زواجه أو أزواجه الطاهرات، وكأنهم أفذاذ في ميدان البحث العلمي والتأريخ الرصين واستكناه الأسرار، واستخراج الشبهات، ولو تحروا العظمة في أوج قمتها، لوجدوا أن هذا إنجاز لصاحب الرسالة ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُحسب له لا عليه، ولو مارس الصحابة "الإنتقائية" بحسب وجهة نظرهم فيثبتوا ويحذفوا ماشاءوا لما وجد أحدهم ما يظن أنه شبهة، فنحن نعترف بكون رسولنا بشر ولم نرفعه لمصاف الآلهة فنخفي أفعاله الإنسانية ونبررها بتبريرات خائبة لاتنطلي على عاقل.

فالسيرة النبوية هي جزءٌ مهمٌّ موثقٌ من تاريخ الإنسانية وتراثها والحمد لله ليس فيه مانخجل من عرضه، وقد كان يعلم الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الذي يعيش بين أطيافٍ مختلفة من الديانات والملل والنحل ومنهم من هو متربصٌ به وبكل مايخرج عنه ومنه، وكذلك

كان مستشرفًا آفاق المستقبل بما أوحى إليه ربه من غيب المستقبل له ولأمته من بعده، فلو أراد أن يكتم أمر بيته لألزم أزواجه بهذا، ولكنه كان يعلم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مُرسلٌ للإنسانية كلها وهو هاديها ومعلمها وخاتم الرسل ولن يرسل الله من سيعلم البشرية من بعده.

ولهذا قال الدكتور مصطفى السباعى(٤): (فلا تمتلك الإنسانية اليوم سيرة كاملة شاملة بهذا المعنى، سلطت الأضواء عليها من كل مكان فكانت مثالية ـ مثالية الواقع لا مثالية الخيال ـ، ولذا فهي تراثُ الإنسانية جمعاء، يرجع إليها المسلم تديُّنًا وتأسِّيًا وحُبًّا، ويقرؤها غير المسلم من ذوي الإنصاف ليرى نفسه أمام العظمة وقد جُمِعَتْ من أطرافها، ويعرف لهذا الرسول حقَّه).

أن الذى ميز حياة الرسول الخاتم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن حياته وسيرته وشمائله كلها قد حفظها لنا التاريخ، فليس ثمة غموض في أي ناحية من مناحي حياته الطاهرة وسيرته الشريفة. وقد اعترف بهذه الحقيقة كبار المؤرخين الغربيين. فالمؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي(٥) يقول:(الذين يريدون أن يدرسوا السيرة النبوية العطرة يجدون أمامهم من الأسفار مما لا يتوافر مثله للباحثين في حياة أي نبي من أنبياء الله الكرام).

ومن هنا لزم التنبيه؛ فليس النبي إنسانا من العظماء يقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق، ومع المنطق الشك، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة؛ ولكنه إنسان نجميّ يقرأ بمثل "التلسكوب" في الدقة، معه العلم، ومع العلم الايمان؛ ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعتهِ النورانية وحدها.

والحياة تنشيء علم التاريخ، ولكن هذه الطريقة في درس الأنبياء ــ صلوات الله عليهم ــ، تجعل التاريخ هو ينشيء علم الحياة؛ فإنما النبي إشراقٌ إلهي على الإنسانية، يقوّمها في فلكها الأخلاقي، ويجذبها إلى الكمال في نظام هو بعينهِ صورة لقانون الجاذبية في الكواكب (٦).

وليس توينبي وحده هو الذى يشهد بوفرة المعرفة عن حياة نبينا الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل طائفة من المنصفين تتالى أقوالهم لتعزف وحدها أهزوجة الحقائق متتالية متناغمة، ومنهم غوستاف لوبون، والكونت كاتياني، وبودلي وغيرهم التي تشهد بالوفرة في المعلوم عن حياة رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

إذن .. كانت زيجاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ غارقة في النفع والأهمية، علمها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وطوت جوانحه سرها، وغايتها، ومردودها على المسلمين، لما فى زواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حكمة: إما تعليمية أو تشريعية أو سياسية أو اجتماعية.. ستنتهي حتمًا بانتهاء زمانها والمراد منها.. إلا الحكمة التعليمية فبقاؤها مرهون باتصال الزمان، وامتداد المسلمين رقعةً وتعدادًا، كما عرف ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن عمره القصير على سطح كوكبنا لن يفي وحده بتعليم المسلمين كل أمور دينهم من التفاصيل الصغيرة التي سوف يحتاجها الناس دومًا، فالأحكام تتناهى وحاجات الناس لاتتناهى، ولهذا فقد ترك لهم أزواجه ـ رضوان الله عليهن ـ، وأصحابه ـ رضيّ الله عنهم ـ ينقلنّ وينقلون عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ذلك الرعيل الأول الذى عاصرالوحي وهو ينزل من السماء، والرسول المعلم والزوج والقائد يبلغ ويحدِّث في مسجده، وغزواته، وفتاواه، وأقضيته، ومعاهداته، وفي بيوته، وبين أزواجه؛ فتبليغه وحي، وكلامه سُنة، وفعله قدوة ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ورضيّ الله عن أمهاتنا الطاهرات.

(١) في ظلال القرآن ص٣٤٩٥.

(٢ فولتير، من كبار أدباء فرنسا، توفى سنة١٧٧٨م.
(٣) المستشرق الإنجليزي "بوسورث سميث" " Bosworth Smith"(١٨١٥ـ١٨٩٢)الأدب في آسيا، المقدمة.

(٤) مصطفى السباعى: السيرة النبوية دروس وعبر ص٥.
(٥) أرنولد توينبي: مدخل تاريخي للدين.
(٦) مصطفى صادق الرافعي الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام (وحي القلم) ج٢.

إتحاد الكتاب والمثقفين العرب

يُكَرِّم

''حبر الإتحاد''

الأديب السيد إبراهيم أحمد



رائحة اللغة العربية الفصحى تفوح من سطوره، وعبق عراقة التاريخ ينبعث من ثنايا كلماته..

هو الزمن الجميل من روعة الحرف ودقة الوصف ..

هو الغواص الماهر في الخلجان والمحيطات ليعود لنا بصيد ثمين تجاهلته الآقلام تحت صخور الإبداع ..

له نكهة خاصة في غزل ونسج وحياكة وصباغة موضوعاته ، وله بصمة خاصة في محاكاة التاريخ الإسلامي..

((نساء حول الرسول صلى الله عليه وسلم))

فيه روعة الحرف، ورقة الوصف، وتحليل الظرف في كل عرف وعرف.

بين سطوره أنتحى أزقة مكة ، وأعرج على ديار بني هاشم ، وأمر على ديار عبد المطلب أرى مرضعة الرسول في ديار بني سعد......وأصغي إلى القوم يجتمعون في دار الندوة ..وأتابع خطوات عمربن الخطاب ،أسمع صفعته المدوية على وجه أخته..ثم أراه معلنا إسلامه في قوة بأس متحدياً القوم كلهم انه على دين ((محمد صلى الله عليه وسلم)) وانه يقول ما يقول

((السيد إبراهيم أحمد))

يقدم شهادة على عصر ميلاد النبوة من خلال رؤيته عبر كتابه

((نساء حول الرسول))

هذا الكتاب الذي تعرض لدور المرأة في نشر الإسلام ، ودورها في السلم والحرب ، ليدحض بهذا مزاعم الغرب الذي يحاول من الترويج لمزاعمه نحو تقليص وتهميش دور المرأة في المجتمع الإسلامي

وبعد تلك الومضات النورانية يسعدني بالآصالة عن نفسي ،

ونيابة عن أعضاء اتحاد الكتاب والمثقفين العرب أن نكرم جميعاً

كاتبنا بهذا اللقب:

((حبر الاتحاد))

الكاتب والأديب الأريب

((السيد إبراهيم أحمد))

وكذلك بتكريمه بشهادة تقدير لما قدمه لنا في اثراء الحركة الثقافية

في بلاطنا العريق.كما يسعدنا إختياره مراجعاً في لجنة
((الكتاب الذهبي لاتحاد الكتاب والمثقفين العرب))
مبارك لنا جميعاً هذا التكريم.

فائق مودتي وتقديري
دكتور محمد حسن كامل
رئيس اتحاد الكتاب والمثقفين العرب

اتحاد الكتاب والمثقفين العرب يكرم الأديب السيد إبراهيم



حور- الرياض: كرّم اتحاد الكتاب والمثقفين العرب الكاتب والأديب "السيد إبراهيم أحمد" بلقب "حبر الاتحاد"، كما كرّمه بشهادة تقدير لما قدمه للاتحاد في إثراء الحركة الثقافية، واختاره مراجعاً في لجنة "الكتاب الذهبي لاتحاد الكتاب والمثقفين العرب".

أعلن ذلك رئيس اتحاد الكتاب والمثقفين العرب، محمد حسن كامل.

ومن أعمال المكرم "نساء حول الرسول"، وهو الكتاب الذي تعرض لدور المرأة في نشر الإسلام، ودورها في السلم والحرب، ليدحض بهذا مزاعم الغرب الذي يحاول الترويج لمزاعمه بتقليص وتهميش دور المرأة في المجتمع الإسلامي. كما تنشر له "حور" مقالات دورية على صفحاتها.

"حور" تهنئ الأديب السيد إبراهيم أحمد لتكريمه المستحق. وألف مبروك.

أولاً : القرآن الكريـــــــم :

ثانيًا : كتب السنة الصحيحة الواردة بالهوامش والحواشي:

ثالثا: كتب السير والتراجم :

الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر - الطبقات الكبرى لابن سعد- السيرة النبوية لابن هشام - البداية والنهاية لابن كثير - صفة الصفوة لمحمد أبو الفرج - سير أعلام النبلاء للذهبي ـ موسوعة حياة الصحابة - فضائل الصحابة لابن حنبل - دلائل النبوة للأصبهاني- الاستيعاب لابن عبد البر.

رابعًا : تفاسير القرآن الكريم :

القرطبي ـ ابن كثير ـ في ظلال القرآن.

خامسًا : المصادر والمراجع التالية :

ـ ابن كثير: السيرة النبوية للامام أبى الفداء اسماعيل بن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد الجزء الاول ١٣٩٦ هـ - ١٩٧١ م ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان .

ـ أغناطيوس غويدى : محاضرات فى تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام ، ترجمة إبراهيم السامرائى، الطبعة الأولى، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٦.

ـ إسماعيل راجى الفاروقى (دكتور) والدكتورة لوس لمياء الفاروقى: أطلس الحضارة الإسلامية، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

- السهيلي : الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨.
- المحب الطبري : السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين. طبعة حلب .
- القاضي عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق أحمد فريد المزيدي. الطبعة الأولى، المكتبة التوفيقية، القاهرة .
- توماس كارليل : محمد المثل الأعلى. ترجمة محمد السباعي، مكتبة الآداب، مصر ١٩٩١ .

- خواجة أفندى كمال الدين : ينابيع المسيحية ص ٨٥ ترجمة إسماعيل حلمى البارودى ،منشورات لجنة المحققين ، لندن ١٩٩١.

- ر.ف. برادلى :الرسول ـ حياة محمد .. ترجمة عبد الحميد جودة السحار السحار ،مكتبة مصر.

- عباس محمود العقاد : فاطمة الزهراء والفاطميون. الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت ١٩٧٤.
- عبد الأحد داود : محمد فى الكتاب المقدس. الطبعة الثانية، دارالضياء.
- عبد الشافي محمد عبد اللطيف (دكتور): تاريخ الإسلام في عصر النبوة، المعهد العالي للدراسات الإسلامية، القاهرة ٢٠٠٩.
- عائشة عبد الرحمن (دكتورة) : نساء النبي، الطبعة الخامسة. دارالهلال ١٩٧١.
- عائشة عبد الرحمن (دكتورة): أم النبى ط ٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥.
- سعيد أيوب: زوجات النبي صلى الله عليه وسلم،قراءة في تراجم أمهات المؤمنين فيحركة الدعوة، الطبعة الأولى، دار الهادي، لبنان ١٩٩٧.
- شوقى ضيف (دكتور) : محمد خاتم المرسلين. دار المعارف، مصر ٢٠٠٠.

- صفى الرحمن المباركفورى:الرحيق المختوم. الطبعة الأولى، دار الوفاء، مصر ٢٠٠٢.

ـ محمد أبو زهرة (دكتور): خاتم النبيين. المؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة النبوية.

ـ محمد بن عبدالله العوشن : ماشاع ولم يثبت في السيرة النبوية، دار طيبة، الرياض ١٤٢٨هـ .

ـ محمد شيحانى (دكتور) : هل محمد عبقرى مصلح أم نبي مرسل؟ الطبعة الثانية، دارقتيبة بيروت.

ـ محمد فتح الله كولن: النور الخالد مفخرة الإنسانية. ط١، مؤسسة الرسالة ١٩٩٩.

ـ محمد سيد أحمد المسير(دكتور): النبوة المحمدية.ط٢، نهضة مصر٢٠٠٧.

ـ مصطفى صادق الرافعي: وحى القلم . المكتبة العصرية، بيروت .

ـ نظمي لوقا (دكتور): محمد في حياته الخاصة. الطبعة الأولى، مكتبة غريب، مصر١٩٧٧.

ـ نور الدين على بن عبدالله السمهودى: وفاء الوفا بأخباردارالمصطفى، تحقيق الدكتور قاسم السامرائى، الجزء الثالث ،الطبعة الأولى ،مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ، مكة المكرمة ،٢٠٠١.



ـ السيد إبراهيم أحمد
ـ حاصل على بكالوريوس التجارة، ودبلوم الدراسات العليا فى المحاسبة المالية، جامعة عين شمس بجمهورية مصر العربية، وكذا دبلوم الدراسات العليا بالمعهد العالي للدراسات الاسلامية بالقاهرة ، وحاليًا بشعبة ماجستير الإقتصاد الإسلامي .
ـ صحفي بجريدة البيان العربي، وجريدة فرسان السويس، وجريدة حديث البلد.
ـ صدر له كتاب المعجزة المحمدية، وكتاب : (محمد صلى الله عليه وسلم .. كما لم تعرفوه) عن دار دوّن للنشر بالاشتراك مع دار الكتب والتوثيق بالقاهرة،و موسوعة سياحة الوجدان فى رحاب القرآن، وكتاب : "نساء فىي حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ". وله مجموعة قصصية : (سلطان عرش الدخان) ، وديوان للأطفال: (نادر يبحث عن السعادة) وكذلك ديوان بالعامية المصرية .... وغيرهم.
ـ عضو بإتحاد الكتاب والمثقفين العرب.
ـ حصل على شهادة تقدير من إتحاد الكتاب والمثقفين العرب ، ولُقِبَ بـ "حَبر الإتحاد"
ـ حصل على شهادة تكريم وتقدير من موقع "المختار الإسلامى".
ـ شارك فى التحكيم فى المسابقات الأدبية بالمملكة المغربية .
ـ صدر له ديوان على موقع أبيات الشعر والشعراء .
ـ فاز في بمسابقة قصص على الهواء بإذاعة BBC بالاشتراك مع مجلة العربى عن مايو ٢٠١٠،عن قصته : (القطار).
ـ له عدداَ من الدراسات النقدية والمقالات السياسية وغيرها.

ـ يقرض الشعر وقد تغنى بقصائده وأغنياته الدينية الكثير من المبتهلين بالقنوات الفضائية الإسلامية، مثل : قناة الناس ، فرقة إنشاد الناس، البركة، الأمة، البدر،الصحة والجمال، الحافظ، القناة الرابعة، النيل الثقافية المصرية .. كما بثتها بعض الإذاعات، و كذلك قدمتها دار الأوبرا المصرية.
ـ أعد عددًا من البرامج الدينية لبعض القنوات، مثل : واحة المستغفرين، لقاء الإيمان ، مع أسماء الله فهمٌ وذكر ، وسهرات رمضانية، غير كليب عن مناسك الحج، وكليب فى الدفاع عن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، وشريط دينى للأطفال.
تنشر أعماله: مجلة الرباط الأدبى التى تصدرها رابطة الأدب الإسلامي العالمية، شبكة الألوكة ، دار ناشرى للنشر الالكترونى،المستقبل، دنيا الرأى، مجلة الجيل، الأهرام، الفجر نيو، الواقع، الدلتا ، مجلة الفكر الحر، صحيفة الشرق القطرية، حور، المختار الإسلامي، مقالاتي، مكتوب، شبكة أعلام القدس، ألوان عربية، مجلة رؤى مصرية.

ـ للإتصال بالكاتب :

ـ elsayedebrahim1@hotmail.com
ـ elsayedebrahim22@gmail.com
ـ elsayedebrahim22@yahoo.com

ـ ٠٠٢٠١٠٠٠٧٠٢٢٨٢

ـ الموقع :
http://kenanaonline.com/elsayedebrahim

ـ المدونة:
http://elsayedebrahim22gmail.blogspot.com

ـ الفيس : http://www.facebook.com/profile.php?id=100000789262267

ـ تويتر:https://twitter.com/_239498491495